

**THE BOOK WAS
DRENCHED**

UNIVERSAL
LIBRARY

OU_190232

UNIVERSAL
LIBRARY

أهداء الكتاب

ألف المؤلفون والكتاب أن يبدأوا كتبهم عند
بإهداءها إلى بعض ذوى الشأن والفضل . والضعيف العال
هذا الكتاب إلى كل من يقرأه من أديب يجده
الأدب وحكيم يرى فيه لمحة من الحكمة وعالم
من العلم ولغوى يصادف فيه أثراً من القص
فيه بمثل طيف الخيال من لطف الخيال

وأهديه إلى أرواح المرحوم .

لدين . ١١١٠٠
رئيس الأديب الوالد والحكيم جمال

نعلم حمد عبده واللغوى الشنقيطى والشاعر البارودى
أولئك الذين أنعم الله عليهم وأولئك الذين تأدبت بأدبهم وأخذت عنهم

وأهدى هذه الرسالة التى اختصنى بها المرحوم الأستاذ جمال
الدين الأفغانى بخطه الكريم منذ خمس عشرة سنة إلى جماعة أهل
الفضل والأدب لما تضمنته من الحث على طلب العلم وأدب
النفس ولحسن أسلوبها فى كتب المودات . وهى لا تزال عندى
إماماً يهدينى ونوراً أستضيء به فأردت أن أشاركهم فى هذه

الذخيرة التي يحق الضنّ بها والحرص عليها ونقلتها هنا بصورة خطه الشريف تحليداً لأثر تلك اليد الكريمة . وإذا قدرنا أن الشرقيين يتنافسون تنافس الغربيين في اقتناء الرسائل التي تكون قد صدرت عن بعض عظماء الرجال بخطوطهم وينساقون إلى الحصول على بعض أدوات كتابتهم ويبدلون في سبيل ذلك من الأموال والمساعى مالا يقدّر فإني أكون قد أهديت إلى أهل الفضل هدية يعتدّون بها ويتقبلونها بالقبول الحسن إن شاء الله .

جبرِ مفضل

نقبت في شئون الكمال رشح المصدر الجمع من حشرها
 وخرصت في فنون الادب يرحم قلوبا علف بك اما لها
 وليس بعده الهدي والهدى ذلك برمة القدر
 ولقد شئت للطف المروية في مكررة اخرس وبذل نفسي من
 فاشد برزها وكرمها اوتيت من كبدته والحق راسها
 حتى تكون كلمة الحق هي العليا وتكون كالدني غزتهم انفسهم
 امراها وانتم مطعون الامهارة سفاهها وحيدوا انهم يحسون
 صفا ويصلون امر اوكن عزالتي دريغك ولا تقف في مكر
 لا انفسهم عند محكم لا نهية للفضيلة ولا حد للعلم ولا موقف للفرار
 زانفت بفرزيتك هي مية او اباها من فيرك ومسلم جبال موي حشيتي مدمك

حبيبي الفاضل

تقبُّبك في شؤون الكمال يشرح الصدر الحرجة من
 حسرتها وخوضك في فنون الآداب يريح قلوباً علقت بك آمالها
 وليس بعد الإرهاص إلا الإعجاز ولك يومئذ التحدّي ولقد
 تمثلت اللطيفه الموسوّنه في مصر كرتة أخرى وهذا توفيق من الله
 تعالى فاشدد أزرهما وأبرم بما أُوتيت من الكياسة والحدق
 أمرها حتى تكون كلمة الحق هي العليا ولا تكن كالذين
 غرّتهم أنفسهم بباطل أهوائها وساقطهم الظنون الى مهواة شقاءها
 وحسبوا أنهم يحسنون صنعا واصلحون أمراً وكن عوناً للحق ولو
 على نفسك ولا تقف في سيرك إلى الفضائل عند عجبك لانهاية
 للفضيلة ولا حدّ للكمال ولا موقوف للعرفان وأنت بغريزتك
 السامية أولى بها من غيرك والسلام
 جمال الدين الحسيني
 الأفغانى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الواحد العدل . والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي
الأمي القرشي الأب طحجي التهامي المكي المدني وآله الطيبين
الطاهرين . وبعد فهذا الحديث حديث عيسى بن هشام وإن كان
في نفسه موضوعا على إسق النخيل والتصوير فهو حقيقة متبرجة في
ثوب خيال لأنه خيال مسبوك في قالب حقيقة حاولنا أن نشرح به
أخلاق أهل العصر وأطوارهم وأن نصف ما عليه الناس في مختلف
طبقاتهم من النقائص التي يتعين اجتنابها والفضائل التي يجب التزامها .
وهذه الطبعة الثانية بعد تقاد الطبعة الأولى تعيدناها بما تقتضيه معاودة
النظر من اصلاح مواضع النقص والإهمال . ومداركة ما لا يخلو منه كل
عمل من شائبة السهو والإغفال ومن الله التوفيق لكل حال والتسديد
في كل مقال وفعال

حدثنا عيسى بن هشام - قال رأيت في المنام . كأنى في صحراء
 « الإمام » . أمشى بين القبور والرجام . فى ليلة زهراء قراء . يستر
 بياضها نجوم الخضر . فيكاد فى سنا نورها ينظم الدرّ ثاقبه .
 ويرقب الدرّ راقبه . وكنت أحدث نفسى بين تلك القبور . وفوق
 هاتيك الصخور . بفرور الإيسان وكبره . وشموخه بمجده ونخره .
 وإغراقه فى دعاويه . وتعاليه فى تعاليه . واستعظامه لنفسه . ونسيانه
 لرمسه . فقد شمع المغرور بأنفه حتى رام أن يثقب به الفلك .
 اسنكباراً لما جمع واستعلاء بما ملك . فأرغمه الموت فسدّ بذلك الأنف
 شقاً فى لحده . بعد أن وارى تحت صفائح صحائف عزه ومجده . ومازلت
 أسير وأتفكر . وأجول وأتدبر . حتى تذكرت فى خطاى فوق رمال
 الصحراء قول الشاعر الحكيم أبى العلاء :

خفف الوطء ما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد
 وقبيح بنا وإن قدّم العهد هوان الآباء والجداد
 سر إن أسطعت فى الهواء رؤيداً لا أختيالاً على رفات العباد
 فقرعت سن الندم . وخففت وطء القدم . وإن فى دهماء أولئك
 الأموات . وغمار تلك الرمم والرفات . لمباسم طالما حول العاشق قبلته

لقبيلتها . وباع عذوبة الكوثر بعذوبتها . قد امتزجت بغبار الغبراء .
واخلطت ثناياها بالخصى والحصاء

ونذكرت أن تلك الحدود التي كان يغار منها الورد فيكي
بدموع الندى . ويشعل الفؤاد منها بنار الجوى . ويقف الخال
منها موقف الخليل من النيران . أو ابن ماء السماء في شقائق النعمان .
ويتفرق فيها ماء الجباء وماء الشباب . فدطوى الدهر حسنها طي
الكتاب . وصارت بحكم القضاء . أديماً لوجه القضاء

وأن تلك العيون التي صادت بأهدابها الملوك الصيد . فكانوا رعاة
الأمم رعايا الغيد . وسحرت ببابل هاروت وماروت . وأوقفت
موقف الاستكانة رب الجلال والجبروت . لتتمس - والتاج في يمينه .
وعرق الجباء فوق جبينه - من خلال لحظاتها قبولاً . كسائل يمد
لالتماس الإحسان كشكولاً . قد أمت تران تحت الرمس . كأن لم
تقن بالأمس

وأن ذلك الفاحم الأثيث من الشعر . الخاطف بريقه سواد
القلب والبصر . قد حصده من منابته يد الزمن . فنسج الأجل منه
ثوب الكفن

وأن تلك النهود التي كأنها حقائق من لجن تزيت بحب من

المرجان . أوكراتٍ من جليدٍ بثقٍ فيها زهر من الرمان . قد أصبحت
كالخلاة على الصدر . تحمل الزاد لدود القبر :

كم صائنٍ عن قبلةٍ خدّه سلّطت الأرضُ على خدّه
وحاملٍ ثقل الثرى جبدّه وكان يشكو الضعف من عقده
وأن تلك الرُفات والعظام . من بقايا الملوك العظام . الذين كانوا
يستصغرون الأرض دارا . ويحاولون عند النجوم جوارا . وتلك
الضلوع التي انحنت على البطش والحلم . والشفاه التي طالما فظت أمر
الحرب والسلام . - وتلك الأنامل التي كانت تبرى القلم للكتاب .
وتبرى بالسيوف الرقاب . - وتلك الوجوه والرؤوس . التي استعبدت
الأبدان والنفوس . ووُصفت نارة بالبدور ونارة بالشموس . - قد
تساوى الرئيس فيها بالمرؤوس . فلا نفرق اليوم ولا تميز . بين الذليل
مها والعزير :

هو الموت . مُر عنده . مثلُ مُقترٍ

وقاصدُ نهجٍ مثلُ آخرٍ ناكبٍ

ودرعُ الفتى في حكمه درعُ غادةٍ

وأُسامُ كسرى من بيوت العناكب

فَرُجِّلَ فِي غِبْرَاءَ وَالْخَطْبُ فُفَارَسَ
وما زال في الأهلين أشرف رَاكِبِ
وما النعشُ إِلَّا كالسفينَةِ رَامًا

بِفَرَقَاهُ فِي مَوْجِ الرَّدَى الْمُتْرَاكِبِ
وبينا أنا في هذه المواقظ والعبر . وتلك الخواطر والفكر . أتأمل
في عجائب الحدَثَانِ . وأعجب من قلب الأَزْمَانِ . مستغرقا في بدائع
المقدور . مستهديا للبحث في أسرار البعث والنشور . إذا برَجَّةٌ عَنيفَةٌ
من خلفي . كادت تقضى بحتفي . فالتفتُ التفتاة الخائف المذعور .
فرايت قبراً انشق من بين تلك القبور . وقد خرج منه رجلٌ طويل
القامة . عظيم الهامة . عليه بهاء المهابة والجلالة . ورؤاه الشرف
والنبالة . فصعقتُ من هول الوَهْلِ والوَجَلِ . صعقة موسى يوم دُكَّ
الجليل . ولما أفقتُ من غشيتي . وانتهت من دهشتي . أخذتُ أسرع في
مِشيتي . فسمعتُه يناديني . وأبصرته يدانيني . فوقفت امتثالاً
لامره . واتقاء لشره . ثم دار الحديث بيننا وجرى . على نحو ما تسمع
وترى . بالتركية تارة وبالعربية أخرى :

(الدفين) - ما سمك أيها الرجل وما عملك وما الذي جاء بك
فقلت في نفسي حقاً إن الرجل لقريب العهد بسؤال الملكين

فهو يسأل على أسلوبهما فاللهم أنقذني من الضيق . وأوسع لي في الطريق . لأخلص من مناقشة الحساب . وأكتفي شر هذا العذاب . ثم التفت إليه فأجبتة :

(عيسى بن هشام) - اسمي عيسى بن هشام وعلمي صناعة الأقلام . وجئت هنا لأعتبر بزيارة المقابر . فهي عندي أوعظ من خطب المنابر (الدفين) - وأين دواتك بامعلم عيسى ودفترك

(عيسى بن هشام) - أنا لست من كتاب الحساب والديوان . ولكنني من كتاب الإنشاء والبيان

(الدفين) - لا بأس بك فاذهب أيها الكاتب المنشئ فاطلب لي ثيابي وليأتوني بفرسي « دحمان »

(عيسى بن هشام) - - وأين يكون ياسيدي بينكم فإني لا أعرفه (الدفين) مشمزا - قل لي بالله من أي الاقطارات أنت فإنه يظهر لي أنك لست من أهل مصر إذ ليس في القطر كله من أحد يجمل بيت أحمد باشا المنيكلي ناظر الجهادية المصرية

(عيسى بن هشام) - اعلم أيها الباشا أنني رجل من صميم أهل مصر ولم أجهل بيتك إلا لأن البيوت في مصر أصبحت لا تعرف بأسماء أصحابها بل بأسماء شوارعها وأزقتها وأرقامها فاذا تفضلت

وأوضحت لي عن شارع يتسكم وزقاقه ورقه انطلقت اليه وأتيتك
بما طلبه

(الباشا) مغضبا - ما أراك أمها الكاتب إلا أن بعقلك دخلاً
فمتى كان للبيوت أرقام تُعرف بها وهل هي « إفادات أحكام » أو
« عساكر نظام » والأولى أن تناوئي رداءك أستتر به وبصاحبي
حتى أصل الى بيتي

(قال عيسى بن هشام) - فنزلت له عن ردائي - وقد كان
المعهود أن سلب المارّة لا يكون إلا من قطاع الطريق فإذا هو
يكون أيضاً من سكان القبور - ثم ارتداه مستنكفاً متردداً وهو يقول
(الباشا) - للضرورة أحكام وقد لبسنا أدنى من هذا الرداء
في مصاحبنا لأنفدنا المرحوم إبراهيم باشا على طريقة التنكر
و « التبديل » في اللبالي التي كان يصرفها في البلد ليستطلع بنفسه
أحوال الرعية . ولكن كيف العمل وكيف يتسنى الدخول

(عيسى بن هشام) - ماذا تريد

(الباشا) - أنسيت أنا في الثُلث الأخير من الليل وليس

من يعرفني هذا الرداء على أبواب مصر ولم يكن معي كلمة « سر »
للبل . فكيف تُفتح لنا الأبواب

(عيسى بن هشام) - كما أنك يا سيدى لم تعرف أرقام البيوت ولم نسمع بها فى حياتك فأنا لا أعرف « سرّ الليل » ولم أسمع به (الباشا) مستهزئاً ضاحكاً - ألم أقل لك إنك غريب الديار ألم نعلم أن « سرّ الليل » كلمه تصدر من القلعة فى كل ليلة إلى « الضابطه » وإلى جميع « القره قولات » والأبواب فلا يجزؤون لأحد مشى الليل إلا إذا كان حافظاً لهذه الكلمه يلقيها فى اذن البواب فيفتح له وهى تُعطى لمن يطلبها من الحكومه سرّاً لفضاء أشغاله بالليل وتغير فى كل ليلة . فليله تكون كلمه « عدس » وليله تكون « خضار » وليله تكون « حمام » وليله تكون « فراخ » وهلم جرّاً

(عيسى بن هشام) - بظهر لى من كلامك هذا أنك لست أنت من أبناء مصر فما علمنا أن هذه الألفاظ نطق فيها على غير الألفظه ولم نسمع أنها تدل على الإجازة للناس بالسير فى ليالهم . ومع ذلك فقد دنا الفجر ولم يبق بنا من حاجه لهذه الكلمات أو غيرها (الباشا) - الأمر فى ذلك موكول إليك

قال عيسى بن هشام - فسرنا فى طريقنا وأخذ الباشا يزيدنى تعريفاً بنفسه ويقص على من أبناء الحروب وأخبار الوقائع التى

شاهدها بعينه وسمعها بأذنه ويزكر لى ماشاء من مآثر محمد على وشجاعة
إبراهيم. ومازلنا على تلك الحال حتى وصلنا فى ضوء النهار إلى ساحة
القلعة وقوف وقفه المستكن الخاشع يقرأ سورة الفاتحة لضريح محمد على
ويخاطب القلعة بقوله فى بلاغة تركيته :

« إيه لك يا مصدر النعم ومصرع الجبارة من عتاة الممالك ويا بيت
الملك وحصن المملكة ومنبع العز ومهبط القوة ومرتع المجد
وموئل المستغيث وحى المحتمى وكنز الرغائب ومنتهى المطالب ومثوى
البطل الشهيم ومقبر الملك الهمام . أها الحصن كم فككت بالكرم
عانيا . وقيدت بالاحسان عافيا . وتم أرغمت أنوفا . وسللت سيوفا .
وجمعت بين البأس والندى . وداورت بين الحياة والردى »

قال عيسى بن هشام - ثم النفث الباشا إلى وقال : أسرع بنا نحو
البيت لألبس ثيابى وأنقلد حسامى وأركب جوادى ثم أعود إلى
القلعة فألثم أذيال وليّ النعم الداورى الأعظم



ولما غادرنا ساحة القلعة انحدرنا فى الطريق وبيننا نحن نسير إد
تعرض لنا مككّار يسوق حمارة وقد راضه الخبيث على العرض
وسدّ الطريق على المارة فكلمنا سرنا وجدنا الحمار فى وجهتنا والمككّارى

ينبح بصوت قد نبح حتى أمسك بذيل صاحبي يقول له :
(المكارى للبasha) - اركب يا أفندي فقد عطلتني وأنا أسير
وراءك من الصباح

(البasha للمكارى) - كيف تدعوني أيها الشقي إلى ركوب الحمار
وما رغبت فيه أبداً وما دعوتك في طريقى وكيف لمثلنى أن يركب
الحمار الناهق . مكان الجواد السابق

(المكارى) - وكيف تنكر إشارة يدك التى دعوتنى بها وأنت
تتكلم مع صاحبك فى طريق « الإمام » وقد دُعيتُ مراراً من
السائرين فلم أقبل منهم ولم ألتفت إليهم لارتباطى معك بتلك الإشارة
فاركب معى أو أعطني أجرى

(البasha) وهو يدفع المكارى يده - اذهب عنا أيها السفينه
فلو كان سلاحى معى لقتلتك

(المكارى) متسافهاً فى القول - كيف تجسر على هذا الكلام
فأما أن نعطينى أجرى وإما أن تذهب معى إلى « القسم » وسترى هناك
ما يما قبونك به على تهديدك إياى بالقتل

(البasha لعيسى بن هشام) - انى لأعجب من صبرك على هذا
الفلاح السفينه الذى استرسل معنا فى سفاهته ووقاحته فلم يفسد به

بالنيابة عنى حتى نريحه من عيشته ونريحنا منه

(عيسى بن هشام) - كيف يكون ذلك وأين القانون وأين الحكم
(الباشا) - مالى أراك فداشق الخوف قلبك وقطع الهلع أنفاسك
أيعتريك الخوف وأنت معى إن هذا لعجيب منك
(المكاري) مستهيناً - العفو! العفو! من هو أنت ومن هو غيرك
ونحن في زمن الحرية لا فرق بين الصغير والكبير ولا تفاوت بين
المكاري وبين الأمير

(الباشا لعيسى بن هشام) - ويحك هلم فاضربه أو دعنى أقتله
(عيسى بن هشام) - أنا لا أضرب أحداً وأنت لا تقتل أحداً ما دمنا
معى واعلم أنه لا نصدر منا (مخالفة) أو « جنحة » أو « جنابة »
إلا والعقاب من ورائها فلا تعجب من طول صبرى واحتمالى وأقول
لك ما قاله الخضر لموسى عليه السلام « إنك لن تستطيع معى صبراً
وكيف تصبر على ما لم تُحِطْ بِهِ خُبراً » والطريقة للتخلص من سفاهة
هذا السفیه أن أعطيه شيئاً من الدراهم فيحول عنا الى سوانا وأنا
أسأل الله أن يبلغنا بيتك بالسلامة

(الباشا) - لا تعط هذا الكلب النابح درهما واحداً وقد أمرتك
أن تضربه فان لم تفعل فانا أنزل إلى ضربه وتأديبه والفلاح لا يصلح

(عيسى بن هشام) - نعم ان هذا البوليس هو ولى الامر اخذت فيه الفوة الحاكمة

(الباشا) - است افقه هذا المعنى فأوضح لي حقيقة هذا البوليس
(عيسى بن هشام) - هو « القوّاس » الذى نعرفه
(الباشا) - وأين هذا « القوّاس » الذى لا يسمع النداء فاني
ارغب في حضوره لبلقى امرى في هذا الشق
(المكارى) - يا بوليس ' يا بوليس '

(الباشا لعيسى بن هشام) - هلم الى مساعدته في نداء القوّاس
قال عيسى بن هشام - فقلت في نفسى كيف انادى البوليس
وانا احمد الله على سكوته وسكونه وهو بمفرده منا لا يكثرث بنداء
المسئغيث . ثم التفت الى الباشا وقلت له : ان البوليس هو هذا الذى
تراه أمامنا وابس يفيد فيه الآن صاح أو ندائه فانه مشتغل ببائع
الفاكهة كما ترى . ولما لمح المكارى البوليس أمامه أسرع اليه
وتبعه من تجمع حولنا من النظارة فوجدوه واقفا وفي يده مندبل
أحمر قد امتلأ بأصناف متنوعة مما جمعه في صباحه من باعة الاسواق
في محافظته على « النظام » وهو لاه بصاحب الدكان يأمره ان
بضع في داخلها ما عرضه في خارجها من عيدان القصب وفي يده عود

منها يهدده به ويهزه في وجهه هزة الرمح ثم هو يضاحك من
جبهة أخرى طفلاً على كتف امرأة وينأغيه حتى اذا أقبلنا نحوه أقبل
علينا والمندبل في بدٍ وعود القصب في الاخرى

(البوليس للجمع) - ماهذا الصباح في الصباح وما هذا النداء
وما هذا المعناء كأن كل واحد من الالهالى يريد أن يكون له واحد
من البوليس حاص بخدمته

(المكارى) - أغثنى «باسعادة الجاويش» فان هذا الرجل ضربنى
ولم يعطنى أجرنى وأنت تعرفنى في هذا «الموقف» وتعرف أننى است
ممن يتشاجر أو يتخاصم

(الباشا) - خذ أيها القوَّاس هذا السفينه وضعه في السجن حتى
بأتيك أمرى فيه

(البوليس للمكارى) - من أين ركب معك هذا الرجل يا «مْرِسَى»

(المكارى) - ركب معى من جهة «الامام»

(الباشا للبوليس) - ماهذا الابطاء في تنفيذ أمرى . أسرع به

الى السجن

(البوليس) ضاحكاً هازئاً - أظنك ايها الرجل من « مجاديب
الحضرة » فى «الإمام» هلمَّ معى الى القسم فان هيئتك تبنى عن افلاسك

ومحزك عن دفع الاجرة

قال عيسى بن هشام - وجذب الشرطي صاحبي من ذراعه فكاد يُغَمِّي عليه من الدهشه فلم يدر ما يصنع . وأودع البواس ما كان في يده من الفاكهة وغيرها عند الرجل الذي أودع المكاري حماره عنده وسار صاحبي مسحوباً بذراع الشرطي والمكاري خلفهما والجمع على أثرهم الى « القسم » فلما وصلوا اليه وصعدوا السلم بدأ المكاري بصرخ ويصبح ففنا بله احد عساكر « المراسلة » فضربه لاسكته لان « حضرة المعاون » غرق في نومه فدخلنا جميعا في حجرة « الصول » اضبط الواقعة فوجدنا دأياً كل والقائم في أذنه وقد نزع « طربوشه » وخلع عليه وحلّ ازرار ثيابه ومجانبه انسان من الفلاحين اظنهما من اقربائه يشاهدان ما يتبع به من لدن الامر والنهي وسمعه سلطانه على الكبير والصغير في عاصمة القطر وقاعدة الملك وما في قدرته من حبس أى شخص كان وشهادته عليه بما يجري في هواه . فطردنا جميعا من الحجرة حتى ينهى من طعامه فخرجنا ننتظر وأراد الباشا ان يستند على الحائط من شدة ما ألمّ به من الحزن فخاضته يده فسقط فوق جندي كان يكنس الارض هناك فأخذ الجندي في السب والشتم ودخل الى حجرة « الصول » هاجماً فقال له ان المتهم الذي يشتكى منه المكاري

بعدى عليّ « في اثناء تأديته وظيفتي » فضر بي بكل جسمه . فامر
 « الصول » باحضاره ونادى كاتبه العسكريّ فطلب منه ان يحرر
 « محضرين » محضر مخالفه ومحضر جمعه وألّى عليه كلاماً مصطاحاً
 عليه لم افهمه حرفاً . وبعد ان شهد « البوليس » الذي جئنا معه في
 محضر المخالفة بما يقع العسكري في تأييد دعواه ونشهد « الصول »
 نفسه في محضر الجمعه بأنه شاهد المهم يتعدى على احد عساكر المسم
 في اثناء تأديته وظيفته ختم المحضرين وأمر بالمهم ان يؤخذ الى
 « خشبة المفاس » وحرير « ورفه التتبه » جاء العسكري صاحب
 الدعوى واحذمين صاحي واجرى ذلك عليه بنفـه واذافه انواعاً من
 الادى في مفاسه . كل هذا بالباشا كالمغشي عليه من الدهشة والذهول
 حتى اذا أفاق من عنيه المنب الى يقول :

(الباشا) - انا لا أصور في هذه الحاله التي انا عليها الا أن
 يكون اليوم يوم حشر أو أن اكون حلاً في المنام أو ان يكون
 الداوري الأعظم غضب على غضباً شديداً فأمر باهاني على هذه
 الصورة الشنيعه

(عيسى بن هشام) - لا بد لك من التسليم والاحتمال على
 كل حال حتى نخلص من هذه النازله بسلام

قال عيسى بن هشام - ولما وقفنا أمام الكايب لتحرير « ورقة
النشيبه » سأل الباشا هل له من ضامن يضمه فتقدمتُ نفسي
لضمانه فلم يقبلوا منى الابتصديق « شيخ الحارة » خرب في أمرى
ومن أين أجد « شيخ الحارة » في الحال . فالتقى بعضُ العساكر
في أذننى أن اخرج فانك نجد « شيخ الحارة » بالباب فأعطه عشرة
قروش للنصديق على الضمانه فخرج ولحقنى ذلك العسكرى فداى
على شيخ الحارة وتوسط بيننا فى مناولة اجرة التصديق . ثم استغل
عنى بمشاركه العساكر فى ضرب أبواب النضابا الذين علا صياحهم
وعويلهم ليخرسوهم خشية ان يوقظوا المعاون من رقاده ثم مالبثوا
ان رأيتهم فدامتعو عن الضرب فى أقل من لمح البصر وفرقوا
مهرولين كأن نازلا نزل عليهم من السماء ووجدت من كان من
بينهم أشد إنداء لعباد الله وأعظم حرصا على راحة المعاون فى مناهه
قد هجم على باب الحجرة فدفعه بكل قواد ففتحه واخذ بهز
السرب رهزاً عنيفا فاستبقت المعاون فزعا وعلم ان « المنقش » قد
شوه داخلًا من باب القسم فاسرع الى ثيابه فلبسها فى لحظة
وهروا الى استقباله فلما رآه وقف « وقفه النظام بعلامة التعظيم »
والكن كان من نكد طالعه انه ذهل عند لبس « الطربوش » فلم يجعل

زره جهة اليمين بل تركه فوق الجهة وكان الشعر قد تجدد في عارضيه
لانه لم يتمكن من حلقه في يومه فأخذ المفتش عليه ذلك ودخل الى
الحجرة مغضباً فاشتغل بكتابة تقرير لما كرهه المعاون على مخالفته في
الزى « لاوامر المسندية »

ولما رأى الباشا سكون الضرب والصياح مرة واحدة وما
تولى العساكر من الخوف والاضطراب وما شاهدوه من حركات
المعاون سأل عن شأن هذا الداخل الذى أورت ذلك الانقلاب
فأعلمه بأنه « المفتش » جاء إلى « القسم » للنفش والنتيب في
الاحوال والنظر في سكوى الشاكين ويطبق أعمال العمال على
ما يقضى به القانون والنظام . فقال اذاً فلندخل اليه لنعرض عليه
ما اصابنا من الاهانة . فدخلنا فوففنا أمامه فوجدناه يكتب في
تقريره فالتفت اليه وسألنا عن أمرنا ولما بدأنا بذكر القصة أمر
أحد العساكر باخراجنا من حضرته . ثم رأيناه قد وضع التقرير
في جيبه بعد كتابته ونزل مسرعاً لم يلف في النفش والنتيب لغير
زى المعاون . ولما انصرف عاد الضرب والصياح والضجيج في
انحاء القسم الى أشد ما كان عليه قبل حضوره . وصاح أحد
المضروبين في شدة ألمه بأنه لا بد ان يشتكى عمال القسم الى

« النبابة » فدخل أحد العساكر الى المعاور ليخبره بما يقول الرجل فوضعت أذنى عند الباب فسمعت المعاور يحدث نفسه بموله : « ما هذه الخدمة وما هذا الذل ولعنة الله على ضرورة الحاجة في المعاش . ومع ذلك فالحمد لله اذ كان هذا النفس من الانكانز ولم يكن من « أولاد العرب » فهو خير منهم لأن عجزه في فهم اللغة وجهله بالعمل جعله يقصر في التنميش على طربوسي وحينى ولو كان من « أولاد العرب » لأطلع على الاخلال الواقع في المضانا وما يركبه عمال النسم من مخالفة « الاصول » . تم التفت الى العسكري وسمع منه ماينله اليه من قول ذلك الرجل الذي عزم على الشكاية الى « النبابة » فازداد همه واشد غضبه فأمر بحبس النهمين جميعاً أربعاً وعشرين ساعة والباشا داخل فيهم فذهب الى المعاور وكتبته فيه ليطالعه بعد ضمانى له فأبى ذلك وقال لى بوجه عموس : الأولى أن يبقى في النسم الى الغد حتى يكشف على « السوابق » تم يرسل من هنا الى النبابة . فدخل الباشا الحبس مع الداخلين



قال عيسى بن هشام - ولما تركت صاحى فى حبسه وذهبت الى دارى بت طول ايلتى فى هم وأرق وقضيت رقادى فى اضطراب

وقلنى لما أصاب الرجل من ضربات الدهر المتشابه وهو غريق فى دهشته وحيرته لا يدرك مضى الزمن ولا يدرك ما الحال ولا يعلم بتغيير الأمور وما أحدثه الدهر بعد عهده وزوال دولته من بديل الأحكام وأنساب الدول . وكنت هممت أن أكشفنه بشرح الأحوال وتفصيل الأمور عند أول مصاحبتى له لولا ما دهمنا به القضاء المحموم فأوقفنا فيما ألم بنا . ثم فكرت بعد ذلك فكان من حسن المدير وسداد الرأى عمدى أن ينى الرجل جاهلاً بالامرحى يأنهى من خطبه ويكون جهلاً بتغيير الأحوال قائماً بعذره فى النخاص من محاكمه ثم عمدت العربيه على أنى لأفارق صحبه بعد ذلك حتى أريته ما لم ير وأسمعه ما لم يسمع وأنسرح له ما خفى عليه وغمض من تاريخ العصر الحاضر لا طالع على ما يكون من رأيه فيه عدمه مقابلته بالعصر الماضى ولا أعلم أى العهدين أجلّ قدراً وأعظم نفعاً وما هو الفصل الذى يكون لأحدهما على الآخر . فبكرب الى القسم فى اليوم الثانى وحملت معى ما يلقى بصاحبى من الثياب ليرتديها عند خروجه من حبسه فوجدت العسكرية يستعد به للذهاب الى قلم « السوابق » فى دار المحافظة فلما بصر بى نادانى بقوله :

(الباشا) - ما هذه الخطوب والملمات قد كنت أظن أن ما وقع

لى فى أمس كان لسخط ولىّ نعمتنا الداورىّ الأعظم وغضبه على عبده بمكيدة كادها لى أعدائى أوفرية افتراها حسادى فلذلك صبرت لحكم الضرورة وامثلت على تلك الصورة حتى أتمكن من التشرف بالاعتاب والمثول بين يدى مالك الرقاب فأزيل الشبهة وأنفى الريبة وابرأ له مما رمانى به الساعى والواشى وأجلى له حقيقة عبوديتى واخلاصى فيضاعف علىّ رضاه لحسن ماقت به من الطاعة فى احتمال هذا الهوان

طال منى تحملٌ خلتُ أنى قابض من أذاته فوق حجر
ثم انى أعمد بعد ذلك الى إفشاء العقاب عقاب القتل والصلب
فى هؤلاء الاذنياء السفهاء والأشقياء الأغبياء جزاء ما جتروا عليه
فى معاملتى واقترفوه من جهل منزلتى ولكنى سمعت فى الحبس -
ويا سوء ما سمعت - وعلمت - وياشر ما علمت - ان الدول دالت
والأحوال حالت وانكم أصبحتم فى زمان غير ذلك الزمان وفى حال
من الفوضى يصح فيها قول ذلك المكارى : « انه هو والباشا فى المنزلة
سواء » وتلك التى :

تُصمُّ السميع وتعمى البصير ويُسأل من مثلها العافية
فاللهم عفوك وصفحك هل قامت القيامة وحان الحشر فانطوت

المراتب وأنحلت الرئاسات وتساوى العزيز بالذليل والكبير بالصغير
والعظيم بالحقير والعبد بالمولى ولم يبق لقرشيّ على حبشيّ فضل ولا
لأمير منا على مصرىّ أمر . ذلك مالا يكون ولا تحتمله الظنون .
ثم اعلم أيها الرجل ان ذنب أولئك السفهاء فيما جنوه على لا يعدّ
في جانب ذنبك عندي الا كالخردلة من الصخر والقطرة من البحر
لكتمانك على الامر حتى دخلت بي بلداً هذا حاله وذاك شأنه
وأعوذ بالله منك ومن شياطين الجن

(عيسى بن هشام) - انما أقول لك أيها الأمير أيضاً ما قاله
موسى للخضر عليهما السلام « لا تؤاخذني بما نسبت ولا تهرقني
من أمرى عسراً » ولقد نزل بي من الخوف والذهول عند انتشارك
من القبر ما أورثني التبدل والسخير ومنعني عن تبصرتك بالواقع وتبصيرك
الى ما تغيرت به الحال من بعد عهدك وما كدت أنتبه الى تعريفك
بها حتى دهيئا بذلك المسكارى ودُهمنا بتلك الحادثة فلا ذنب لي فيما
أتيت والعذر مقبول لديك فاصبر على ماتلاقيه . واحتمل ما أنت
فيه . وتقبل القضاء . بوجه الرضاء . ولا تأس على ما فات . لتكفر
عنك السيئات

(العسكرى للبasha) - هلم الى السوابق

(الباشا) - سبحان العزيز القادر أترى قد زال عني بؤسى
وانقشع نحسى ورجع الى عزى لجأوني بموكبي وخيلي
(عيسى بن هشام) - ليس المقصود « بالسوابق » تلك الجياد
الصفات . والعناق الصاهلات . وانما هو ديوان تقيّد فيه سحنة
المتهم وسماه . ويكشف فيه عما جتته يداه
(العسكري للباشا) وهو يسحبه - لا تطل في الكلام وامش
معي ساكتاً ساكناً

(الباشا) وهو يمتنع - ما الحيلة في القضاء وما العمل في المقدور
وكيف الخلاص وأين النجاة ومن لي بالموت ثانية ليردني الى راحة القبر
(عيسى بن هشام) وهو يتضرع - أقسمت عليك بدفين
القلعة ووقع سيوفك في المعمة الا ما قبلت نصيحتي وعملت بمشورتى
فلا تعارض ولا تعاند فان الامتناع لا يفيد ولا يزيدنا في ملامتنا الا
شدة . والعقل يرشدنا ان نسلم للاقدار حيث لا عمل وان نلبس
لكل حالة لبوسها . إما نعيمها وإما بوسها
(الباشا) ممثلاً - اللهم لا رأى مع القضاء

قال عيسى بن هشام - وسرنا مع العسكري فوصلنا الى « قلم
السوابق وتحقيق الشخصية » فرأى الباشا هناك من الشدة ما تخلع

لهُ القلوب وتشيب منه النواصي فخر دوه من ثيابه وفخسوا بدنه عضواً عضواً وقاسوا وجهه وجسدهُ وحدّ قوا في عينيه وصنعوا به ما صنعوا وهو يتنفس الصعداء حتى انتهوا من عملهم . ثم سألوا عن ضمانته فلم يجدوا له ضماناً لأن المعاون قاتلهُ الله رد شيخ الحارة عن التصديق على ضمانتي لبجوزلهُ الحبس . فأرسلونا مع العسكري الى النيابة . ولما دخلنا على النائب وجدنا أمامه قضايا حجة وأصحابها مزدحمون ينتظرون دورهم فانقردنا ناحية ننتظر دورنا أيضاً والتفت الى صاحبي يسأل ويستفهم :

(الباشا) - أين نحن الآن ومن هذا الغلام وما هذا الزحام
(عيسى بن هشام) - نحن أمام النيابة وهذا عضو النيابة وهؤلاء
أرباب الدعاوى

(الباشا) - وما هي النيابة
(عيسى بن هشام) - النيابة في هذا النظام الجديد هي سلطة قضائية مكلفة بإقامة الدعاوى الجنائية على المجرمين بالنيابة عن الهيئة الاجتماعية والغرض من إنشائها ان لا تبقى جريمة بلا عقوبة ووظيفتها أن تدافع عن الحق فتظهر ذنب المذنب وتكشف عن براءة البريء
(الباشا) - وما هي الهيئة الاجتماعية التي تنوب عنها

(عيسى بن هشام) - هي مجموع الامة
(الباشا) - ومن هو هذا الأمير العظيم الذي اتفقت الامة عليه
لينوب عنها

(عيسى بن هشام) - ليس هذا الذي تراهُ بأمر ولا بعظيم
من عظماء الامة وإنما هو أحد أبناء الفلاحين أرسله أبوه الى
المدارس فنال الشهادة فاستحق النيابة فتولى في الامة ولاية الدماء
والاعراض والاموال

(الباشا) - نعمت المنزلة عند الله منزلة الشهادة وللشهيد في الجنة
أعلى الدرجات ولكن كيف تتصور عقولكم - وأظنكم فقدتموها -
أن تجتمع الشهادة في سبيل الله والحياة في الدنيا لأحد من الناس .
والذي يفوق ذلك عجباً ويزيد العقل خبالاً أن يحكم الناس فلاحاً
وينوب عن الامة حرّاث . ويشهد الله أنني خرجت من شدة الى
شدة وانتهيت من خطب الى خطب فسلمت وصبرت ولكن لا صبر لي .
على هذه الخارقة فما أعظم الفاجعة وأشقّ النازلة . لقد فني مني
الصبر . ومن لي بفناء القبر

(عيسى بن هشام) - اعلم أن هذه الشهادة ليست بشهادة
الجهاد بل هي ورقة يأخذها التلميذ في نهاية دروسه ليثبت بها أنه

تلقى العلوم وبرع فيها . وقيمتها لمن يريد الحصول عليها ألف وخمسمائة فرنك

(الباشا) - مه مه كأنك تريد الإجازة التي يجيزها علماء الأزهر لمن تلقى عليهم العلوم من الطلبة وفاق فيها . غير أننا ماسمعنا في دهرنا بهذه الأثمان وما عهدنا أن الأزهر الشريف يعرف ما هي الفرنكات أو يفقه من العملة سوى الجرايات

(عيسى بن هشام) - ما هذه العلوم بعلوم الأزهر ولكنها علوم افرنجية يتلقونها في بلاد الافرنج . والفرنك عملة تلك البلاد . ويقال لتلك القيمة عندهم رسم الشهادة . وهي قيمة لا تذكر بالنسبة الى كثرة فوائدها لأن القاعدة في هذا النظام « ان الشهادة بلا علم خير من العلم بلا شهادة » وصاحب الشهادة إذا قدمها للحكومة يكون له الحق في الاستيلاء على مرتب وظيفه يزيد على الدوام ويرقى

(الباشا) - الآن كدت أفهم . وأظن هذه الشهادة تعادل « أوراق الالتزام » و « سراكي الروزنامجه » في أيام حكومتنا قال عيسى بن هشام - وبيننا نحن في هذا الحديث اذابشاين رشيقين رقيقين قد أقبلنا نخطران في مشيتهما والطيب ينتشر في الجو من

أردانهما وهما يصعّران خدّهما كبراً واختيالاً . ولا يلتفتان الى مَنْ
 حولهما تيهًا وإعجابًا . أحدهما يشقّ الهواء بعصاه . والثاني تلعب « بالنظارة »
 يدها . فشخصت فيهما الانظار . وتحولت نحوهما الأبصار . والحاجب
 من أمامهما يدفع الناس من طريقهما حتى وصلا الى باب النائب فقام
 لهما عن مجلسه . وأمر بأرباب القضايا ان ينصرفوا من حضرته
 واشتغل الحاجب بسحبهم وجرحهم وطردهم ونهرهم واشتغل النائب
 بطلّي المحاضر ورفع المحابر حتى خلا لصاحبيه من كل شغل وعمل
 (الباشا عيسى بن هشام) - يظهر لى ان هذين الشابين من
 أكبر أولاد الأمراء وأنهما مفتشان للنياحة كما رأينا المفتش للقسم
 (عيسى بن هشام) - ما أظنهما الا زائرين من قرناء النائب
 فى المدرسة كما يظهر لى من شمائلهما

(الباشا) - وهذا أعجب وأعجب .

قال عيسى بن هشام - وأردت أن أخبر خبرهما وأكتشف
 أمرهما فانهزت فرصة التزاحم بين الناس واشتغال الحاجب بهم
 فانزويت فى عقب الباب من وراء الستار بحيث أسمع وأرى فسمعت
 هذه المحاورة بينهم :

(الزائر الأول) بعد السلام والجلوس - لماذا تركتنا أمس

أيها الخبيث من قبل ان ينتهى اللعب
(النائب) - لانه كان قد مضى من الليل أكثره وعندى من
القضايا ما يضطرني الى التبكير

(الزائر الثاني) - وهل سمع أحد ان القضايا تعوق الانسان عن
مجالسة الاخوان . ومثل هذا المذر يُعتذر به لغير الواقفين على أعمال
النيابة وقضاياها أو لم تعلم ان فلاناً وفلاناً وسواهما من أقرانك
لا تستغرق منهم قضايا اليوم كله أكثر من ساعة واحدة وأخص
بالذكر منهم فلاناً فانه يكتبني بأن يمر عليها بلحظة منه ويستغنى عن
مطالعتها ويرتكن على توقد ذهنه ونباهة قريحته وكثرة تمرنه للاحاطة
بفهمها . وما دام الشقاق والنزاع قد انتهى أمره بين النيابة و«البوليس»
فالأولى الاكتفاء بمحاضر البوليس أو إعادتها اليه لاستيفائها ولا
محل لتجديد التحقيق بعده وتضييع الوقت سدى فيما عساه أن يولد
الشقاق أو يعيد النزاع مرة أخرى

(النائب) - ذلك ما أفعله ولكن لا بد من التمسك «بالظواهر
والاصول» على قدر الامكان

(الزائر الاول) - أفما عندك الكاتب يقوم في ذلك مقامك وكيفيكه
(النائب) - صدقت ان الكاتب ليكفى . والقول الصحيح

ان السبب في مفارقتكم أمس وفي ترك اللعب هو أنني خسرت ما
كان معي من مرتب الشهر ولم يبق منه الا النزر اليسير ونحن لا
نزال في أوائله

(الزائر الاول) - تلك هي عادتك في ادعاء الخسارة دائماً
مهملت ومهما كسبت وما سمعت منك في عمري الا انك
خسران . أفلم ترجح مني في « اليد الاخيرة » التي كانت بيننا
خمسة جنيهات

(النائب) - وحق شرفي وذمتي ومستقبلي اني قت من عنديكم
أمس بالخسارة

(الزائر الثاني) - ما علينا . ولكن قل لي هل أنت لا تزال على
وعدك معنا في التوجه الى صاحبنا لمشاهدة الرقص البلدى من
فلانة المشهورة

(النائب) - أسألك المسامحة فانه لا يمكننى ذلك أولاً لأن هذا
الرقص الذى يجب أولاد البلد والفلاحين لا يعجبني وثانياً لانى
دعوت «مادموازيل فلانة» المشخصة في «الاورا» مع فلان وفلان
المشخصين لتناول الغداء في الازبكية عند «سائتي» وسنذهب بعد
ذلك الى «خان الخليلي» و «قصبة رضوان» و «مقابر الخلفاء» وبعض

المحلات القديمة من البلد للتفكه والتسلى

(الزائر الاول) - دعواك الآن أنه لم يبق معك من مرتب الشهر

إلا النزر اليسير فكيف لك بما يلزم لمثل هذا من النفقات

(النائب) - فإني أن أذكر لكما ان معنا فلاناً المحامى ومعه

صاحبه العمدة

(الزائر الثانى) - وكيف يميل هذان الشخصان الى مثل هذا المجلس

الأفرنجى أو يستريحان له وهما لا يعرفان شيئاً من اللغات والاصطلاحات

الاوروبية

(النائب) - ألم تعلم يا أخى أن أمنية المحامى أن يكون مصاحباً

لاهل القضاء وأمنية الفلاح ان يتحكك بنا والرغبة عند أمثالهما عظيمة

فى حضور المجالس الافرنجية وإن كلفهم ذلك ما كلفهم وخرجوا

منها على غير فائدة لهم

(الزائر الاول) مقتضياً - من أين اشتريت هذا « الكراوات »

(رباط الرقبة)

(النائب) - ما اشتريته يا «مونشير» (عزيزى) وإنما جاءنى مع

ملابسى من عند الخياط فى باريس وهو من آخر طرز

(الزائر الثانى) - هل بلغك زواج فلان بمعشوقته

(الزائر الاول) - هل ركبت مع فلان فى الاوتوموبيل (الدراجة
الكهربائية)

(النائب) - قد وقفت لكما على سبب انتحار ابن فلان المتمول

(الزائر الاول) - أنا أعرفه فهو الغرام

(النائب) - لا

(الزائر) - المال

(النائب) - لا

(الزائر) - المرض

(النائب) - لا . وانماهى سنة جديدة فى شبان باريس اقتدى

المسكين بها

(الزائر الاول) - وأنا وقفت لكما على سبب استعفاء فلان من وظيفته

(النائب) - سيرته

(الزائر) - لا

(النائب) - وطنيته

(الزائر) - لا

(النائب) - فرنسيته

(الزائر) - لا . وانماهى انكليزيته

قال عيسى بن هشام فسئمت من هذا الكلام الفارغ والحديث
المقتضب وانتهزت دخول الحاجب فخرجت من مكمنى وعدت إلى
الباشا صاحبي فوجدت بجانبه أحد سماسرة المحامين قد التصق به
وهو يحاوره فوقفت عن بُعد أسمع ما يدور بينهما

(السمسار) - اعلم ان المحامى يدير القضاء فى يده بما يريد فيعاقب
من يشاء ويبرىء من يشاء وما أعضاء النيابة وقضاة الجلسات إلا
طوع إشارته ورهن كلمته وكالخاتم فى إصبعه فلا حكم إلا بقوله ولا
قضاء الا بأمره وانت على ما أراك رجل غريب حقيق بالرحمة
والشفقة ولا يليق بالمروءة أن أدعك طعمة فى أيدى بعض المحامين
من أهل الطبقة السفلى الذين اعتادوا سلب أموال الناس بطرق
الغش والاحتيال وكاذب الوعود والآمال ولى صاحب معروف
بين طائفة المحامين بالصدق والامانة وله مقام سام بين القضاة
والحكام فهو صديق الناظر وجليس المستشار ونديم القاضى وخدين
النائب ووكيل «البرنس» ولو شاهدته يا سيدى مرة واحدة فى اجتماعه
معهم فى السهر والسمر ورفع الكلفة بينه وبينهم فى ساعات الأُنس
وأوقات السرور يُشارِبُهُمْ ويؤاكلُهُمْ ويمازحهم ويفاكهُم ويناظرهم
ويقامرهم لا يُقنَتَ فى الحال ان كل طلب له يجاب وليس لأمره

من رادّ فالجرم برى والبرىء جانٍ على حسب المراد . فقل لى حينئذٍ
عن مقدار ما تستطيع دفعه من « مقدم الاتعاب » فى تبرئتك من
تهمتك والانتقام لك من عدوك

(الباشا) - أنا لا أعرف المقدم ولا المؤخر ولم يخبرنى صاحبى عن
هذا الحاكم القادر الذى تصفه لى فإذا استفهمتُ عنه.....

(السمسار) مقاطعاً - لانزوم للاستفهام من أحد فها هو حضرة
الحامى قد أقبل لمقابلة « النائب العمومى » فأنأستوقفه لحظة للنظر فى شأنك
(ويسرع السمسار الى مكالمة الحامى بعد أن يوسع له فى الطريق
ويسلم عليه بسلام الامراء حتى يصل به الى جانب الباشا)

(الحامى) بصوت عال - انا لا أستطيع قبول التوكيل عن أحد فى
هذه الايام لتراكم الاعمال وتزاحم القضايا فلم يبق عندى وقت للطعام
وللشراب فكيف تكلفنى أن أقبل التوكيل عن صاحبك فى هذه القضية
الصغيرة وقد رفضت فى صباحى هذا خمس قضايا لها شأن عظيم -

(السمسار) - سألتك بحق الانسانية وحرمة المروءة وبما جبلت
عليه من الخنو والشفقة على الضعفاء ان تأذن لأحد عمال مكتبك
بمباشرة هذه القضية ان لم تتنازل لمباشرتها بنفسك فان المقصود هو
تأثير اسمك وصيتك فى المحكمة

(الحامى) - لأرى فى ذلك بأساً للعناية بك والشفقة على صاحبك
(وينصرف الحامى بعد مصاحفته للبasha)

(السمسار للبasha) - هلمّ فادفع عشرين جنيهاً

(البasha) - ليس عندى الآن شئ من الدراهم

(السمسار) - اعطنى تحويلاً

(البasha) - أنا لأفهم لك كلاماً فاذهب عنى فقد ضقت بك ذرعاً

(السمسار) - كيف أذهب عنك وقد تم لك الاتفاق مع حضرة

الحامى أمامى

(البasha) - أنا لم أتنق مع أحد فأتركنى وانصرف

(السمسار) - كيف تنكر اتفاقك مع الحامى بعد أن وضعت

يدك فى يده

(البasha) - عفوك اللهم ولطفك! ومن يصبر على هذه الحال. أشرت

بيدى فى حديثى مع صاحبى فوقعت فى حادثة المسكارى وها أنا قد

صاحفت الحامى فصرت مدينًا بعشرين جنيهاً فى أى العوالم أنا وبين

أى المخلوقات

قال عيسى بن هشام - ولما رأيت لوائح الغضب بدت على وجه البasha

خشيت أن يقع مع السمسار فى حادثة أخرى فأدر كته ووبخت الرجل

على احتياله وتوعده بالشروع رفع الأمر الى النائب العمومى إن لم ينته عنا . فخلّفنا وانصرف . ونادى الحاجبُ أرباب القضايا فدخلنا فوجدنا النائب لازال لاهياً فى حديثه مع زائريه وأشار لنا بالتقدم الى الكاتب فتقدمت مع صاحبي وشرعت فى بسط القضية وبيان ما قاسيناه من سوء معاملة البوليس وقبح افتراءه فالتفت النائب الى الكاتب وقال له : لا تقبل كلاما فى البوليس ولا تسمع فيه طعنا بل خذ بأقواله واستمسك بتحقيقه . ثم نظر فى الساعة فوجد الميعاد قد حل فأخذ عصاه ولبس طربوشه وخرج يهرول مع صاحبيه . فقلت لصاحبي الآن وجب أن أذهب للبحث عن أحد المحامين الصادقين من أصحابي للمدافعة عنك

(الباشا) - قل لى بالله ما هو المحامى عندكم

(عيسى بن هشام) - هو وكيل الحكم والمخاصمة يتكلم مكانك بما تعجز عنه ويدافع عنك بما لم تعلمه ويشهد لك بما لم يخطر ببالك وصناعته هذه صناعة شريفة يمارسها كثير من الفضلاء اليوم بيننا ولكن قد دخل فى الصناعة جماعة ليسوا من أهلها فاتخذوا الخداع والاحتيال بضاعة للتكسب مثل هذا المحامى وسمساره . وهو لاء بعينهم هم الذين يعينهم علاء الدين الكندي بقوله :

ما وكلاء الحكم إن خاصموا الأشرار طين أولو باس
قوم غدا شرهم فاضلاً عنهم فباعوه على الناس



قال عيسى بن هشام - ولما حلّ يوم الجلسة رافقت الباشا الى المحكمة .
فوجدنا في ساحتها اقواماً ذوى وجوه مُصْفَرَّة . وألوان مصفرة .
وأنفاس مقطوعة . وأكفٍ مرفوعة . وشاهدنا باطلاً يذكر .
وحقاً يُنكر . وشاكياً يتوعد . وجانياً يتودد . وشاهداً يتردد .
وجندياً يتهدد . وحاجباً يستبدّ . ومحامياً يستعدّ . وأما تروح .
وطفلاً يصيح . وفتاة تلهف . وشيخاً يتأفف . وسمعنا ألقاظاً
متناقضة . وأقوالاً متعارضة . ورأينا المحاميين . عن الخصمين .
يشحذ كلُّ منهما لسانه . ويقدح جناحه . استعداداً للنزال . في ميادين
المقال . وتأهباً للدفاع . في مواقف النزاع . ليخرج كلاهما بغنيمة
البراءة في الحكم . ورفع التهمة والجرم . فانزويت بصاحبي . ومحامينا
بجانبي . يذكر لنا « أصولاً مرعية » . و « مسائل فرعية » . وظروفاً
وأحوالاً . وشروحا وأقوالاً . وموادّ وفقرات . في الجنب والمخالفات .
ثم يتصفح محاضره . ويقلب دفاتره . ويُنقِسم لنا بوكيد الإيمان .
إن الباشا من تهمته في أمان . وأنا أجيب صاحبي عن كل سؤال .

بما تقتضيه الحال . ولما سألتني عن هذه الملحمة . قلت له هي المحكمة

(الباشا) - قد كان العهد بالمحكمة الشرعية وبيت القاضي على

غير ما أرى فهل أصابها الدهر فيما أصاب بالتغيير والانقلاب

(عيسى بن هشام) - هذه هي المحكمة الاهلية لا المحكمة الشرعية

(الباشا) - وهل للقضاء بين الناس غير المحكمة الشرعية

(عيسى بن هشام) - للقضاء في هذه البلاد على ما تشتهي محاكم

متعددة ومجالس متنوعة . فمنها المحاكم الشرعية والمحاكم الاهلية والمحاكم

المختلطة والمجالس التأديبية والمجالس الادارية والمجالس العسكرية

والمحاكم القنصلية دع المحكمة المخصوصة

(الباشا) - ما هذا الخلط . وما هذا الجبط . وسبحان الله هل أصبح

المصريون فرقاً واحزاباً . وقبائل وانفاذاً . وأجناساً مختلفة . وفئات

غير مؤتلفة . وطوائف متبددة . حتى جعلوا الكل واحدة . محاكم

على حدة . ما عهدناهم كذلك في الأعصر الأول . مع دولات الدول .

وهل اطمست تلك الشريعة الغراء . واندست بيوت الحكم والقضاء .

اللهم لا كفران . ولعن الله الشيطان

(عيسى بن هشام) - ليس الأمر على ماتوهم وتخيل فلم يتفرق

المصريون فرقاً ولم يتوزعوا شعوباً بل هم أمة واحدة ولهم حكومة واحدة

يقضى نظام الأمور فيها بهذا النسق والترتيب فى القضاء والحكم. وأنا
أشرح لك جملة الحال شيئاً قليلاً

أما المحاكم الشرعية فقد جُردت من النظر والحكم فى عامة المخاصمات
واقصر العمل فيها على الأحوال الشخصية أعنى مسائل الزواج
والطلاق وما يدخل فى هذا الباب

(الباشا) - تالله لقد فسد الحال وانحل النظام وكيف يعيش الناس
ويستقر لهم حال بغير شرع الله وسنة نبيه وهل أصبحتم فى الزمن
الذى يعنيه القائل بقوله :

قد نُسَخَ الشرعُ فى زمانهمُ فليتهم مثل شرعهم نُسِخُوا
(عيسى بن هشام) - لم ينسخ الشرع ولم يرتفع حكمه بل هو باقٍ
على الدهر مابقى فى العالم إنصاف وفى الامم عدل ولكنه كنز أهمله
أهله ودره أغفلها تجارها فلم يلتفتوا الى وجوده نشيده وتمكينه وتمسكوا
بالقروع دون الأصول واستغنوا عن اللب بالقشور واختلقوا فى الأحكام
وعكفوا على الاشتغال بسفاسف الأمور وتعلقوا من الدين بالأغراض
الحقيرة والأقوال الضعيفة وتركوا الحقيقة الى الخيال وتعدوا الممكن
الى المحال فكان من أكبر همِّ العالم العلامة فيهم والخبر الفهامة منهم أن
يبدع فى التفنن للإغماض فى الحق الأبلج والتعقيد فى الخيفية السمحة

ولم ينتهوا يوماً الى ما تجرى به أحكام الزمن في دورته ولم يفقهوا أن لكل زمن حكماً يوجب عليهم تطبيق أحكام الشرع على ما تستقيم به المصلحة بين الناس بل ظلوا واقفين عند الحد الأدنى لا يتزحزون ولا يتحللون معتقدين أن الدهر دار دورته ثم وقف وأن الزمن تحرك حركته ثم سكن فلا أمل فيه ولا عمل فكانوا سبباً في تهمة الشرع الشريف بخل الحكم ووهن العقد وقلة الغناء فيه لانتصاف الناس في معاشهم ومرافقهم على حسب ما تجدد به حالات الزمن وتخالف عليه اشكال العصور . ومن هنا تولدت الحاجة إلى انشاء المحاكم الأهلية بجانب المحاكم الشرعية .

(الباشا) - ما أظن الا أن يكون لأهل الشرع وأصحاب التفقه في الدين عذر واضح في النزول الى هذه الحال السيئة من معارضة معارض ومنازعة منازع أو من جور سلطان قاهر وعسف حاكم قاسر فصدّهم عن سواء السبيل وأرعاهم هذا المرعى الوبيل

(عيسى بن هشام) - لم يكن من ذلك شيء على الإطلاق فالإرادات مختارة والأفكار مطلقة والنفوس مطمئنة والأرواح آمنة وليس الفساد ناشئاً عن طوارئ الزمان وطوارق الحدّثان ولكنه فساد في التربية عمّ أمره وانتشر وانحطاط في الاخلاق عظم بلاؤه

اشتهر سكنت اليه نفوسهم وارتاحت به ضمايرهم وقد تمكن منهم
 اء التحاسد والتباغض ودبت بينهم عقارب التشاحن والتضاغن
 استولى على قلوبهم الجبن والخور وعلى عقولهم الضعف والخل وعلى
 نفوسهم الفتور والكسل فوصلوا الى الحال التي يرون بها السنة بدعة
 البدعة سنة والفضيلة نقيصة والنقيصة فضيلة وأقاموا يتعسفون
 في الحكم ولا ينصفون . ويتفكحون في الدين ولا يتفقهون . وصرفهم
 حب المال . عن صالح الاعمال . وألهام ما يدخرونه من زخرف الحياة
 لدنيا . عما يدخر لهم في الدار الاخرى . فحن الذين فعلنا كل هذا
 أنفسنا . منا الاثم والوزر . وعلينا الذنب والايصر

وأما المحاكم الاهلية فهي القضاء الذي يقضى على الرعية اليوم
 في جميع الخصومات طبقاً لنص القانون

(الباشا) - القانون « الهمايوني »

(عيسى بن هشام) - القانون « الامبراطوري »

(الباشا) - ما عهدت منك ان تعجم وتبهم

(عيسى بن هشام) - لا إعجام ولا إبهام فهو قانون نابليون

امبراطور الفرنسيين

(الباشا) - وهل عاد الفرنسي فادخلوكم تحت حكمهم وسلاطنتهم

مرة أخرى

(عيسى بن هشام) - لا . وإنما نحن الذين أدخلنا أنفسنا بأنفسنا
في حكمهم فاخترنا قانونهم ليقوم عندنا مقام شرعنا

(الباشا) - وهل هذا القانون ينطبق حكمه على حكم الشرع
الشريف والسنة المطهرة والآفانهم يحكمون فيكم بغير ما أنزل الله
(عيسى بن هشام) - المسألة فيها خلاف فالإجماع تام عند
علماء الشريعة في السر والنجوى على أنه مخالف للشرع وأن كل من
يقضى به داخل تحت نص الآية الشريفة: «ومن لم يحكم بما أنزل الله
فأولئك هم الفاسقون» . ولكن يظهر أنه مطابق عندهم للشرع في حالة
الجمهور والعلن بدليل ما أعلنه أحد كبارهم عند نشر هذا القانون وهو
يومئذ مفتي نظارة الحقاية فقد أقسم الأيمان بالمغلظة على فتواه التي
أفناها بأن هذا القانون الفرنسي غير مخالف للشرع الاسلامى . وان
كان لاعتقاد في هذا القانون على الفسق واللواط مع رضا المنسوق
به ان تجاوز عمره الثانية عشرة بيوم واحد . ولا عقاب فيه على من
يزنى بأمه اذا هي رضيت به وكانت غير متزوجة . وهو الذى يعدّ
الأخ مجرمًا جانيًا اذا تعرض لحماية عرض أخته والمدافعة عنه وكذلك
بقية أهلها ماعدا زوجها . وهو الذى يحكم بالزام المدينين بدفع الربا

لمداينهم . وهو الذى يقبل شهادة المرأة الواحدة على الرجل . وهو الذى لا يعاقب الزوج اذا سرق من امرأته ولا المرأة من زوجها ولا الولد من أبيه ولا الأب من ابنه

واما المحاكم المختلطة - وقضاها من الاجانب - فهي تختص بالنظر فيما يقع من الخصومات بين الاهالى والاجانب وبين الاجانب وبعضهم فى الحقوق المدنية أعنى فى قضايا المال . ولما كان الاجانب هم أحق وأولى بالغنى لسعيهم وجدّهم وكان المصريون أخلق بالفقر وأجدر لإيهاهم وتوانهم كان معظم القضايا التى تحكم فيها هذه المحاكم لا بدّ أن تنتهى بسلخ المصرى من ماله وعقاره

وأما المجالس التأديبية فهي تختص بالنظر فى عقاب الموظف الذى يخل بتأدية وظيفته - وهى تتألف فى الغالب من نفس الرؤساء الذين يهتمونه - وحدثها فى العقاب الرفت والحرمان من المعاش وما بقى من درجات العقاب فالنظر راجع فيه الى المحاكم الاهلية وأما المجالس الادارية فهي تختص بعقاب من يخالف اللوائح والاورامر والمنشورات . وشرح ذلك يطول

وأما المحاكم العسكرية فهي تختص بالنظر فى عقاب المتهمين من الضباط والجنود وتحكم أيضاً على الاهالى فى مسائل القرعة وماشا كلها

وأما المحاكم القنصلية فهي تختص بالنظر في الجناح التي تقع من الاجنبي على المصرى ومن الاجنبي على الاجنبي من جنس واحد. فاذا وقعت جناية من أجنبي على مصرى فليس لها في مصر من حكم أو عقاب ولا تختص أى محكمة من كل هذه المحاكم التي عدتها لك بالنظر فيها بل يرتدّ الجاني بالقضية الى وطنه ومسقط رأسه وديار قومه فينظر قضائته هناك في أمره والغالب في مثل هذه الحال عندهم أن ينتهوا بتبرئة المجرم بعلل معلومة مثل : « عدم ثقتهم بتحقيق البوليس المصرى - وضياع معالم القضية - وعدم توفر الشهود » وأما المحكمة المخصوصة فهي تختص بمعاينة الاهالى عند تعديهم على الجنود الاجنبية

(الباشا) - ما زلتَ تسمعنى الغريب وتفهمنى غير مفهوم. ومن أعجب ما سمعت ان المصريّ يتعدى على الجنديّ
قال عيسى بن هشام - وبينما نحن في هذا الحديث إذ ارتجّ المكان وتماوج الزحام وأقبل القاضي وهو في عنفوان شبابه وصبا أيامه يتألق وجهه حسنا . ويشاكل في القد غصنا . وكأنه طائر في مشيته . من نشاطه وخفته . ولما دخل الجلسة ذهبت أسأل عن دور القضية ثم عدت إلى صاحبي ومكثنا في الانتظار زمناً طويلاً الى ان جاء

الدور ونودى الباشا فدخل مع المحامى فى الجلسة وقام النائب فطلب
الحكم على المتهم بمقتضى مادتي «١٢٤» و «١٢٦» عقوبات لتعديه
بالضرب على أحد رجال «الضبطية القضائية» فى أثناء تأدية وظيفته
وبالمادة «٣٤٦» مخالفات لتعديه على المكارى بالإيذاء الخفيف
(القاضى للمتهم) - «هل فعلت هذه الأثرة»

(المتهم) - لم أفعل

قال عيسى بن هشام وجاءوا بى شاهداً فسألنى القاضى عما أعلمه
فى هذه الواقعة فأجبتُه :

(عيسى بن هشام) - ان لهذه الحادثة قصة عجيبة وحكاية غريبة
وهي انه

(القاضى) مقاطعاً - لا لزوم لتفصيل القصة والحكاية وقل لى
عن «معلوماتك» فيها

(عيسى بن هشام) - «معلوماتى» هي اننى كنت أزور المقابر ذات
ليلة فى وقت الفجر أبغى الموعظة وأنشد الاعتبار . . .

(القاضى) مستثقلاً - لا لزوم لكثرة الكلام وأجبنى على النقطة
التي يسألك عنها فقط

(عيسى بن هشام) - ذلك ما أفعله من حكاية الواقع وهو . . .

رأيت رجلاً خرج من ...

(القاضي) متمللاً - قلت لك اني لا أقبل التطويل ولا الشرح
في الواقعة ولكن هل ضرب المتهم العسكري والحمّار أم لا
(عيسى بن هشام) - ما ضرب المتهم الحمّار وإنما دفعه عنه من شدة
إلحاحه وما ضرب العسكري وإنما سقط عليه مما غشيه بغير عمد
ولا قصد وهو يجهل

(القاضي) - يكفي . يكفي . هلمّ «النيابة»

(النائب) - «ان هذا الباشا متهم بتعديه بالضرب على أحد رجال
البوليس في أثناء تأدية وظيفته بالقسم ومتهم بالتعدي بالإيذاء على
مرسى الحمّار . والتهمة ثابتة من شهادة الشهود التي في الاوراق واطلاع
المحكمة عليها كاف وبناء عليه فالنيابة تطلب الحكم على المتهم بالمادة
١٢٤ و ١٢٦ عقوبات وبالفقرة الثانية من المادة ٣٤٦ مخالفات وتطلب
من عدالة المحكمة التشديد في العقوبة لان حالة المتهم تستدعي ذلك
فانه يتخيل ان رتبته تجعله خارجاً عن سلطة القانون وتخوله الحق في
اعتباره بقية الناس أصغر منه شأنًا فيؤدّبهم بنفسه مع عدم مراعاة
حقوقهم وحرمة القانون ولاشك ان تشديد العقوبة عليه واجب
لاعتبار امثاله به وللمساواة في العدالة وأفوض الامر الى المحكمة»

(القاضى للمحامى) - المحاماة . مع الاختصار
(المحامى) بعد أن يتنحى ويقلب فى أوراقه - « أنا تعجب من
ان النيابة العمومية استحضرتنا اليوم بصفة متهمين . ونقول ان أصل
وقوع الجرائم يا حضرة القاضى والاصل فى وضع الشرائع والقوانين
فى هذا العالم منذ البداءة وعصور الهمجية كان يقصد منه
(القاضى) مشمراً - اختصر يا حضرة المحامى وادخل فى الموضوع
(المحامى) - ... ومن المعلوم ان نظام الترتيب يا حضرة القاضى
فى طبقات الهيئة الاجتماعية يقضى
(القاضى) متضجراً - اختصر . يابك .
(المحامى) - الموضوع يقتضى ذلك
(القاضى متافقاً) - لالزوم له
(المحامى متحيراً) - قالت النيابة العمومية (ويسرد شيئاً من
أقوالها) ونحن نقول اننا لو سلمنا جدلاً
(القاضى) مغضباً - يكفى . يابك . الموضوع
(المحامى) متلعثماً مضطرباً - ان هذا المتهم يا حضرة المحكمة
الواقف الآن بين يدى القضاء هو رجل عظيم وأمير خطير من أهل
العصر القديم وله حديث منشور فى الجرائد - وهذه أعداد جريدة

« مصباح الشرق » تطلعون عليها - وقد اعترضه في طريقه أحد المكارين فدفعه عن نفسه والناس يعلمون إلحاح الحمارة وسوء أديهم ومثل هذه الطبقات التي ليس فيها تربية ...

(القاضي) نافداً صبره - قلنا اختصر . يابك

(الحامي) وهو يتصبب عرقاً - ... ولما توجه المتهم الى القسم أغنى عليه فسقط بدون تعمد على عسكري كان يكنس ارض القسم بغير ملابسه الرسمية . وعدالة المحكمة تقضى بعدم الالتفات الى دعوى البوليس : ولا عقاب على المتهم ألبتة لانه كان في عصر غير عصرنا وفي نظام خلاف نظامنا ولم تبلغه دعوة القانون فهو يجهل أحكامه وحضرة القاضي الفاضل أدري بالاحوال وان

(القاضي) منفعلًا ضارباً بيده على المكتبة - المحكمة تنورت يابك

ولا لزوم للكلام مطلقاً فاهم طلباتك

(الحامي) ساخطاً في نفسه - طلباتنا هي اننا نطلب من باب أصلي الحكم ببراءة المتهم وان رأأت المحكمة غير ذلك فنرجو استعمال الرأفة بالمادة ٣٥٢ عقوبات»

قال عيسى بن هشام - وبعد ذلك نطق القاضي بالحكم فحكم على الباشا بالحبس سنة ونصفاً بمقتضى المادتين المذكورتين من قانون

العقوبات وبخمس قروش والمصاريف بالمادة المذكورة أيضاً من المخالفات . فضاقت الارض بي وأظلمت الدنيا في عيني وكدت اشترك مع صاحبي في الذهول والاغناء لولا ان المحامي أكد لي كل التأكيد انه لا بد من البراءة في محكمة الاستئناف لعدالة رجالها ولكن يجب مع ذلك ان نرفع عريضة شكوى الى « لجنة المراقبة » لحسن التأثير في القضية عند نظرها في الاستئناف ثم قال لي اعلم ان السبب في كل ما صدر عن هذا القاضي من المقاطعة والمعاكسة والاستعجال هو لأنه مدعو في ولية بعض رفقاءه عند الظهور تماماً وأمامه في دور القضايا ثلاثون قضية يريد أن يأتي عليها كلها حكماً قبل حلول الميعاد وأطعنا إشارة المحامي فقدمنا عريضة الى « لجنة المراقبة » ولما طلبنا منه أن يتوجه معنا للسؤال عما تم في أمرها تنحى عن استصحابنا وقال انه كان يود مباشرة ذلك بنفسه ولكن يمنعه ان يعلم القاضي بسعيه في التظلم منه فيتعهد في المستقبل أذاً وينصرف همه الى نكاته بسبب شكايته والمحامي في حاجة دائمة الى اجتلاب رضا القاضي واجتناب غضبه فقبلتُ عذره ودعوت الباشا الى التوجه والسؤال فأعرض ونأى بجانبه وخاطبني وهو يشد في الإباء ويلج في الامتناع بقوله :

(الباشا) - يكفيني ما قد وصلت اليه من الذل والهوان وما قاسيته من نزول القَدَر وحلول الضيم بحكم القضاء من رافع السماء وأنا أربأ بنفسى ان يجتمع عليها ذلّان في سلك واحد ذلّ المتحمل للظلم المستكنّ للجور وذلّ المشتكى الضارع والمتظلم الخاضع . فإليك عني لا تكن عوناً للخطوب . ومفتاحاً للكروب . وصدق ابن يعقوب : « ربّ السجن أحبُّ إليّ مما يدعونني اليه » . ويعلم الله لولا عذاب النار . لفرّجت عن همى بالانتحار . وبودى لو يبدل حكم الحبس بالاعدام . لأخلص من هذه الأوصاب والآلام . وقد عشت دهرى ما علمت أن السجن يكون في عقاب الكبراء والامراء وانما هو يجرى عندنا في عقاب الغوغاء من الناس والسفلة من العامة وللأمرء الامتياز على كل حال فان كان ثمّ لنا عقاب . فضرب الرقاب . وعندنا أن لقاء المنون . أليق بنا من ظلمة السجون

(عيسى بن هشام) - ما كنت أعهد من مثلك هذا الجزع والفرع . ولا أتوقع منك مثل هذا الخور والهلع . وأنت البطل الجرى والشجاع المقدم وما الشجاعة الا في التصبر على المكروه والتجبد للخطوب تلقاها بوجهٍ طلقٍ وصدر رحبٍ وتترقب الفرج منها بعد الضيق :

ربما تجزع النفوس من الأم — رله فُرجةٌ كحلِّ العقال
وأنت عندى الحازم الأرشد . والعامل المُسدّد . وما العقل
الا نفاذ الرأى فى كشف المُلَمّة . وتسديد الحيلة فى إزاحة الغُمة .
وأمامنا اليوم طرق مسنونة ووسائل مشروعة لا غضاضة علينا فى
ولوجها ولا مضاضة فى سلوكها . واعلم أن تبدل الازمان وتقلب
الحدّثان يغير من مباني الأمور ويكيف فى اعتبار الأشياء فما كان
يُعتبر بالأُس فضيلة يُعتبر فى الغد رذيلة وما كان يعدّه الناس فى
الزمن الماضى نقيصة يعدونه فى الحاضر كمالاً . وان كان الشرف فيما
مضى يستمدّ رونقه من السطوة والمنعة ويقوم ركنه على البأس والبطش
فان الشرف اليوم كل الشرف فى الاسكانة للأحكام والخضوع
للقانون . فہلم نسلک سبيله ونأخذ طريقه عسانا أن ننتهى بالخلاص
والنجاۃ . ومن القواعد المقبولة لدى العقلاء والحكماء ان يقبل الانسان
نظام الاحكام فى البلد التى اتخذها داراً واختارها مقاماً

(الباشا) - لطم الموت الزؤام . أهون من هذا الكلام .

وللشرب من حميم أن . آثر من احتمال هذا الهوان

قال عيسى بن هشام - فاعتلت عليّ وجوه الآراء . فى صرف

صاحي عن الامتناع والإباء . وكدت أياس من بلوغ الغاية . فى

باب النصيحة والهداية . لولا أن سمعنا منادياً من باعة الجرائد ينادى
في طريقنا بصوت نكير . دونه صوت الحمير :

المؤيد والمقطم !! الاهرام ومصر !!

الاربعة بقرش

(الباشا) - ماذا أسمع من الاعاجيب ! أصبحت المساجد
والجبال والآثار والبلاد تباع في الاسواق بالمزاد

قد اختلّ الانامُ بغير شكّ فجدّوا في الزمان أو العبود

(عيسى بن هشام) - ما هي بالآثار ولا بالبلاد ولكنها اسماء

انتحلت أعلاماً لهذه الجرائد اليومية

(الباشا) - لعلك تعنى « جرائد الصيافة ويوميّاتهم » أو « جرائد

الالتزام » ولكن ما وجه هذه التعمية في التسمية

(عيسى بن هشام) - ليس الامر كما ذهبت اليه ولكن

الجرائد هي اوراق تُطبع في كل يوم أو كل أسبوع أو كل شهر تجتمع

وتسرد فيها الأخبار والروايات العامة ليطلع الناس على أحوال الناس

وهي أثر من آثار المدنية الغربية انتقل اليها منها فيما انتقل . والأصل

في وضعها انتشار الحمد للفضيلة والذم للرديلة والنقد على ما قبح من

الاعمال والجلث على ما حسن من الأفعال والتنبيه الى مواضع الخلل

والتحضيضُ على اصلاح الزلل وتعريفُ الأمة بأعمال الحكومة
النائبة عنها حتى لا تجرى بها الى غير المصلحة وتعريفُ الحكومة
بمخارج الأمة لتسعى في قضائها . وبالجملة فان أصحابها هم في مقام
الأميرين بالمعروف والناهين عن المنكر الذين أشارت الشريعة
الاسلامية اليهم

(الباشا) - قد كنا نسمع في زماننا بشيء من هذا القليل يقال
له «غازيته» وكانت تصدر عندنا واحدة منها بالتركية اسمها «روزنامه»
وقائع « وأخرى بالعربية اسمها «الوقائع المصرية» تدوّن فيها
المدائح والتهاني ويذكر فيهما انتقال الركاب العالي . ولكن ان
كانت الجرائد قد ارتقت اليوم الى ما نزع فلابد أن يكون قد اشتغل
بها واهتمّ بأمرها كبار العلماء الاعلام وعظماء المشايخ الكرام
ولنعمت الوسيلة وحسنت الطريقة في تبليغ الناس ما يصلحهم في
معاشهم وينفعهم في معادهم . فعليّ بواحدة منها

(عيسى بن هشام) - علماؤنا ومشايخنا - ويفر الله لهم -
هم أبعد الناس عن اجتياز هذه الطريق وممارسة هذه الصناعة وهم
يرون الاشتغال بها بدعة من البدع ويعتبرونه فضولاً تنهى عنه
الشريعة وتداخلاً فيما لا يعني فلا يأبهون بها وربما اختلفوا في كراهة

الاطلاع عليها أو إباحته . وقد مارس هذه الصناعة قوم آخرون غيرهم فيهم الفاضل وغير الفاضل وأخذها بعضهم حرفة للتعيش بها والتكفف على أى حالة كانت فلا تجد بينهم فرقا وبين أهل الحرف وباعة الاسواق في الغش والخداع والكذب والنفاق والمكر والاحتيال للاستلاب والاعتيال

عَمَرُوا مَوْضِعَ التَّصْنَعِ فِيهِمْ وَمَكَانُ الْإِخْلَاصِ مِنْهُمْ خَرَابٌ فَذَهَبَ مِنْهَا الْغَرَضُ الْمَقْصُودُ وَسَقَطَ شَأْنُهَا بَيْنَ الْعَامَةِ بَعْدَ أَنْ سَفَلَ قَدْرُهَا عِنْدَ الْخَاصَّةِ وَأَصْبَحَ مَا كَانَ يُرْجَى فِيهَا مِنَ النِّفْعِ دُونَ مَا تَجَلَّبَهُ مِنَ الضَّرَرِ . وَمِنَ الْعُقَلَاءِ مَنْ لَا يَزَالُ يَرْجُو مِنَ الْإِيَّامِ أَنْ تَدُورَ يَوْمًا بِتَهْذِيبِ هَذِهِ الْحَالِ وَرَفَعَ هَذِهِ الصَّنَاعَةَ إِلَى الدَّرَجَةِ اللَّائِقَةِ بِهَا مِنَ الشَّرَفِ وَعُلُوِّ الْقَدْرِ . وَالْحُكْمُ كُلُّهُ لِلْقَارِئِينَ فِي الْإِقْبَالِ عَلَى مَا يَنْفَعُ وَالْإِنْصِرَافِ عَمَّا يَضُرُّ » فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ » . ثُمَّ نَادَيْتِ الْبَائِعَ فَاشْتَرَيْتِ مِنْهُ أَرْبَعًا وَفَتَحْتَ وَاحِدَةً أَقْرَأَ عَلَى صَاحِبِي نُسْخًا مِنْ أَخْبَارِهَا فَوْقَ نَظَرِي فِيهَا عَلَى كَلَامِ طَوِيلٍ عَنِ الْحُكْمِ عَلَى أَحْمَدَ سَيْفِ الدِّينِ فَأَسْمَعْتُهُ مَا جَاءَ فِيهِ مِنْ وَصْفِ مَا يَقَاسِيهِ هَذَا الْأَمِيرُ مِنْ خَشَوْنَةِ الْعَيْشِ فِي سَجْنِهِ وَاسْتِدْرَارِ الدَّمُوعِ لَمَّا يَلَاقِيهِ هَذَا الْغَلَامُ مِنْ ضَيْقِ السَّجْنِ وَهُوَ مَنْ

سلالة الولاة والامراء . ثم قلت له بعد انتهيت من أقوال الجريدة
فى استعطاف القلوب والتماس العفو:

(عيسى بن هشام) - انظر أيها الباشا كيف وصلت بنا الحال
فى المساواة وقد علمت ما اصاب « البرنس » أحمد سيف الدين
من حكم المحاكم عليه فكيف تترفع نفسك بعد ذلك وتأتى
الخضوع للقانون والامثال لأحكامه والتوسل بطرقه للخلاص
مما وقعت فيه .

(الباشا) - ماهو « البرنس » . ومن هو أحمد سيف الدين
(عيسى بن هشام) - اما « البرنس » فهو لقب أجنبي قديم كان
يتقلب به رؤساء الدولة الرومانية قبل أن يجترؤا على الأمة بالتحال
لقب « امبراطور » ثم صار يُطلق بعدهم فى أوربا على اعضاء بيت
الملك وعلى رؤساء الحكومات الصغيرة . ويطلقه اليوم على أنفسهم
اعضاء « العائلة الخديوية » ذكورا وإناثا وإن كان لا ذكر له بين
الألقاب الرسمية فى الدولة العلية . واما أحمد سيف الدين هذا فهو
أحمد بن ابراهيم بن أحمد بن ابراهيم بن محمد علي جد الأسرة الخديوية
وعميدها وقد ارتكب جنائية فسحبوه الى المحاكم واستحق العقاب
الذى يقضى به القانون فحكمت عليه المحكمة الابتدائية بالسجن

سبع سنوات فاستأنف يلتمس الشفقة والرأفة من قضاة الاستئناف
فأنقصوا المدة الى خمس سنوات ثم استغاث بمحكمة النقض والابرار
فلم تغنه . وقد انصرفت المساعي لاتفاق اعضاء الأسرة الخديوية
على التماس العفو عنه وذهبت أمه يميناً وشمالاً فلم تبقى وسيلة من
وسائل الاسترحام الاسلكتها ولكن لا وسيلة مع القانون فان
سيفه ماض في كل الرقاب وسلطانه نافذ في كل الرؤوس . فهل يليق
بك حينئذ أن تكبر وتترفع عن التوسل والنظم وتأنف نفسك من
السعي وراء « لجنة المراقبة » و « محكمة الاستئناف » وقد علمت من
تاريخ الأمراء وأولياء النعم ما علمت

(الباشا) - نعم كيف لا تحزّ الجبال الشم . اذا استنزوا منها
الأراوى العضم . وكيف لا تنشق القبور . وينفخ في الصور .
وقد انحط المقام وسفل القدر . وحقت كلمة ربك على مصر : « فجعلنا
عليها سافلياً » . وما دام حفيد محمد على في السجن على ما تروى يخضع
لحكم القانون ويتوسل بتلك الوسائل وتتشفع أمه بتلك الشفاعات
فما عليّ من عار فيما تدعوني اليه فاذهب بي الى حيث تريد . وليتهم
كانوا يقبلون مني ان أكون فداً لابن سادتي وأولياء نعمتي فتضاف
عقوبته الى عقوبتي

قال عيسى بن هشام - فسرّني من الباشا مطاوعته أيّاي وقبوله
لنصيحتي ورضي بالتوجه الى نظارة الخقانية فصار معي وهو محتق
بدمعه متعثر بقدمه . ولما وصلنا اليها قصدنا مكان « لجنة المراقبة »
وهممنا بالدخول في حجرة المفتشين فنمنا الحاجب وطلب منا
« الكارت »

(الباشا) مستفهماً - ما معنى هذا اللفظ الأعجمي
(عيسى بن هشام) - « الكارت » بطاقة صغيرة يُطبع عليها الاسم
والوظيفة أو الحرفة والصنعة يقدمها الزائر قبل الدخول ليكون المزور
بالخيار في قبول الزيارة أو التملص منها
(الباشا) - لقد كانت أبواب التظم مفتوحة في أيامنا لكل من
يترقبها . وكيف ينطبق هذا التضييق على ما تصفه لي من المساواة
في الحقوق والانصاف في الأحكام
(عيسى بن هشام) - لا يسلم الحال من زيارة زائر بغير شغل أو من
لحاجة صاحب حاجة فوضعت هذه الطريقة ليتفرغ الحكام لا عمالهم
(الباشا) - ألم تكن هيبة الحكام وعزتهم بكافية لصدّ من ذكرت
عن الدنوّ منهم والتجريّ عليهم

قال عيسى بن هشام - وبادرت الى القلم فكتبت وريقة باسم الباشا

وسلمتها للحاجب فجأنا بعد الانتظار بالإذن فدخلنا فوجدنا أمامنا فتى من أجل الفتیان . قد أرسل لحيته قبل الاوان . يتموج تحتها ماء الشباب . كما يتموج الضوء وراء السحاب . ولما اقتربنا منه بعض الاقتراب . رأيت في يده جريدة حساب . يجمع في أرقامها . ويضرب في أعدادها . ثم يضع يده على جبهته . كمن يتذكر رقماً سقط من حسبه . وعن يمينه كتاب أعجمي . وعن شماله كتاب عربي . فكتاب اليمين « لفولتير » الفرنسي المحدث . وكتاب الشمال لابن العربي المتصوف الموحد . ولما تقدمنا نحوه سألنا عن حاجتنا فذكرت له العريضة التي قدمناها وقصصت عليه القصة وشرحت له ما علمنا به القاضي من سوء المقاطعة في الشهادة والمرافعة . وهنا انبرى الباشا يخاطبه بقوله :

(الباشا) - وأدهى ما في القضية وأمر ما في الامر أن الذي تسمونه « النائب » اعتبر رتبتي سبباً لأهانتى وما كنت أتخيل في الاحلام ان الرتبة التي نلتها باقتحام الاخطار واحتمال المشاق تكون جريمة لا تغتفر وبرهاناً قاطعاً لديه في تشييد دعواه يطلب به تشييد العقوبة . فقولوا لى بالله متى كانت هذه الرتبة الشريفة تستوجب العقاب والانتقام . ومن أى صنف أنتم بين صنوف الانام

قال عيسى بن هشام - ودخل أحد الزائرين في هذه الاثناء فحمدت الله على انقطاع الكلام بسبب دخوله والافقد كان الباشا اندفع فيه . بما يتعذر تلافيه . وبعد أن سلم الزائر سأل عما حدث من الاخبار . في وجه النهار . فناولهُ المفتش خطبة يتفكك بقراءتها . بعد ان بالغ له في بلاغتها . وما كاد يلتفت اليها ثانية حتى وافاه أحد المفتشين من الاجانب فأطلعه على رسم في ورقة زعم أنه نقشه في أثناء مناقشة قانونية اشتد فيها الخصام واحتدّ الجدل فنظر الشاب فيه نظرة وضحك له ضحكة ثم تخلص منه للاشتغال بأمرنا فخاطب الباشا بكلام لطيف عذب ينبئ عن كرم نسبه وحسن أدبه وختم كلامه بقوله

(المفتش للباشا) - قد اطلعت على ظروف القضية كلها في «مصباح الشرق» فاما القاضي فقد يكون له العذر في مقاطعة المحامي لان منهم من اعتاد أن يأتي في مرافعاته بتاريخ نشأة الخليقة وتسكوين الجمعية البشرية وما يجري هذا المجرى مما يطول شرحه ويُملّ سماعه ولا يكون له أقل ارتباط بجوهر القضية وهم يستعملون ذلك في أبسط القضايا وأدناها ليقنع صاحب القضية ان المحامي لم يدخر لديه كلاماً يقال في الدفاع عنه بقطع النظر عن ربح القضية

أو خسرها . فترى أرباب القضايا يعتقدون ان المحامى لا يستحق أجره من المال . الا بكثرة ما يقال . كالسلعة يكون تقدير ثمنها . على كمية وزنها . وقد توقف بعضهم مرة عن دفع المتأخر من الاتعاب لمحاميهِ بعد أن ربح له القضية بدعوى انه لم يسمع منه كلاماً مطوّلاً فى المرافعة يستحق عليه الاجر سواء كان مفيداً للقضية أو مضرّاً بها وليس يخفى أن وقت القاضى قصير ثمين فلا يسهه الا المقاطعة على المحامى المكثّر فى كلامه . وكذلك تكون المقاطعة على الشاهد لتنبيهه الى وقائع الحادثة لتلايفوتها بالخروج عنها . وحاصل الامر ان القاضى لم يخالف القانون بشئ فيما أتاه معكم

(الباشا) - ليت شعرى اذا اعتذرت عن القاضى فى مقاطعته فما هو العذر فى وضعه لى فى « قفص المتهمين » وتقييده لى بالقيام عند كل سؤال وأنا رجل شيخ مسنّ وقد قضيت عمرى فى المناصب العالية بالحكومة المصرية وبذلت دمتى فى خدمة الاسرة الخديوية فهلاً كان وقرنى لسنى واحترمنى لقدرى وأى قانون فى الدنيا يمنع من ذلك وتوقير السن طبيعى واحترام المقامات أمر أصلى والله تعالى يقول : (ورفعنابعضهم فوق بعض درجات)

(المفتش) - ذلك ما يقضى به القانون أيضاً فانه قائم على

المساواة بين الناس ولا فرق عنده في المقامات والاعمار وهذا عين ما يأمر به الشرع الشريف وعين ما يجرى على أعضاء الأسرة الخديوية وخاصة الحكام اذا ارتكب أحدهم ما يؤاخذة القانون عليه . ولا معرفة عليك ولا غضاضة في وقوفك أمام القاضى فانما تقف أمام النائب عن الحضرة الخديوية وهى أكبر الدرجات

(الباشا) - ان كان هذا حكمكم فى القاضى فما هو الحكم فى

عضو النيابة الذى عرّنى بشرف رتبتي

(المفتش) - انالم اطلع بعدد على أوراق القضية وتفصيل المرافعة

ولكن ما انتشر فى «مصباح الشرق» من كلام «النائب» لا يؤخذ

منه معنى النعير بالرتبة بل كان غرضه أن يثبت أن الرتبة مهما عظم

شأنها لا يكون من حقها هضم حقوق الضعفاء والامتياز بها على

الناس أمام القانون فانها قاصرة على صاحبها لا تجعل له سبيلاً على محروم

منها . ولا بأس عليكم من كلام النائب فى هذا الباب فانه جرى

بيننا مجرى العادة فى هذا العصر

(الباشا) - اذا كان للقاضى العذر وللنائب الحق فما هى فائدة

تظلمى لكم وحضورى أمامكم أمّا كان من اللائق أن تزجروا

القاضى وتؤنبوا النائب وتفحصوا القضية وتثبتوا من بطلان التهمة

وحضر خازن الكتب بالكتابين فردّ المفتش له أحدهما وقال له: ما طلبت «بودرى» بل طلبت «جارو» . ولما جاءه به أخذ يبحث في الكتابين طويلاً ثم نظر للخازن نظرة اليأس وقال: ائتنى «بفوستن هيلى» فأناه بكتاب آخر فخرج منه بعد النظر الطويل الى المناقشة مع زميله باللغة الفرنسية وانتهى الامر بينهما أن قالوا للباشا معاً: ليس أمامك الا الاستئناف فى قضيتك وأمامي تختص بالقاضى والنائب فسنضع عنه «نوته» (مذكرة) ونقدمها الى اللجنة عند انعقادها فاذا تبين لها أقل خلل فى تصرفها أصدرت منشوراً الى جميع المحاكم بعدم اتباع ذلك فى المستقبل

ثم ودّعانا بالاحترام والتعظيم وخرجنا والباشا يقول:
(الباشا) - قد كُتِبَ علىّ ان لا اخرج من همّ الا الى همّ ولا
أنتهى من كدر الا الى كدر حتى كاد يصفو بالى ويخلو خاطرى
لكثرة ما تراكم علىّ من الهموم والاحزان:

فإني رأيتُ الحزنَ للحزن ماحياً كما خُطِّطَ فى القرطاس رسمٌ على رسمٍ
ومن البديع الغريب فى أمر هذه الحكومة الحاضرة انى
ما وضعت قدمى فى دائرة من دوائرها الا ورأيتُ أمامى غلماناً وفتياناً
يتولون أمورها ويتصرفون فى أعمالها فهل خلق المصريون خلقاً

جديداً أم صاروا في الجنة استوت فيها الاعمار

(عيسى بن هشام) - لاعتجب من تقلد الشبان لمناصب الحكومة
فان نظام هذا العصر يقضى بذلك وهم يزعمون انه ليس في استطاعة
الكهول والشيوخ ان يقوموا بأعباء المناصب نخلوهم عن علومها
الجديدة وجهلهم بفنونها الحديثة

(الباشا) - كيف يدعون ان العلم ينحصر في الشبان دون الشيب
وما عهدناه الا في من أحتت السنون ظهورهم وبيضت التجارب
مفارقهم فابتسم فيها بياض الرأى والادب

(عيسى بن هشام) - هم يقولون ان العلم والمعرفة لا يختصان بسن
دون سن ولا عمر دون عمر وربما كان الشاب أنفذ سهماً في حلبة
العلوم وأجمع لشتات الفنون لما يختص به من حدة الذهن وسرعة
الادراك فاذا انصرف بهمته الى الدرس كان نصيبه منها أبلغ من
نصيب الكهول والشيوخ وأغناه ذلك عن طول الممارسة وكثرة
التجارب التي يمتاز بها ذوو الاسنان والاعمار

ليس الحداثة عن علم بمالعة قديو جد العلم في الشبان والشيب
(الباشا) - ولترجع الى شأننا فقد اتبعت آراءك وامثلت لنصائحك
وعرضنا أمراً للجنة المراقبة فخرجنا منها بالخيبة كما ترى فليس لنا

بعد هذا التعب الا الركون الى راحة اليأس ولم ينبق لك بعد اليوم
وجه فى أى احتجاج وجهه توجهنى به وتسجنى معك للسعى والتنظم
أمام الحكم

(عيسى بن هشام) - لا تيأس ولا تقنط فان أماننا محكمة
الاستئناف ولى اعتماد عظيم على إنصافها فى الاحكام . ولو خاب
فيها الامل على الفرض والنقدير فلا يزال عندنا باب العفو مفتوحاً
نلتسمه بوساطة ناظر الحقاية

(الباشا) - لا تذكر لى من الآن حاكماً ولا ناظراً فقد سئمت
من وقوفى أمام هؤلاء الغلمان والشبان معها بالغت لى فى الوصف
واستشهدت فيهم بالشعر

(عيسى بن هشام) - ليس ناظر الحقاية الذى أذكره لك من
صف هؤلاء الشبان وطرازهم بل هو رجل كهل عاكف على العبادة
منكبٌّ على الاوراد منصرف الى الازكار . يمسى ليله قائماً .
ويصبح نهاره صائماً . فيبين السبحة وأصابعه عهد وميثاق . وبين
السجادة وجهته ارتباط والتصاق . وبالجمله فهو يذكّرنا فى هذا
العهد الجديد بعهدكم القديم . وأبوه رجل من أكابر رجالكم اسمه
حسن باشا المناسترلى

(الباشا) - حسن المناسترلى ! ذاك خليلى وقرينى وصاحبى
وخدينى ورفيقى فى الخدمة وأخى فى الحكومة ولماذا لم تخبرنى عن
ابن أخى هذا من أول الامر فتكون قد حققت ماء وجهى وأنقذتني
من كل هذه الالهانة وذلك التحقير

(عيسى بن هشام) - ماغاب عنى ان أذكرك به فانه لم يكن له
أقل نفع يدفع عنا ما تقلبنا فيه من المصائب وانما نفعه يكون فى آخر
الدرجات ولا عمل نرجوه منه فى مساعدتنا الا بعد صدور حكم
الاستئناف والسعى فى التماس العفو من ولى الامر



وآن أوانُ الجلسة فى الاستئناف . فسرنا فى طلب العدل
والانصاف . وكل واحد منا مشغول بحاجته . لاهِ بنازلته . فالباشا
يفكر فى مصيبته . ويتألم من بليته . والمحامى يدبر فى أمره .
ويتطلع لأجره . وأنا أسأل الله لنا النجاة . من مكاييد الحياة . ولما
وصلنا الى حى « الاسماعيليه » ورأى الباشا دُورها ومبانيها . وشاهد
قصورها ومغانيها . واستطاب رياضها وحدائقها . واستنشق رياحها
وشقائقها . استوقفنا سائلاً مبهوراً . واستنطقنا بعدان كنا سكوتاً .
فقال ألا تخبرانى عن موضع هذه اللجنة الزاهرة . من مدينة القاهرة .

فقلت له هذه « الاسماعيلية » اختطها اسماعيل . فيما اختطه لزينة
 وادى النيل . يسكنها اليوم جماعة من العظماء . ذوى الغنى والإثراء .
 وقد كانت فى أيامكم خراباً قفراً . لا تحمل بيتاً ولا ترفع قصراً .
 ولا ترى فيها من النبات غير الطلح والضال . ولا من الازهار غير
 شوك القتاد أو شوك السيال . ولا من الطير غير البوم والغربان .
 أو الرخم والعقبان . ولا تجد فيها من الانس الا لصاً سالباً .
 أو مقتلاً ناهباً . أو فاتكاً متأهباً . أو كامناً مترقباً

(الباشا) - لله در المصريين لقد ابتسم لهم الدهر . فأبدلهم من
 الشوك الزهر . وأسكنهم هذه القصور العالية . بعد تلك الاطلال البالية
 (الحامى) - أيها الامير لا تغبط المصرى على نعمته . وتعال
 فأبئك معنا على نعمته . فليس له فى هذه الجنة من دار . يقر له فيها
 من قرار . وكل ماتراه من هذا الجانب . فهو ملك للجانب

(الباشا) - لله أبوك كيف يختص الاجنبى دون الوطنى بهذه
 الحنان الناضرة . ويستأثر دونه بهذه المساكن الفاخرة . ولعلك تلغز
 فى قولك وتحاجى . وتعمى فى تعبيرك وتداجى
 (الحامى) - لا تحجية ولا تعمية . بل هكذا قدر المصرى لنفسه .

وتبدل سعده بنحسه . واقتنع من دهره بالدون وبالطفيف . ورضى

بالقسم الخسيس الضعيف . فبات محروماً تحت ظل اهماله وخموله .
 وغدا بائساً في سباته وذهوله . وما زال الاجنبى يسعى ويكد .
 ويعمل ويمجد . وينال ثم يطمع . ويسلب ثم يجمع . والمصرى يُبذر
 بجانبه ويسرف . ويبدد ويتلف . ويتحسر ثم يلهو . ويمجز ثم يزهو .
 ويفتقر . ثم يفتخر . وسادتنا وكبراؤنا . وولاتنا وأمرأونا .
 يعاونون الاجانب بسلطتهم فينا وسطوتهم . ويساعدونهم علينا
 بأسهم وقوتهم . ويصطفونهم أنصاراً وأعواناً . ليزيدوا بهم
 المصريين ذلاً وهواناً . حتى وقوعهم أيضاً بأسرهم . فى قبضة
 أسرهم . فتساوى السيد بالمسود . وتشابه الحاسد بالمحسود . وتعاذل
 الرفيع والمنيع . بالحقير والوضيع . واشترطنا كلنا على السواء . فى
 منازل الشدة والبلاء . وأصبح نصيب القوى المكبن . مثل
 نصيب الضعيف المستكين . وكذلك تكون عاقبة من يلقى للاجنبى
 يديه . ومن أعان ظالماً سلط عليه :

وَمَنْ يَجْعَلِ الضَّرْغَامَ بَارًا لِّصِيْدِهِ تَصِيْدُهُ الضَّرْغَامُ فِيمَا تَصِيْدَا
 قال عيسى بن هشام - وما كاد ينتهى رفيقائى من خطابهما .
 ويفرغان من سؤالهما وجوابهما . حتى مر بنا راكب دراجة تنساب
 به كالصلال . فى بطون الرمال . ويتميل بها تمايل النشوان . مالت

ه نشوة الحمر . وينثنى انثناء الاغصان . هزها نسيم الفجر . فامتلاً لباشا . تعجباً واندھاشا . وسألنا الشرح والبيان . عن أمر هذا (البهلوان) . فقلت هذه عجلة حادثة يختارها بعض الناس . على لمركبات والافراس . ومما يرغبهم فيها انها لا تأكل ولا تشرب . ولا تهزل ولا تتعب . وهذا الراكب رجل من أهل القضاء . بركبها لرياضة الاعضاء . فأتبعه الباشا نظره فوجده قد سقط فجأة من فوق دراجته فانقرط عقد الهيئة على سطح الارض الى ثلاثة أقسام : الراكب والعجلة والطربوش . ثم رأيناه تماثل للقيام فلم شعثه وحاول أن يعلو الدراجة ثانية فلم يقدر عليها فسحبها بيده يجرها ويماشيها . وأخذ الباشا يخاطبني فيه وفيها :

(الباشا) - يا حبذا لو عدنا من حيث أتينا . وكنا مطلقين لا لنا ولا علينا . وكيف يكون شأن القاضي أو الحاكم اذا كان هذا منظره وذاك مركبه أمام أعين العامة . وهل حُكم الناس يوماً بغير أهبة الحجاب وعظمة المناظر ونخامة المراكب وقد كان الحاكم أو القاضي لا يركب في عصرنا الا في موكب تحف به الحشم والاعوان . وتتقدمه الجنود والفرسان . فترتجف منه القلوب رعباً . وتخرّ له الاعناق رهبا وقل من يجترئ من الناس على ارتكاب ما يوقفه أمامه يوماً موقف

الهمة والارتياب

(عيسى بن هشام) - ذاك عصر مضى . وحكم انتضى . ولقد تقنن أهل العصور الماضية في وصف ماتذكره من منظر الابهة والجلال وهيئة العزة والوقار حتى أدخلها الشعراء في مخالصهم البديعة كقول أبي الطيب في ممدوحه مثلاً :

جَمَحَ الزمانُ فما لَدَيْدُهُ خالِصٌ مما يشوب ولا سرورٌ كاملٌ
حتى أبو الفضل ابنُ عبد الله رُوِيَ يَتَهُ المُنَى وهى المقامُ الهائلُ
(الحامى) - قد آن أن تفرغ من هذا الحديث فمداقتر بنا من المحكمة
(عيسى بن هشام) - ولعلنا نجد لها باذن الله في مكانها فقد عودت

التنقل من مكان الى مكان حتى اشبهت خيام العرب :
يوماً بجزوى و يوماً بالعقيق وبالـ عُدَيْبِ يوماً و يوماً بالخليل نصاء
ثم اقتربنا فوجدناها وأقمنا في ساحتها نتظر دورنا بين أرباب
القضايا حتى نودى علينا فتقدمنا للجلسة أمام ثلاثة من القضاة فأخذ
الاجنبي منهم يقرأ « ملخص القضية » بلهجة أعجمية وحروف لم
تستوف مخرجها فقال : « ان هذا الرجل متهم بالتعدى على فلان
العسكرى بالضرب في أثناء تأدية وظيفته في يوم كذا من شهر كذا
والمتهم أنكر وشهد المجنى عليه ودل الكشف الطبي على وجود

علامات فيه للضرب والمحكمة الابتدائية حكمت عليه بالحبس سنة ونصفاً بالتطبيق لمادتي ١٢٤ و ١٢٦ عقوبات فاستأنف المحكوم عليه »

ولما سألت المحامي عن هذا التلخيص الغريب قال لي هكذا تجري العادة هنا فيأخذ مثل هذا القاضي الاجنبي عبارة الدباجة المذكورة في الحكم الابتدائي فيجعلها تلخيصاً للقضية ثم يكتبها بعريتها بحروف أجنبية ليقرأها أمام الجلسة على نحو ما رأيت

ثم التفت رئيس الجلسة إلى الباشا وسأله عن اسمه وسنه وصناعته ومحل اقامته وأشار الى النيابة بالكلام فشرع النائب في شرح القضية على ما يوافق هواه . ولم نسمع من الرئيس مقاطعة له في كلامه كما يكون في المحاكم الابتدائية (والسر في ذلك ان بعض القضاة الذين لم يكونوا اطلعوا على أوراق القضية في الاستئناف هم في حاجة الى العلم بها من أقوال النائب فبتركونه وشأنه في التطويل والاسهاب) ثم أذن الرئيس بالكلام للمحامي مع الإيجاز فابتدأ المحامي يسرد أقواله في أوجه الدفاع عن المتهم وكما وصل الى النقطة المهمة في دفاعه قال له الرئيس : « الموضوع » : « طلباتك » . ولما تكرر منه وقوع ذلك رأيت أحد القضاة ينبه الرئيس الى ان كلام

المحامى فى عين « الموضوع » (وللرئيس العذر لأنه لم يطلع على تفصيل القضية ولم ينصت لاقوال النيابة) ثم نطق الرئيس بعد ذلك بقوله : « سمعت القضية والحكم بعد المداولة » فانتقلت الجلسة الى حجرة المداولة وخرجنا ننتظر وسألت المحامى عن المسافة التى تنقضى فى المداولة فأجابنى :

(المحامى) - لا تزيد مدة المداولة فى الغالب عن ساعة واحدة

(عيسى بن هشام) - وما هو المتوسط من عدد القضايا فى الجلسة

(المحامى) - متوسطها عشر قضايا

(عيسى بن هشام) - وهل تكفى هذه المدة للاطلاع على ما تحتويه

القضايا الجنائية من كثرة الاوراق

(المحامى) - نعم تكفى عندهم لكل القضايا ولو كان الاطلاع على

القضية الواحدة التى يحكم فيها بالاعدام أو بالاشغال الشاقة المؤبدة

يستغرق ساعتين أو ثلاثاً . وطالما اطلعنا على القضايا التى تعود من

عند القاضى « الملخص » الى قلم الكتاب لاطلاع المحامين فنجد

عليها رمزا بأحد هذه الاحرف : « ب » « ع » « ت » . فالباء إشارة

الى البراءة والعين إشارة الى العقوبة والتاء إشارة الى تأييد الحكم

الابتدائى . وانما يضع القاضى هذه الرموز حتى لا ينسب رأيه فى

القضية عند عرضه على زملائه فى المداولة فاذا عرضه عليهم لم يضع الوقت بينهم سدى فى البحث والمناقشة . ولكن لما كان القاضي الجنائى له الاستقلال المطلق فى الحكم بما يرتاح اليه ضميره وتطمئن به نفسه كان من الواجب عليه ان يسلك غير هذا الطريق ويفحص أدلة الثبوت وأدلة البراءة بنفسه فيعرضها على ضميره وهو خالٍ من كل اعتقاد خاص للبراءة أو للثمة حتى اذا استقامت لديه الادلة حكم بما يغلب عليه منها لا أنه يجرى فى طريق التسليم لرأى الغير ولا أن يكون الحكم مبتوتا فى القضية بأحد هذه الاحرف الثلاثة التى عنت للقاضى الملخص وهو يمر عليها فى انفراده بيته مرّ السحاب قال عيسى بن هشام - وبينما نحن فى هذا الكلام اذ عادت الجلسة الى انعقادها فدخلنا لسماع الحكم فنطق الرئيس ببراءة الباشا لعدم ثبوت التهمة عليه لانه قد حالت دونه ودون دعوة القانون قوة قاهرة فخرجنا مسرورين بهذه النعمة وخرج الباشا وهو يقول :

(الباشا) - لا أنكر اليوم ان العدل موجود ولكنه بطيء . لا يتحمل أعباء بطنه البرى . وكان الأولى فى هذه المحاكمات ان تكون النهاية فى البداية فلا يلحق من كان مثلى هذا المھوان والصغار . ويقع به ما وقع من الحبس والعار . بعد أن يقف موقف التهمة

والإجرام . ويحل به ما يحل من التعذيب والإيلام
 (الحامى) - انى أهنئك بهذه البراءة وأسأل لك دوام العافية من
 مصائب الاتهام ولا زلت تخرج من كل قضية خروج السهم من
 قوسه والسيف من غمده . وقد مضى منى الدفاع وبقي عليك الدفع
 قال عيسى بن هشام - وما زال الحامى عاكفاً علينا يطالبنا بالاجر .
 والباشا يعده لآخر الشهر . حتى يأتیه بعض خدمه وأتباعه . بمال
 من عقاره وضيائه . والحامى يأبى التسويف والامهال . والأ
 الدفع فى الحال :

(الحامى للباشا) - أظن ان هذه الوعود . تقوم لدينا مقام النقود .
 فى بلد كثر فيه الانفاق وزادت الضرورات . وقلّ فيه الربح كما
 قلت المروءات . وصار الدرهم أعزّ عند الاب من بنيه . وعند
 الابن من أبيه . ولقد تعبت فى القضية تعبتن باللسان وبالجنان .
 ولا استريح منهما الا بنقد الاصفر الرنان . وانك لا تصرفنى -
 وان كنت محمود الخلق - بالوعد . ولكنك تصرفنى - وأنا أحمد -
 بالنقد . وانى لأريد أن أسكن فى بيت المتنبى :

أنا الغنى وأموالى المواعيد

فلا تجعل الخلاص من قضية بقضية . والفكاك من بلية بلية .

فذلك ما لا يأتيه العقاء . ولا يرتضيه الامراء

قال عيسى بن هشام - ولما رأيت الباشا لا يقدر على التلفظ . من شدة
الحنق والتغيظ . تداخلت بينهما تداخل الارب . وتوسطت توسط
الليب . فملت بلطف الالتماس والرجاء . رضاء المحامى بالمهلة والارجاء .
الى أن ينتقل الباشا من العوز والعسر . الى الغنى واليسر . وقلت
له ما يقال في باب المروءة والهمة . من وجوب الحنو على من يقع
في مصيبة أو ملة . وأن من تذكر الدهر وغيره . والزمان
وعبره . لانت عريكته . وطاوعت شكيمته . وليس بين صعود
المرء ونزوله . وإشراق سعده وأفوله . وبين غناه وفقره . وصفوه
وكدره . الا مسافة انقضاى القضاء . من رب السماء . فنظر الى
الباشا نظرة الاحتقار والازدراء . وخاطبني بالانفة والكبرياء :

(الباشا) - لبئس الخدين أنت والقرين . كيف تسمنى بسمة الفقراء .
وتستعطف على قلوب الضعفاء . وأنا الأمير السرى . والغنى
المثرى . وأين ما أدخرته في عمرى . واكتنزته في عصرى . من
مال وعقار . وفضة ونضار . وقصور وضياع . وزخرف ومناع .
ولقد كان يضرب بغنائى المثل . فان كنت جاهلاً بى فسل . اذهب
فأتنى بخمر ما خلقت وأبقيت . وأثر ما جمعت واقتنيت . وكيف

يخفى عليك ، أو على المحامي مالى من الاموال والعقار . وما قضيت فيه العمر من الجمع والادخار . فانى يشهد الله ما تركت حيلة . ولا أغفلت وسيلة . فى الحصول على الاثراء والغنى . حتى جمعت منه كثيراً مما تفرق على الورى . فجعلته عدة لشد أزرى . وأماناً لى من مصائب دهرى . وتركته ذخيرة لابنائى وحفدى . وميراثاً لآعقابى وذريتى . ليكونوا من ذل الحاجة فى جنة . ومن نعيم العيش فى جنة . وتركهم على ذلك مطمئن القلب مستريح الفؤاد . رفيع الذكر رفيع العماد

(المحامى) - نعم انا لنعلم يامعشر الامراء والحكام انكم قضيتم الاعمار فى جمع الحطام واتخذتم الحكم والسلطان تجارة من التجارات وبضاعة من البضاعات تربحون منها الغنى والثروة ولم تكونوا تعلمون للحكم من مزية سوى اكتناز الاموال واستلاب الحقوق وابتزاز الدراهم من دماء الارامل والايامى وانتزاع الاقوات من أفواه الاطفال واليتامى وكنتم سواء عليكم حزم المال من حله أو غير حله لم تبالوا بالضعيف المسكين ولم ترثوا للعاجز المستكين بل ظلمتم البرئ وبرأتم الظالم فجمعتم لديكم من أثر ذلك ما فرقه الله على عباده من رزق وما قسمه لهم من قوت ورضيتم بالوزر وطوقتم اغناقكم بالإصر ثم حرمتهم بعد ذلك على أنفسكم التمتع بما جمعتموه

وَحَرَمْتُمُوهَا مِنْ كُلِّ مَا حَزَمْتُمُوهُ وَلَمْ تَكُونُوا مِنَ الَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ
مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ وَلَمْ تَوَدُّوا مَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فِيهَا مِنَ الْحَقِّ
وَلَمْ تَطْهَرُوهَا بِزَكَاةٍ وَلَمْ تَزْكُوهَا بِإِحْسَانٍ وَأَطْرَبَكُمْ مِنْهَا نِينَ الدَّرْهِمْ فَوْقَ
الدَّرْهِمْ وَصَمَتُ الدِّينَارُ مَعَ الدِّينَارِ وَأَبْدَعْتُمْ مَا شِئْتُمْ فِي وَسَائِلِ وَطَرَائِقِ
يَأْبَاهَا اللَّهُ لِعِبَادِهِ وَيَمَقَّتْهَا وَيَسْتَبْشِعُهَا الْإِنْسَانُ وَيَسْتَفْظَعُهَا السَّلْبُ مَا سَلَبْتُمُوهُ
وَكُنْزٌ مَا كُنْزْتُمُوهُ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَاجْتِرَأْتُمْ عَلَى
اللَّهِ فِي أَمْرِهِ وَنَوَاهِيهِ وَكَلَفْتُمُ الْعُلَمَاءَ بِتَأْوِيلِهَا عَلَى أَهْوَائِكُمْ فَأَوَّلَوْهَا
لَكُمْ لَا تَحْصِرُ الْإِرْزَاقُ فِي أَيْدِيكُمْ وَاحْتِيَاجُهُمْ إِلَى مَا يَتَّقَتُونَ بِهِ مِنْ
فَضْلَاتِ عَيْشِكُمْ فَالْوَزْرُ عَلَيْكُمْ وَعَلَيْهِمْ وَلَكِنَّهُ غَلَبَكُمْ أَعْظَمُ وَفَوْقَكُمْ
أَثْقَلُ . حَتَّى إِذَا انْقَضَى الْعُمُرُ وَحُلَّ الْأَجَلُ تَرَكْتُمْ مَا خَلَقْتُمُوهُ لِعَلْمَةٍ
مِنْ أَوْلَادِكُمْ وَصِيبَةٍ مِنْ جَوَارِيكُمْ نَشَأُوا بَيْنَكُمْ عَلَى الْحَرَمَانِ وَلَمْ
تَشْفَقُوهُمْ بِالْتَّعْلِيمِ وَلَمْ تَرْكُوهُمْ لِلزَّمَنِ يُؤَدِّبُهُمْ وَالْأَيَّامِ وَالْيَسَالَى تَهْدِيهِمْ
فَكُنْتُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ كَالرَّصَدِ الَّذِي يَكُونُ عَلَى بَابِ الْكُنْزِ — كَمَا يُقَالُ
فِي الْإِقَاصِيصِ — يَحْتَالُونَ لِنَقْلِهِ بِقَتْلِهِ فَإِذَا اسْتَرَا حُوا مِنْكُمْ بِالْمَوْتِ أَوْ
الْقَتْلِ مَزَقُوا أَمْوَالَكُمْ انتِقَامًا مِنْهَا وَمِنْكُمْ وَفَرَقُوا شَمْلَهَا فِي أَدْنَى مِنْ
لَحْةٍ جَهْلًا مِنْهُمْ بِوَجْهِهِ التَّصَرُّفِ وَأَبْوَابِ التَّمَتُّعِ فَهُوَ إِلَّا أَنْ يَتَسَابَقَ
الدَّهْرُ إِلَيْهِ فِي أَحْشَائِكُمُ الْمَدْفُونَةِ . وَأَحْشَائِكُمُ الْخَزُونَةِ . فَيَسْبِقُ

الورثة الدود . فى الصدور والورود . فذهب البدره وراء البدره
والضيعة بعد الضيعة والدار عقب الدار حتى اذا لم يبق الا بيت السكن
أتوا على ما فيه من الاثاث بيعاً وما فى اعناق الجوارى من الجواهر
والقلائد رهنًا ولا يزالون يخلون من البيت حجرة إثر حجرة والدائون
يدخلون فيه خطوة إثر خطوة الى أن يندك بناؤه ويعفو أثره
ويزول اسم بانيه الذى ارتكب ما ارتكب من الذنوب لتشييده ودوام
بقائه وهو يشيع منهم باللعتين فى الحالتين حالة الخلاص منه بالتشييع
الى القبر وحالة أسفهم على اهماله اياهم من ثقيف العلم بما كان ينفعهم
فى خشونة الفقر

هذه أيها الامراء عاقبة ما صارت اليه أموالكم ومقتنياتكم
من بعدكم ويا ليت أولادكم واحفادكم خففوا عليكم من الإثم فى
جمعها من دماء المصريين بائناً فاقها بينهم وتبذيرها فيهم فيكون ذلك
منهم كردّ بعض الحق الى أهله ولكن البلاء كل البلاء انما ذهبت جميعها
الى أيدي الاجانب والغرباء . وكان الدهر سلط المماليك على المصريين
ينهبون أموالهم ويسلبون اقواتهم ثم سلطكم الله عليهم لسلب ما جمعوه
ثم سلط عليكم أعقابكم فسلموا مجامع ذلك للاجانب يتمتعون به على
أعين المصريين والمصريون أولى بالقليل منه . وما دفع بأعقابكم الى

هذا اليلان والتسليم الاماورثوهُ عنكم من الاحترام لشأن الاجنبى
والاحتقار لجانب المصرى وأنكم لم تكتفوا بأن تكونوا أرباباً
للمصريين حتى شاركتهم معكم الاجنبى في تلك الربوبية فغلبكم عليها
واشرككم مع المصريين فى العبودية وتشابهت الموالى بالعبيد . وقد
آن ان تعلم ايها الامير بان جميع اقرانك واخوانك من ذوى الثروة
واليسار فى ايامكم قد أصبحت بيوتهم خاوية على عروشها وأبصارُ
أعقابهم شاخصة اليها فان أردت ان تبحث عن أموالك وضياعك
اليوم فابحث عنها تحت ثقال تلك الرحى وقل معى ما يقوله
الشاعر الحكيم :

يقول الفقى ثمرتُ مالى وإنما لوارثه مائثرَ المالِ كاسبُهُ
يحاسبُ فيه نفسه فى حياته ويتركُهُ نهياً لمن لا يحاسبُهُ
فيا عبث المدخر الجامع . وياعين المكنز الطامع ما كان أغناكم عن الجمع
والادخار . وعن الحرمان فى الدنيا والخلود فى النار

(الباشا) - أراك قد تجاوزت أيها المرشد الواعظ حدك فى اللوم
التعنيف وخرجت عن طورك فى العذل والتعزير وكان بودى أن
عطيك اجرَكَ مضاعفاً ولا أشاهد منك هذه الجرأة علينا بسوء
لثقة . نعم والتوسخ . ورماتلت حقاً فى بعض ماتقول والرجاء فى غفران

الله عظيم وفي رحمته متسع ولعل ما تخلل اعمالنا في ايامنا من الحسنات يشفع لنا في ما اقترفناه من السيئات . ولكن كيف التدبير الآن في اكتساب المعيشة والاحتياج لا التماس الرزق بعد ان ضاعت الاموال وذهبت من ايدينا الاحكام على نحو ما روى وتحكى . وما ارى لضيق من مفرج الا ان اورد نفسي حثها واعيد لها حمامها فما اروح ما كنت فيه . من ظلام الرمس . وما أقبح ضياء هذه الشمس (عيسى بن هشام) - ليس لمثل حالتكم غير الاسف منا والتوجع لكم فقد تمكّن الاعتقاد في رؤوس الحكام ان ما يقع بالاتفاق لهم بين حين وآخر من ولاية الاحكام فهو قياس مطرد وصراط مستقيم لا ملجأ لكم سواه في وجود المساعي وممارسة مطالب الحياة . وقامت الولاية عندكم مقام بقية الآلات والصناعات التي يجتني اهلها منها أمر الارتزاق والتكسب فاذا خلت ايديكم منها واعتزلتم الاحكام تقطعت بكم الاسباب وضافت بكم السبل في وجوه المعاش كما تصاب يد الصانع بالشلل فيتعطل عن العمل ويصبح كلاً على كاهل الجميع يرجو الموت كما رجوت وتمنى راحة العدم كما تمنيت . وكأنكم ايها الحكام صنف من فوق أصناف الخلقة لكم نصيب من العيش دون سائر الخلق فلا تكونون الافوق ذهب العرش أو فوق خشب النعش

وقد قال مسكين من رؤساء صناعتكم هذه وهو في ضيق الحبس وضيق النفس :

ونحن أناس لا توسطَ عندنا لنا الصدرُ دون العالمين أو القبرُ ومعلوم لك ما في هذه الصناعة صناعة الولاية والحكم من قلة ما يرفعه الصدر وكثرة ما يضمه القبر . وكان الأولى بكم أن تكونوا كالناس في معاشهم لكل إنسان آلة بيّنة من صناعة أو حرفة أو مهنة يحسن بها النعيش والارتزاق حتى إذا أنتم نزلتم عن تلك العروش دخلتم في بقية الأحياء من أفراد الجمعية تنفعون وتنتفعون

(الباشا) - تالله أن ما قاسيناه من الآلام أمام البوليس والنيابة والمحكمتين واللجنة كان أقلَّهما وأدنى شجناً من مرارة هذا النصيح والوعظ . وما هو الرأي عندكم وقد فات وقت التحصيل والطلب ولم يبقَ وقت للصناعة والعمل . والموعظة صالحة نافعة ولكنها لمن يجيئ لا لمن يمضي

قال عيسى بن هشام - فأحزنتني حالة الرجل وأشفقت عليه فأخذت أتدبر له وأفكر في طريقة يتعيش بها وكلما خطر لي في ذلك خاطر خاب رجائي فيه حتى كدت أياس من الحيلة والباشا ينظر إلى وأنا في تفكيري تارة ويترك للتفكير في نفسه تارة أخرى . ثم رأيتُه قد انتفض من

مكانه واخذيدي يقول لى :

(الباشا) - قد وجدت والحمد لله باباً لسدّ العوز وكفاف العيش

(عيسى بن هشام) - ماذا وجدت

(الباشا) - كان من عادة الحكام امثالنا فى الأزمان السالفة أن

يأتوا فيما يأتونه من أعمال الخير التى تقربهم من الله وتعتق رقابهم من

النار بعمل صالح اتفقوا عليه كافةً وهو اقامة بناء لجامع أو كتاب

أو «سبيل» وكانوا يخصصون له أرضاً أو ضيعة وقفاً عليه للانفاق

من ريعها على طول الزمان وقد سلكت مسلكهم واتبعت سنتهم

وخلفت لذلك وقفاً عظيماً لاتناله أيدي الاعقاب بالائتلاف والتبذير

فهل معى نبحث على ماشيدته ووقفته

* *

قال عيسى بن هشام - وظللت أنا والباشا نواصل الطواف بالطواف .

للقوف على تلك الاوقاف . ونسائل العابر وابن السبيل . عن المسجد

« والسبيل » . ولا سؤال المجدب عن الروض . والظمان عن الحوض .

فلم نجد من يرشد . الى ماننشد . وأخذ الباشا تذكر الطرق وأماكنها .

والازقة ومساكنها . ويقول كان هنا وكان هنا . وجل مايقضى به

إلينا . ومازال يقاصر فى خطواته . ويطاول من آهاته . ويبكى لرسوم

الاطلال والديار . بكاء صاحب عزة أو صاحب نوار
 فاسألنها وجعل بكاء جواباً . نجد الدمع سائلاً ومُجيباً
 حتى وصلنا بعد طول التجوال والتجواب . وترداد المجيء والذهاب .
 الى منعطف مضيق . في منتهى الطريق . فوق الباشا هناك قُبالة
 دُور مَهْدَمَة . وجدرانٍ محطّمة . ومسجدٍ في جفوة منه حانوت
 خمار . وفي زاويةٍ منه دكان عطار . وبجانبيهما حوايت متباينة
 الاوصاف . مختلفة الاصناف . فظف الباشا يصعد نظره فيها ويصوبه .
 ويخطي حده تارة ويصوبه . فهداه طول النظر والتدقيق . وشدة
 الامعان والتحقيق . أن رأى شيخاً فانياً متربعا في دكانه . متحيزاً
 بمكانه . عليه علامات الانحلال والسقوط . وشارات الخذلان
 والقنوط . وسيماء الرضاء بالمقسوم . والتسليم للقضاء المحتوم . له
 جهة كأنها من ورق البردي العتيق . تلو فيها مادونه الدهر من
 آيات الشدة والضيق . فخرج الباشا في الحال . من حال المتحير المتردد .
 الى حال الواثق المتأكد . فنادى صاحب الدكان عن بُعد . نداء
 السيد للعبد . فانتفض الرجل انتفاضاً عجيباً . وقصده مُكيباً ومجيباً .
 فما شككت من هيبة النداء وأدب التلبية . الا أن ملكا ينادى احد
 الحاشية . ووقف الرجل أمامنا وقفة الممثل الخاضع . والمطيع الخاشع .

فقال له الباشا بعد ان حدّد فيه نظره . واسنجم فكره :
(الباشا) - ألسنت أنت احمدأغا الركبدار المعدود من أهل حاشيتي .
ألا تعرفني من أنا

(صاحب الخانوت) - لولا أن الموت حجاب كشيء وحجاز
منيع بين ظهر الارض وبطنها لقلت انك سيدى واميرى ويشهد الله
انى كلما أمعنت فى وجهك وسمعت لصوتك كاد يطير عقلى ويندهش
لى لاستحكام الشبه بينك وبين سيدى المرحوم

(الباشا) - انى انا سيدك وهذه هى العلامة التى تعلمها فى جسمى
من أثر اللعب بالجريد على مشهد منك فى يوم من ايام السبق والرهان
(وكشف الباشا عن ساقه فأراه العلامة فوقع الرجل منكباً على
الارض من شدة الدهشة يقبل قدم الباشا ويفسها بمنحدر الدموع
ويقول فى بكائه وشهيقه) :

(صاحب الخانوت) - كيف بالحياة بعد المات . لحقّ انت احدى
المعجزات . وليس ما أراه بغريب فقد شاهدت فى هذا العمر المोजز
مالا تحيط بوصفه اقلام ولا تتسع له بطون الدفاتر من عجائب الانتقال
وغرائب الانقلاب فلا يبعد بعد ذلك ان تشرق الشمس من مغربها
وتُخرج الارض أمواتها من مقابرها

قال عيسى بن هشام - فقلت للرجل لا تكبر من الدهشة والحيرة
ولا تغرب في الاستغراب والتعجب
على أنها الأيامُ قد صِرْنَ كُلُّهَا عَجَائِبَ حتى ليس فيها عجائبُ
واعلم أن القدرة لا تعجز عن شيء في الوجود ولا تحيط بها
العقول . ثم قصصت عليه قصة الباشا منذ البداية فصاح الرجل يبكي
ويتضرع ويقول ليت أُمِّي لم تلدني ولت القدرة التي بعثت الأمير
من بعد موته نشرت معه زمنه وأعاد عصره وإلا فكيف
لَهُ بالعيش في هذا الزمن . وما أولادُ بالعودة الى ادراج الكفن .
ثم التفت إلى الباشا وشرع يقص عليه ما مرَّ به من الحوادث
والكوارث وما جرى لبنت الباشا ولأهل طبقة من النوازل
والخطوب :

(صاحب الخانوت) - ولم يبق لك أيها المولى من أثر يُذكر في
ثروتك ومتاعك . وأموالك وضياحك . وقد عشتُ دهرًا وأنا
متمتع برِيع ما وَفَّقْتُهُ أيها الأمير على حاشيتك وأتباعك وعلى هذا
المسجد والسبيل والكتّاب لتخليد ذكرك وإحياء اسمك فما لبث
الوقف أن تهدمَ وتحرب بطول الترك والاهمال فوقعنا كلنا في الفاقة
والاحتياج وانقلب الكتّاب مخزنًا والسبيل خمارًا والمسجد مصبغة

كما تشاهد وترى وأصبحت أنا بيطاراً بعد أن كنت « ركبداراً »
وأخذت هذه الخانوت من الوقف لممارسة صناعتي فيها والتعيش منها
وسبحان مقلب الأحوال ومبدل الاشكال

(الباشا) - ألم يبق من ذريتي أحد يباشر هذا الوقف بنظره

(البيطار) - آخر العهد عندي كان بواحد منهم ذهبت اليه
لأجل هذه الخانوت وأعلمته بمكاني من أهل الحاشية فأنهرني
وطردني وأبعدني وزجرني ولكن الحاجة دفعتني إلى الالتاح
فترددت عليه مراراً فتخلص من ثقل إلحاحي بأحالي على رجل
افرنجي عنده يدبر له ما بقى لديه من ثروة نصبت عينها ونزحت
بئرها فأحالي الافرنجي على صاحب الخمار لأنه أصبح صاحب
الأمر في أرض الوقف بوضع اليد عليها وليس يجسر أحد أن يعمل
فيها شيئاً بغير إرادته خوفاً من الخصومة في المحاكم فقصدت الخمار
واتفقت معه على أجرة معينة وأقمت في هذه الخانوت أصرع الدهر
ويصرعني وأطلب القوت ويعوزني وأتعجل الأجل ويمهني وتعالى
الله المتفرد بعزته المبدع في حكمته

(الباشا) - وأين هذا الولد العاق المخالف لإرادتي وهو يعلم أن

شرط الواقف كنص الشارع

(البيطار) - هو مقيم الآن في « الاوتيل »

(الباشا) - وما هو الاوتيل

(البيطار) - « اللوكاندة »

(الباشا) - وما هي اللوكاندة

(عيسى بن هشام) - « الاوتيل » هو بيت معروف يمدونه
لنزول من لا بيت له من الاجانب والغرباء على أجر معين وهو في
المعنى كالخان الذي تعرفونه في زمانكم

(الباشا) - هل وصل التدني بهذا الخائن إلى سُكْنَى الخان .
وسبحان مصرف الاحوال ومغتر الا زمان . وكيف يطيب للمسكين
عبس على هذه الحال . بعد عز النعمة ووفرة المال . أفكان رجوعي
الى الحياة على مالا أرغبه ولا أرضاه . تعذيباً لي على ما فرطت في
جنب الله . أولم يكن عنده سبحانه في الآخرة من عذاب النار .
ما يغني عن التعذيب بالعار . في هذه الدار . رب ان الجحيم لأهون
عليّ في العذاب والنكال . مما ألاقيه من الرزية في المال والعيال :

فليت وليدأ مات ساعة وضعه ولم يرتضع من أمه النفساء
(عيسى بن هشام) - ليست السكْنَى في (الاوتيل) اليوم عن ذل
وفقر . بل هي عن عز ويسر . فان النفقة فيه بضعة أيام تكفي لنفقة

شهر . على أكبر قصر . بجواريه وخدمه . وأتباعه وحشمه . وقد دعا أولادكم إلى ذلك ولوعهم بالحكام التقليد للجانب وإتقان الاقتداء بهم والسعي للنعيم من أولاد الأُمراء اليوم من يبيع عقاره ويرهن ضياعه لتيسر له الإقامة في هذا الخان ومنهم من يتعذر عليه مفارقة أهله فيؤتى له بالطعام من « الاوتيل » إلى البيت وعنده الطباخ في أسفله والجواري الطاهيات في أعلاه .

(الباشا البيطار) - أرجوك أن تصف لصاحبي مكان « الاوتيل » الذي يسكنه ذلك الغلام فإن بي حاجة إلى لقائه

(البيطار) - كيف تخاطبني أيها الأمير بلفظ الرجاء وأنا أنتظر في خدمتك أن تأمرني بما تشاء وهل تظن أني أفارق ركابك أو أزايل معيتك مهما تقلبت الأحوال وتبدلت الأزمان فإلم منك الأمر والاشارة وعلى السمع والطاعة

*
* *

قال عيسى بن هشام - ودعاني الباشا للسير معه . وهو يكفكف أدمعه . وتبعنا البيطار من خلفنا بخطاه الثقيلة . وعصاه الصقيلة . فقد صقلها طول التوكأ والاستعمال . وتعزى بهافي السير والانتقال . عن ظهور الخيل ومتون البغال . إلى أن وقفنا عند أحد القصور

الكبيرة . من الفنادق الشهيرة . فهال الباشا مارآه من ضخامة البناء .
ونخامة المنظر والرؤاء . وما لقيه من ادب الخدم والاعوان . ورشاقة
الوصفاء والعلماء . فتخيل اننا اخطأنا الابواب والمداخل . فدخلنا
بيتاً من بيوت الوكلاء ، أو القناصل . وتقدمت للسؤال والاستخبار .
وقد خلّنا البيطار في الانتظار . فدلّنا احد الخدم عن رقم المكان
الذي يسكنه الامير . بعد طول التردد والتفكير . فما وصلناه حتى
دفع الباشا بيديه دَفْنِي الباب . لم يلتفت لطلب اذن ولا لرجع جواب
فوجدنا امامنا جماعة من أولاد الامراء . وأعقاب الكبراء . مختلفين
في الجلوس . حاسرين عن الرؤوس . فقريق منهم عاكفون على
لعب القمار . وفريق ينظرون في صور خيل المضمار . ومنهم جماعة
قد استداروا بامرأة تصفّ لاعجوز شوهاء . ولا فتاة حسناء . تجنّب
الحسن بافراط التأنق والتفنن . في وجوه التصنع والتزين . فيكاد
يضيء وجهها بسنا العقود والقلائد . ويتلألأ جبينها بلائلاء الجواهر
والقرائد . وفي وسط المكان مائدة عليها صنوف الراح . في الاباريق
والاقداح . وبجانها منضدة . عليها آنية منضدة . وفوقها الدواة
والقرطاس . ویراعة مرصعة بالالماس . وكتب أعجمية موشاة بالذهب .
لا أدري ان كانت في اللهو أو في الادب . وعلى الارض أوراق أحكام

منشورة . وجرائد تحت الاقدام منشورة . لم يفضض عنها ظرف .
ولم يُقرأ منها حرف . وسمعتهم يتراطنون جميعاً بلغات أجنبية . دون
اللغة التركية أو العربية . الا ما كان من أسماء الخيول العربية . بعد
ان يبدلوا القاف . بالكاف . وينطقوا بالحاء . كالحاء . ولما رأونا
ظهر منهم العبوس والقطوب . وبداء عليهم انقباض الصدور والقلوب .
وانبرى من جانب المرأة شاب . فأسرع نحو الباب . نخطبنا بعبرة
فرنسوية . ولغة باريسية :

(الشاب) - كيف ساغ لكما الدخول بغير إذن

(عيسى بن هشام) - دعا الى ذلك شوقُ الوالد الى رؤية ذريته

(الشاب) - لست افهم لك كلاماً فصّرّح لى وبين

(عيسى بن هشام) - فلان يسأل عن فلان

(الشاب) - انى انا فلان ولكن من هو فلان الذى يسأل عنى

(عيسى بن هشام) - هو جدك الاكبر أحياء الله بعد مماته

وبعثه من رقادته وكان من أمره اتى كنت أزور المقابر ذات يوم

من الايام

(الشاب) مقاطعاً مستهزئاً - اذهب عنى فلست أسمع لهذا الكذب

والخراف وليس لى اليوم من جد ولا والد ولا أنا ممن يصدق بحديث

البعث في الآخرة فكيف يرجوع أنوثي الى الدنيا . تعالوا أيها الاخوان
فاعجبوا معي واضحكوا لما اسمعه من هذا الرجل الذي يخاطبني
وانظروا الى هذا « الباشبوزق » الغليظ الذي بجانبه فهو يدعى انه
من آبائي وأجدادي بعثه الله ليطلبني فيما أظن بما ورثته من الاموال
وينازعني في نظارة الاوقاف . فهل سمعتم بأعجب مما اصبحتنا فيه اليوم
لم يكتفِ الدهرُ بتكدير عيشنا وتعمير حياتنا بمطالبة ارباب الديون
حتى بعث الاموات من قبورهم ليطالبونا بموارثهم واموالهم ألا
ترونها ايها الخلائ انهما أبدع نكسة في أواخر القرن

قال عيسى بن هشام - فاستغرق الجميع عند ذلك ضحكاً واستلقوا
قهقهة وكلما سألتني الباشا عن مكان حفيده واستفهم مني عما يجري معي
من الكلام استمهلته لتمام الحديث حتى لا يقف على شيء مما يقال
ولا يحس بوقع تلك السهام والنبال . ولما انتهى الشبان من ضحكهم
نادوا بالخدام ليأمرؤهُ بطردنا وإخراجنا . وحانت في هذه الاثناء الفتاة
من الحفيد بين دوراته وحر كاته فلمح احد قرنائها واخوانه قد انزوى
بتلك الخليفة . التي هي عندهم كالخليفة . يلاعبها وتلاعبه . ويفازها
وتداعبه . فانقضَّ عليهما كالصقر الأجل فاستعَرَّ بينهم الجدال واشتد
الخصام والتفَّ حولهم الجمع وسمعت الحفيد يعتب والصاحب يعتذر

والمرأة تبكت وتؤنب وتقول لعاشقها : « ليس لك مثل هذه الجرأة في العتاب والملام ولا يأتي مآتيه من الحدة والتهور في الغيرة الآمن كان قائماً بحاجتي محبباً لرغبتى وقد طلبت منك بالامس ان تشتري لى ذلك العقد الذى حضر لتاجر الحلى من أوربا فى البريد الاخير فسوّفت وماطلت بعد أن أجبت ووعدت واعتذرت بالإعسار والضيق ثم بلغنى اليوم انك اشتريت فرساً جواداً بمبلغ عظيم من المال فكيف تقصر فى حاجتى مثل هذا التقصير وتبغى منى الاقتصار عليك والاختصاص بك دون بقية من يبذل ماله وروحه فى سبيل مرضاتى من اصحابك واخوانك »

ثم سمعت الحفيد يجاوبها والعرق يتساقط من جبينه والوجد يقطع انفاسه : « تالله ما اشتريت شيئاً ولكن بعت أشياء لا تشتري لك العقد بثمنها ولا يغرنك ما يقال لك عن ثروة هذا الصاحب الدنى الخائن وعن قلة أموالى ورهن أطيانى فانت تعلمين بمقدار الاموال التى ستأتينى من اكتساب القضايا المعلقة لى فى المحاكم كما ينبئك به المحامى فى كل حين »

وما سمع ذلك الصاحب سبه بهذين النعتين حتى اضطرب واضطرب .
وئارت به سورة الغضب . فتقدم فلغنه . وشتمه . ودفعه ولطمه .

فوعده الملعون الملطوم . بالمبارزة في يوم معلوم .

ثم علا هناك صياح أيضاً في مجلس القمار بين صديق وصديق .
أحدهما في يسر والآخر في ضيق . وأخ يبغي الاقتراض من أخيه .
ومفلس يطالب ميسراً بدين لا يؤديه . وانكشف الجدل كذلك
عن الضرب واللكم . وانتهى النزاع بالصفع واللطم

واشتبك خصام آخر في ركن المكان . بين أهل السبق والرهان .
هذا يقول فرسى سابق . وفرسك لاحق . وذلك يقول «ركبدارى»
حاذق وابن حاذق . وجوادك قصير وجوادى شاهر . وانت الآن
مقرئ معترف . بأن الوزن بينهما مخلف . واشتدت المنافسة والمنازرة .
وجرى بينهم حديث للمبارزة . كل هذا والمرأة تسحب من حقة
الى أخرى . نسحب الحية والأفعى . فتطفئ نار الجدل مرة على
حسب بغيته . وتشعلها طوراً لخبث نيتها

ورأيت الأجدد بنا أن نتركهم على هذه الحال فجذبت بضعب الباشا
وخرجنا من ذلك المكان وأسرعت به منحدراً الى الطريق فسألنى
عن تفصيل ما كان وجرى فزجمت له شرح الحال والمآل فاحتدم غيظه
واضطرم حنقه فلم يطفئه الا ما قلناه له في آخر الحديث من عزم
القوم على المبارزة فيما بينهم بالسلاح فقال وهو يتابع زفراته : لعل

لقدره تكشف عنى هذا المصاب . وترى المبارزة من الابناء
والاعقاب . فقلت فى نفسى ان ابناى كم لم يرثوا منكم اخلاقكم
كما ورثوا عنكم أموالكم وليس عندهم من الشهامة ما يدفعون به عن
الاعراض والاحساب . ولا من الشجاعة ما يؤنسهم بالطعان وبالضراب .
ولا يأنهون لكشف العار وأخذ الثار . والمبارزة عندهم كلمة تقال بالليل
وتعنى بالنهار

وتذكر الباشا فى طريقه شدة حاجته الى وفاء ما عليه من الاجر
للمحامي فالتفت الى البيطار يسأله :

(الباشا) - هل بقى أحد ممن كانوا حولى من الخلفاء والأقران
أهل النجدة والفتوة وأصحاب الهمة والروية

(البيطار) - لم يبقَ منهم إلا فلان وفلان وفلان

(الباشا) - أبدا بالذهاب معنا الى بيت الأول منهم فسرنا الى
حيث أشار والهموم تفرسنا . والغموم تخرسنا . والاكدار لا تفارقنا .
والاقدار لا توافقنا

*
* *

قال عيسى بن هشام - ومضينا نقصد أحد الثلاثة من قرناء
الباشا ورفقائه . وبقية أخلائه وأصدقائه . فأنهى بنا طول المسير

الى بيت ذلك الأمير . وكأنه ميدان في انساعه . وحصن في ارتفاعه .
ووقف بنا البيطار . عند باب الدار . فسلم على الخدم وحيّاهم . ثم
سألهم عن سيدهم ومولاهم . فأجابوه بالتجهم والعبوس . انه في قاعة
الجلوس . فخطونا في بجوحة الميدان . فرأينا في وسطه شجرة كثيفة
الاعصان . حتى قوامها تقادم الازمان . كأنها الشكلى حلت شعورها
في مأتم الاحزان . وفي ظلها فرس يحن من النشاط والمراح . وبجانبه
كباش ضأن للنطاح . وحولها ديك نزال وضراب . ظنايبها
مسنونة كالحراب :

فَحْمَرُ وَسُودِ حَالِكَاتُ كَأَنَّهَا سَوَامُ بَنِي السَّيِّدِ ازدهته القوائم
يُزَانُ لَدَيْهَا الطَّعْنُ فِي حَوْمَةِ الْوَغَى إِذَا زَيْنَتْ لِلْعَاجِزِينَ الهُزَامُ
وَفِيهَا إِذَا مَا ضَيَّعَ النِّكْسُ غَبْرَةً تُصَانُ بِهَا الْمُسْتَضْحَبَاتُ الْكِرَامُ
ثم وصلنا الى قاعة مشيدة البنيان . فسيحة الاركان . في أحد جوانبها
سلسبيل . يسيل ماؤه من أفواه التماثيل . والأرض مفروشة بالبسط
الفارسية . وبجلود الضواري الوحشية . والحيطان مستورة بأنواع
السلاح . من خناجر وسيوف ورماح . وفوقها عدة صفوف . من
الرفوف . تحمل الطرائف الكريمة . والأواني الصينية القديمة . مع
عيدان للتدخين . من أغصان الياسمين . نخلعنا نعالنا . وتقدمنا

أمامنا . فوجدنا الأمير ومن معه جلوساً متربعين منصتين مستمعين .
 يضىء في وجوههم نور الشيب والوقار . وتزدهيهم هيئة العزة
 والاستكبار . فائق قطع الحديث عند دخولنا . برّد سلامنا . ولكن
 مالبث أن انصل ما انقطع من الكلام . بعد رجوع التحية وردّ السلام .
 ولما استقر بنا المكان همستُ في أذن البيطار أن ينبئني بأسماء
 الحاضرين فقال لى : هذا المتصدر فيهم هو الأمير فلان رب الدار
 وهو رفيق مولانا الباشا في البت الكريم الخديوى وقد اعتزل
 الاعمال واعتكف في آخر عمره يتعبد ويتعبد ويسلك طريق
 النسك والزهد ويتقرب الى الله بدوام القيام والقعود . وطول القنوت
 والسجود وله أموال عريضة ينفق منها فيما ينفق على قعدة المشايخ
 وقوام أهل الطريقة وطوائف الآفاق من سكان الاماكن المقدسة
 رجاء ان يغفر الله له ما تقدم من الذنوب وأن يلحقه بالصالحين من
 أوليائه . وأما الذى عن يمينه فهو فلان باشا كان عضواً من الاعضاء
 الكرام فى مجلس الاحكام . والذى عن جانبه عالم من جلة العلماء
 الاعلام والمشايخ العظام . وأما الجالس عن شماله فهو فلان الفريق
 الجهادى المشهور فى الوقائع والفتوح . والذى بعده فلان من كبار
 المديرين السابقين . وأما الذى تراه فى اخريات المجلس فهو فلان

التاجر من تجار خان الخليلي

(قال عيسى بن هشام) - ولما وقفت من البيطار على معرفة ما عرفنيهِ نظرت الى الباشا فأدركت منه انه لا ينبغي المبادرة الى كشف أمره قبل انتهاء الحاضرين من حديثهم فأنصت مع المنصتين فاذا الفريق الجهادي يقول في اتصال حكايته وروايته :

(الفريق) - وكان « جنم كان » محمد على باشا الكبير معجزة دهره وآية عصره في الدِّهاء وعلو الهمة وبُعد النظر وإحكام عقدة التدبير واجتذاب القلوب وتربية النفوس على الوفاء والامانة لخدمته فكان له من الكُفأة مَنْ خدمه بالصدق وافتدوه بالارواح وأذكر منهم المرحوم « محمد بك لاظأوغلى » فهو الذي دبر له قطع دابر المماليك في ساعة واحدة . وقد حكى لى المرحوم أخى وكان حاضراً في تلك الواقعة الهائلة ان المماليك لما رأوا ان المكيدة في استئصالهم قد استحکم عقدها واشتد رباطها وأنهم أُحيط بهم من كل مكان تقدموا للبحث عن محمد على في كل حجرة وزاوية من زوايا القصر للفتك به والتخلص من شره فلم يقفوا له على أثر وأعياهم البحث والتنقيب لان « لاظأوغلى » أخفاه عنهم شديد الإخفاء وقام له في ذلك الوقت - ان جاز التشبيه والتمثيل - قيام

على بن أبي طالب مقام الرسول عليه السلام ليلة الهجرة وقد ورث
 المرحوم محمد على من ذلك الحين تلك الصيحة الزعجة التي لم تفارقه
 فيما بعد فكان يزأر في مجلسه بزأرة كزئير الاسود يتقطع من هولها
 نياط القلوب وقد مات بسببها رجل افرنجى من المصورين كان
 يقعد له المرحوم لرسم صورته وكان بعض الحجاب نبهة اليها لئلا يفرع
 منها فلم يستطعها مع ذلك لشدها وأدركه الهلاك لساعته . فأين مثل
 « لا ظأوغلى » لمثله من الولاة وأين مثل تلك الصيحة في مثله من الرجال
 (عضو الاحكام) - نعم وكان المرحوم « محمد على » فوق ما يقال
 وما يتصور في دقة سياسته لتربية الرجال في خدمته فكانوا كلهم طرازاً
 واحداً في حسن الولاء وجميل الاخلاص وربما كان يجذب الرجل
 منهم بكلمة واحدة تطبعه له على الصدق في خدمته طول حياته . ومن
 ذلك ما حكاه لى صديقنا المرحوم راغب باشا قال : « كنت اقرا بين
 يدي المغفور له أوراقاً وأنا يومئذ كاتبٌ من كتيبة معيته فدخل علينا
 سامى باشا في أثناء القراءة ووقف معنا فسأله محمد على عما يريد فتلعّم
 تلعّم المتطلع لخروجى حتى ينفرد به فيعرض عليه ما عنده . فقال له :
 قل ما عندك في الحال فاني لا أخفى عن « راغب » سرّاً من اسرارى
 ولا فرق عندي في المنزلة بين نسلى وذرتى وبين كتيبة معيتى »

فهل تعلمون يا قوم انه يقوم مقام هذه الكلمة في جلب النفوس وجذب القلوب الى النصيح والولاء في الخدمة إنعامٌ بضياغ أو احسان بأموال أو تقليدٌ لرتبة أو نشان . ولقد كان المرحوم راغب باشا كثيراً ما يقابل بين هذه الكلمة وبين ما كان يراه في خدمة الولاية من بعده مثل المرحوم اسماعيل باشا مثلاً فإنه كان يتركه وهو اذ ذاك ناظر المالية المصرية والاوراق بين يديه وينقل الى حجرة أخرى للنجوى مع سمسار أو بدال ويستمر « راغب » في الانتظار الساعة بعد الساعة واشغال الحكومة الضرورية في يده ينتظر بها انتهاء المناجاة . فكان اذا قاس هذه بتلك ذهبت هذه بالاحسان والإيعام وبقيت بجانب تلك توخز الصدر وتحز في الفؤاء . فانظروا الى ذلك الرجل العظيم كيف أتقن صناعة الألفة في تربية رجاله وما للملوك صناعة غيرها فاذا أتقنها أحدهم فاز بالتسلط على النفوس واحتكر مودات القلوب فيصفو له الملك ويطيب له الحكم

(الشيخ العالم) - أصبت وصدقت وقد اطلعت في التاريخ القديم على واحدة في هذا الباب للمنصور العباسي تدل على براعته ودقته في صناعة الملك وهي انه كان يأكل ذات يوم وبجانبه ابنه مع شيخ من قوادجيوشه ذهبت أسنانه لكبر سنه فكان يسقط من فمه بعض

الفتات وهو يأكل والاميران يتغامزان عليه فالتفت اليهما الخليفة
فأرى ما بينهما فمد يده فجمع ماسقط من ذلك الفتات فأكله فقام
القائد يقول له : لم يبق الا ديني أقدمه لك يا أمير المؤمنين فامرني
بما تريد

(المدير السابق) - وأنا أقص عليكم واحدة أخرى للمغفور له
محمد على تشهد بلطف سياسته وحسن عطفه على الاهالى وشقيقته على
الرعية وهى ان احد المديرين أراد ان يفوق اخوانه فى الخدمة لينال
مكانة عالية من أميره فجاء فى تحصيل الاموال وتعالى فى طريقته فأخذ
ما عند الاهالى من المال جملة واحدة فضج ضجيجهم واشتد صياحهم
حتى بلغ سامع ولى النعم فأمر باحضار المدير فلما وقف فى حضرته
قال له : ادن منى . فلما دنا منه اخذ بعنقه فى قبضة يده وصار ينزع
من رأسه شعرة ومن قفاه شعرة ومن عارضه شعرة ومن حاجبه
شعرة حتى جمع فى قبضته خصلة من الشعر والمدير لا يجد لذلك من
الألم الاثراً خفيفاً ثم ان الامير انتقل الى الحمة الرجل فانتزع منها
خصلة دفعة واحدة من جهة واحدة بمقدار تلك الخصلة المتفرقة فنبع
من تحتها الدم وصرخ المدير من شدة الألم فقال له محمد على « هكذا
تختلف المعاملة مع الرعية فى جباية الاموال اذا أنت أخذت من ههنا

درهماً ومن ههنا درهماً آناً بعد آناً خفّ الوقع على الأهل ولم يدركوا
الألم وتحصلت منهم على مثل المقدار الذي تأخذه جملة واحدة في وقت
واحد مع شدة الألم كما رأيت الفرق بين انتزاع الشعرات متفرقات
وبين انتزاعها مجتمعات والكمية واحدة والألم بينهما مختلف فأياك
ان تعامل الناس بعد اليوم بما يلجئهم الى الشكوى ويجرؤهم على الاستغاثة
وأعرف له واحدة أخرى في حسن الإجمال والإدماج وذلك
انه صدر أمره الى المرحوم « حسن باشا الأنجير كويلي » بتعيينه
حاكماً على السودان فامنع الرجل وظهر عجزه لجهله باللغة العربية
وقال : كيف يمكن لي ان أتولى امور قوم لا اعرف حرفاً واحداً
من لغتهم . فدعاه محمد علي وقال له : ليست معرفة اللغة مما تقضيه
ولاية الاحكام ولا هي أداة لازمة للحكم يحتل بفقدانها وما عليك
في منصبك هذا الا ان تتكفى بمعرفة كلمتين اثنتين من اللغة العربية
يجرى بهما لسانك وهما « فلوس » « كراباج »

ولو تأمل المرحوم حسن باشا هذا في ان محمد علي حاكم الامة
المصرية الدهر الطويل وفتح البلاد العربية ولم يكن ينطق بكلمة
عربية في حياته - فما منعه ذلك من تسديد الحكم وتشديد الملك -
لم يعتذر عن قبول المنصب بمثل هذا الاعتذار

ومن النواذر التي يُستشهد بها في هذا الباب ان محمد على أمر بأن يكون اهل العاصمة رديفاً عسكرياً ثم عين عليهم ضباطاً منهم بالرتب العسكرية فدخل عليه وفد من أولئك الضباط وكان الذي يترجم بينه وبينهم المرحوم صبحى باشا فقال لهم محمد على كلاماً يقتضى الاجابة بالشكر عليه فقال له متكلمهم : « نأشك يا افندينا » - وهى كلمة عامية منتشرة فى ذلك الزمن بين العامة يقولونها عند الاستحسان والاعجاب - فظهر الغضب على وجه محمد على لانه فهمها على اللفظ التركى : « نَهْ أَشَكْ » فأسرع صبحى باشا بتفسيرها له فاستلقى الامير على ظهره من شدة الضحك . فأى فائدة حينئذٍ من معرفة اللغة العربية اذا كان اهلها لا يجدون فى مخاطبة اميرهم غير هذه الالفاظ الساقطة السافلة . والذين تولوا زمام المصريين من الامراء والوزراء ولم يكونوا يعرفون لغتهم عدد ليس بالقليل (الشيخ العالم) منشداً :-

فلا تكثروا ذكر الزمان الذى مَضَى فذلك عصر قد تقضى وذا عَصْرُ
ورحم الله الماضى وأعاذنا من الحاضر وأجارنا من المستقبل . وانى
لأراكم ايها الامراء مهما أسهبت في محاسن المغفور له وأفضاله .
وأطببتم في حميد اخلاقه وخصاله . فليستم بالغبى حق الشكر . ولا

موفين بجميل الذكر . ويكفيه من الحسنات التي يغني ذكرها عن
الاجال والتفصيل . وتحكم له بالسبق في باب التميز والتفضيل . انه
كان يقرب العلماء ويعظمهم . ويدنيهم منه ويكرمهم . ثم يقضى
حاجاتهم . ويتبرك بدعواتهم . ولقد رأيت له رؤيا صالحة تحكم له في
أخراه . بأن له جانباً مع الله . وانه نال جزاء الاحسان . بسكنى
فراديس الجنان

قال عيسى بن هشام - وأقبل في أثناء هذا الحديث رجل من اهل
مكة المعروفين بالمطوريين أو المزورين فتقدم الى رب الدار فقبل يده
والى الشيخ العالم فلثم ذيله ثم وضع عن يده صرة فأخرج منها قطعة
من الحرير الأخضر وجزاً من التمر ومشطاً ومكحلة وسبحة وشيئا
من الحناء ثم قرأ الفاتحة وخاطب الامير بقوله :

(المكي) - قد جئتكم ايها الامير بالقطعة التي امرتني باحضارها
من الكسوة الشريفة وأتيتكم بجزء من تمر النخلة المباركة التي غرسها
الزهراء البتول بيدها الكريمة

(الامير للخدم) - على بالمعلم مسيحه الباشكاتب ومعه الكيس
لنعطي هذا المسافر جائزته

(وحضر المعلم مسيحه وودنا من الامير فلما بصر بتلك الهدية المباركة

بين يديه انكبَّ على وجهه يقبلها واحدة بعد واحدة ويقول للامير وهو يتبرك بها ويتيمن :

(المعلم مسيحه) - تالله ما أقنذ ابني من عماء الا هذا السكحل المبارك ولا شفى والدته من داء الرعدة الا هذه الحناء الطاهرة

(الشيخ العالم) - بعد ان ذاق التمر واستطابه - إيه إيه صدقت ايها الرجل ومن كان صائماً فأفطر على تمر المدينة كتبت له الجنة

قال عيسى بن هشام - فرأيت الباشا يتأفف بجاني ويزجر ويتململ ويتضجر ويهمّ بأن يتكلم فالتفت صاحب الدار عند ذلك الى البيطار يسأله عن شأن هذا المتأفف المتضجر . فتقدمت له بشرح القصة على الحاضرين وذكرت خروج الباشا من القبر ورجوعه إلى الدنيا فمنهم من صدّق ومنهم من كذب فتنحى الشيخ العالم وأشار فيهم بإشارة الاستماع ثم اندفع يقول :

(الشيخ العالم) - اعلموا انه ليس للمعجزات حد ولا للخوارق حصر ولا تنكروا على الرجل حياته بعد موته . فليس من حسن اليقين . ان ننكر بعث الدفين . والرجوع إلى الدنيا بعد الفناء . أمر معلوم بلا امتراء . تخص القدرة به من تشاء . ببركة الأصفياء والأولياء . وأقرب ما أستشهد لكم به على ذلك من كتاب « مناقب

تاج الأولياء وبرهان الأصفياء القطب الرباني والغوث الصمداني
السيد عبد القادر الكيلاني « ما أرويه لكم بحرفه ونصه :
« ذكر في رسالة حقيقة الحقائق ان امرأة غرق ولدها في
اليمّ وجاءت الى الغوث الأعظم وقالت : ان ولدى غرق في البحر
واعتقادي جازم بأنك تقدر على رد ولدى الى حيا . فقال لها رضى
الله عنه : ارجعى الى بيتك تجدى ولدك في بيتك . فراحت ولم
تجده . فجاءت ثانية وتضرعت فقال لها الغوث أيضاً : ارجعى الى
بيتك تجدى ولدك في بيتك . فراحت ولم تجده . فجاءت الثالثة بالبكاء
والتضرع فراقب الغوثُ وانحنى برأسه ثم رفع رأسه فقال لها :
ارجعى الى بيتك تجدى ولدك في البيت . فراحت ووجدت ولدها
في البيت فقال الغوث الأعظم بطريق المحبوبة : يارب لِمَ أخجلنى
مرتين عند تلك المرأة . فجاءه الخطاب من الملك الوهاب : ان
كلامك حين قلت لها كان صدقاً ففي المرة الأولى جمعت الملائكة
أجزاءه المتفرقة وفي المرة الثانية أحييته وفي الثالثة أخرجته من اليمّ
وأوصلته الى دارها . فقال الغوث : يارب خلقت الا كوان بأمر
« كن » ولم يسبق زمان ولا آن وفي وقت البعث تجمع أجزاءها
المتفرقة التي لا نهاية لها وتحشرهم في طرفة عين وجمع أجزاء جسد

واحد وإحياءه وبعثه إلى دارها شيء جزئى فما الحكمة فى هذا التأخير . فجاء الخطاب من الرب القدير : اطلب ما تطاب فقد أعطيناك عوضاً من انكسار قلبك فتضرع الغوث ووضع وجهه على التراب وقال : يارب أنا مخلوق فبقدر مخلوقيتى يليق بى الطلب وأنت خالق فبقدر عظمتك وخالقيتك يليق بك العطاء . فجاءه الخطاب كل من يراك يوم الجمعة يكون ولياً مقرباً وإذا نظرت إلى التراب يكون ذهباً . فقال : يارب ليس لى نفع من هذين أعطنى شيئاً أعظم منهما ويبقى بعدى لينفع فى الدارين . فجاء الخطاب من الله العزيز القدير : جعلت أسماءك مثل أسمائى فى الثواب والتأثير ومن قرأ اسماً من أسمائك فهو كمن قرأ اسماً من أسمائى »

وروى فيه أيضاً عن السيد الشيخ الكبير أبى العباس أحمد الرفاعى رضى الله عنه قال : توفى أحد خدام الغوث الاعظم وجاءت زوجته الى الغوث فتضرعت والتجأت وطلبت حياة زوجها فتوجه الغوث الى المراقبة فرأى فى عالم الباطن ان ملك الموت عليه السلام يصعد الى السماء ومعه الارواح المقبوضة فى ذلك اليوم فقال : يا ملك الموت قف وأعطنى روح خادمى فلان (وسماه باسمه) فقال ملك الموت : انى أقبض الارواح بأمر إلهى وأؤديها الى باب عظمتك كيف يمكنى

ان أعطيك روح الذى قبضته بأمر ربى . فكرر الغوث عليه إعطاء روح خادمه اليه فامتنع من إعطائه وفى يده ظرف مغنوى كهية الزنبل فيه الارواح المقبوضة فى ذلك اليوم فبقوة المحبوبة جرّ الزنبلَ وأخذه من يده فتفرقت الارواح ورجعت الى أبدانها . فناجى ملك الموت عليه السلام ربه وقال : يارب أنت أعلم بما جرى بينى وبين محبوبك ووليك عبد القادر فبقوة السلطنة والصولة أخذ منى ما قبضته من الارواح فى هذا اليوم . فخطبه الحق جل جلاله : يا ملك الموت ان الغوث الاعظم محبوبى ومطلوبى لم لا أعطيته روح خادمه وقد راحت الارواح الكثيرة من قبضتك بسبب روح واحد فتندم هذا الوقت «

قال عيسى بن هشام - وما انتهى الشيخ من روايته حتى رأيت الباشا قد انتفض قائماً يقول لهم والغضب بادٍ على وجهه والغيظ يتقد فى صدره :

(الباشا) - اعلموا أيها الاخوان ان مغفرة الرحمن وسكنى الجنان لا تُنال بكثرة الصوم وأكل التمر أو التبرك بالآ نار والتحصن بالآ ورا دوما نكتسب الدرجة الرفيعة عند الله الا بالعدل والاحسان وفعل الخير واجتناب الشر والرحمة بالضعفاء والمساكين من عباد

الله . وقد غرني في دنياي ما يفركم الآن فكنت أسمع قبل مماتي
من مثل هذا الشيخ العالم ما يهون عليّ ارتكاب الخزيات وفضائح
الشروع في معاملة الناس ارتكائاً على نهارٍ أصومه . وليل أقومه .
وحرزٍ أحمله . وأثرٍ أقبله . فنمتُ عن عمل الخير وغفلت عن بذل
المعروف فلما توفاني القدير العليم وسكنت في حفرة القبر علمت مالم
أكن اعلم فلم يغنني ذلك وحده من الله شيئاً . وما خفف عليّ
أهوال القبر وهون عليّ سؤال الملك الا حسنة واحدة كنت أتيتها
في إغاثة مظلوم استجارني فأجرته وهو في يد الجلاد بين السيف
والنطع . فعليكم بالعدل والاحسان وتقوى الله في عباده وإفشاء
البر والمعروف في خلقه ولا تطيعوا النفس الا مارة بالسوء فتركنوا
الى الاغترار بالامل . وتطلبوا المغفرة بلا عمل . بل استكثروا من
الخير قبل حلول الاجل . وتذكروا قول الله الأجل : « وَمَنْ
يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ » وأنظّوا بقول عليّ رضي الله عنه :
« كم من صائم ليس له من صيامه الا الجوع والظمأ وكم من قائم
ليس له من قيامه الا السهر والعناء » . واسمعوا القول حكيم الشعراء :
ما الخير صومٌ يذوب الصائمون له ولا صلاة ولا صوفٌ على الجسد
وانما هو ترك الشر مطرَحاً ونفضاك الصدر من غلٍّ ومن حسدٍ

(الشيخ العالم) - انى لآ خالك أيها الرجل شيطاناً فى زى انسان وزديتقا يتستبر بدعوى النشور من القبور . تعمساً لهذا الزمن ما أكثر أضاليله وبؤساً له ما أعظم أباطيله ولم يبق علينا من مذكرات عجائبه الا ان يخرج الميت من قبره فيخبرنا بما رأى فيه وبما سمع (صاحب الدار للبasha) - سألتك بالله ان تخبرنى بأية لغة كان سؤال المسكين لك أبا لعربية أم التركية أم السريانية فان هناك اخلافا وأقوالاً بين العلماء

(الشيخ العالم) ناشدتكم الله ان تقصروا عن هذا الرجل ولا تخاطبوه فانه فتنة من فتن إبليس اللعين ونعوذ بالله من الشيطان الرجيم قال عيسى بن هشام - فلم يسمع البasha الا الخروج من هذا المجلس وهو يهدر ويغلى ويستعيد ويستعدى فانخرط وراءه وأنا اذكر قول عمر رضى الله عنه فى مثل هذا الشيخ الغليظ البدن « ان الله يبغيض الحَبَرَ السمين » وأردّد قول أبى تراب كرم الله وجهه « أشكو الى الله من معشر يعيشون جهالاً ويموتون ضلّالاً ليس فيهم سلعة أبور من كتاب الله اذا تلى حق تلاوته ولا سلعة أنفق بيعاً ومثماً من الكتاب اذا حرّف عن مواضعه ولا عندهم أنكر من المعروف ولا أعرف من المنكر »

ولحق بنا البيطار في خروجنا ومعه التاجر الذي كان مقيماً في المجلس
ينادياً نأفوقفنا لهما فتقدم التاجر الى الباشا ومال على يده يقبلها ويقول له:
(التاجر) - أشهد الله أيها المولى اننى مصدق بأمرك وليس بعد
العيان من برهان وما أخطئ نظرى فيك فأنت سيدى الباشا بعينه
وأنت صاحب اليد التى أذكرها طول عمرى . وما منى من نعمة فمنك
وما أصبحت فيه من ثروة فيؤمنك وفضلك ولست أنسى ان اصل
شهرتى واساع تجارتى هو انك جلست فى دكانى مرة عند ما عثرت
بك رجلك وانت تقصد زيارة الحسين فارتفع تلك الجلسة قدرى واشهر
ذكرى وأقبل على الناس من دون التجار لتوهمهم فى انى برحابتك
صلة وبجنايتك نسبة فأصبحتُ والله الحمد فى غنى متسع ومال كثير وقد
بلغنى من أحمد أغاهذا ما أنت فيه من الحاجة الى الدراهم لأجرة المحامى
التي جاءت بك الى هذا المجلس ولكنك أنفت من ذكرها عند ما غضبت
لله . وأنا اتضرع اليك بخالق الخلق ان تتنازل فتقبل منى ما تسد
به حاجتك وتخلص به من مطالبة المحامين

(وأخرج التاجر كيساً مملواً فقدمه الى الباشا وهو يرتعد من خيفة
الرد فأخذه الباشا وقال له) :

(الباشا) - انى اشكرك جميل الشكر لحسن صنيعك وأسأل الله

لك حسن الجزاء فلهم اكتب لك صكاً بالمال لأردّه إليك عند استرداد أوقافى

(التاجر) - حاشا لله ان أكون من أهل هذا الزمن الذين أصبحوا لا يثقون ببعضهم بعضاً فلا يأمن الأخ أخاه ولا الوالد ولده ولا الصاحب صاحبه ولا الجار جاره على درهم واحد الا بمقود وصكوك بل أنا لا ازال من أهل ذلك الزمن الذى لم يكن يتعامل التجار فيه بينهم بغير الثقة والاعتماد دون احتياج الى تحرير الاوراق وسطير الصكوك . وما يكون الاستيثاق الا عند توهم الخيانة والعياذ بالله

قال عيسى بن هشام - فكرر الباشا شكره للتاجر مضاعفاً وقال لى : انصرف بنا الى المحامى نستنقذ رقابنا من أسره ثم نذهب الى المحكمة الشرعية للمطالبة بالوقف . فقلت له لا بد لنا من محام شرعى يطالب لنا بحقنا . فمأنخرج من قبضة محام . الا الى قبضة محام . ونسأل الله السلامة فى الختام



قال عيسى بن هشام - وأخذت طريقى . مع رفيقى . أنشد صاحباً أسترشده . فى محام شرعى أقصده . . وبيننا نحن نسير . ونسأل الله التيسير . اذا بصاحب لى عرفته . فاستوقفته . قال ماخطبك قلت

قضية . فى المحكمة الشرعية . فماترق الخبر سمعه حتى أجرى دمه .
وهو ل الامر وهو ل . وحوقل وحوقل . ثم قال لقد وقعت
قبلك فى هذا البلاء . ولما تم لى النقاهاة من الداء . وأنا أنصح لك
ان كنت مدعياً ان تترك دعواك . وتصبر على بلواك . أما ان كانت
الدعوى عليك . فليس الخيار اليك . ولا مرد لىكم القضاء . بتدبير
الآراء . فقلت للضرورة أحكام . فأرشدنى لانتخاب محام . يكون
مشهوراً بعدالته . مشهوراً بطهارته . بعيداً عن خلف الوعد . بريئاً
من خلق الوعد . لا يتفق مع الخصم . ولا يسرق من « الرسم » . قال
اطلب من أنواع المحال . أن يحمل الذر الجبال . ولا تطلب فى محام
اجتماع هذه الشروط . فينتهى بك الأمر الى اليأس والقنوط .
ولمحاولة الارتقاء . فوق متن العنقاء . أيسر من ذلك مطلباً . وأوسع
مذهباً . والمحامون الشرعيون — حماك الله — يستوون لى الاختيار .
كأسنان المشط وأسنان الحمار . بل هم جميعاً كحمارى العبادى قيل
له أى حماريك شر قال هذا هم هذا . وأقسم لك بخالص الود . أنى
لا أثق منهم بأحد . وكيف تكلفنى أن اتقى لك ذنباً من الذناب .
وأحمل على كاهلى عبء اللوم والعتاب . فأعفى من هذا الاختيار
والانتقاء . عافاك الله من جميع الأسواء . ثم ما لبث ان خلقتى

ومضى . وتركنى على مثل جمر الغضى . فسرت كئيبا حزينا . أبغى
سواه مرشدا ومعينا . ولما لم أجد من أصحابي مَنْ يأخذ على عهده .
اختيارَ محام يوثق بدمته . قصدت أحد المعلومين عندى بكثرة
الخصومات . وطول المحاكمات . فكاشفته بطلبتنا . ليكشف من مصيبتنا .
فقال اعلم ان المحاميين الشرعيين أجناس وصنوف . فمنهم المبصر ومنهم
المكفوف . وفيهم - كذب الله لك السلامة - . صاحب
« الطربوش » وصاحب العمامة . وانا أدلك على أهونهم شرًّا . وأقلهم
ضرًّا . وأخفهم رزيةً وبليّة . وأكثرهم علماً بالحيل الشرعية .
فعلينا بفلان وبيته معلوم . فى منتهى « حارة الروم » - فقصدنا
البيت نشقّ طرقاً معوجة . ونحترق ثيابَ مزدوجة . الى ان انتهينا
الى باب دار . كأنها مطلية بالقار . سُورَتْ بأكوامٍ من الاقدار .
وتلفعت بتلالٍ من الأوضار . ورأينا عند مدخل الباب . صبيّةً
يلعبون بالتراب . ومن بينهم طفلة تجمّع على وجهها من الذباب . مثل
البرقع تنقبت به قبل أوان النقب . ولما نخطينا غشيتنا راحة المرحاض .
فاستندنا هناك على هضبة أنقاض . بجانبها مذودٌ أتان . تراحمها عليه
إوزنان وبطّان . ثم إهتدينا الى حجرة فى جهة اليمين فرأينا أمامها
فراشا ينادى : « العجيين » « والاجرة » . فسألناه عن رب الدار

فأشار الى الحجرة . فدخلنا فوجدنا فيها حصيراً تغطى بالغبار والحصباء .
ومتكئاً تعرى من الفرش والغطاء . وفي زاوية من زوايا الاركان .
سراج لا ينفذ نوره من كاثف الدخان . وفي أعلى رفوف الرواق .
أحمال كتب وأوراق . قام لها لسيج العناكب مقام الوقاية والتجليد .
والصقها الرطوبة فحفظتها من التوزيع والنديد . وفوق الارض
زجاجات مطروحة من المداد . وفي ساض الحائط لسويد وتخطط
من لعب الاولاد . وبصرنا برجل :

لَعَبَرُ حَنَّاوُهُ شَنَّهُ فَمِلْ غَرَّ الظَّهَرِ لَمَّا انْحَى

ووجدناه جالساً على سجادة الصلاة . وعن يساره امرأة كأنها
السعلاة . فسمعناه يقول لها في سديحه : « أتسكتين - أدر الله
عليك خيرَه . وأبدلك زوجاً غير د . - ما أخذته منك لاستنباط
الحيلة في التفريق . واسنخرج الحكم بالنظيف . فأبعدت عك زوجاً
تكرهينه . لتبدلي منه زوجاً تحبينه » . ثم انه اسحس بدخولناه من
ورائه . فارتد الى اتصال تسبيحه ودعائه . وانتفضت المرأة فتنبت
بخمارها . ونلقت بإزارها . وخرجت وتركنا مع رجل يخذل
الانام بطول صلاته . ويتلو سورة الأنعام في ركعاته :

اِذَا رَأَى كَيْدًا بِالصَّلَاةِ مُقِيمُهَا فَتَارَكُهَا عَمْدًا إِلَى اللَّهِ أَقْرَبُ

وجلسنا مدة فننظر خلاصه من هذا الرياء . و خلاصَ الماكين
من صحيفته السوداء . و خلاصاً من هذا الكرب والعناء . فاذا هو
قد وصل المغرب بالعشاء . وكنا لشاهد منه في خلال ذلك نظراتٍ
مختلّسات نحو الباب . كأنه هو أيضاً في انتظار وارتقاب . الى ان
دخل علينا غلامٌ يصيح به : الى متى هذه العبادة . فقد بلّيت السجادة .
وحاجب الناس موكولة المك . وقضاء مصالحهم موقوف عليك .
وهذا دوله الترس ينظرك في الفصر . مند العصر . دَعْ مدير
الاقواف . ونقيب الاشراف . « فلم بعباً المصلّي بهذا الكلام . بل
جهر بالآية من سورة الانعام : « قُلْ إِنْ صَلَّيْتُ وَاسْكَيْ وَخَيَّ
وَمَمَّنِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَأَشْرِبَكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ
المسلمين » . فجلس غلام التسخ وهو بمسح العرق . واشتدّ بنا
الضجر والقوى . فقلنا من يضمن لهذه الصلاة انتهاء . ولهذا التسبيح
اقضاء . وهمّنا بالقيام . فالتفت الشيخ للغلام . وأشبعه من التأنيب
والملام . ثم حمّانا بالطف سلام . وقال بارك الله فيكم وعليكم . وانا
في الخدمة بين يديكم . فقلنا علمنا أنك رجل عدل عَف . فجنّاك
لقضية في وقف . فقال الغلام أطلبون ريعه . أم تريدون بيعه .
فقلت سبحان الله وهل تباع الاوقاف . قال نعم ويباع جبل قاف .

ثم تنخح الشبخ وسعل . وبصق وتقل . ونسعط . ثم تمخّط .
واقرب منا ودنا . ثم قال لنا :

(المحامى) - دعونا من هذا الغلام وقولا لى ما هو الحق فى الوقف وما
هو شرط الواقف وكم يقدر ثمن العين لتقدّر « قيمة الاتعاب » بحسبه
(عيسى بن هشام) - ان لصاحبى هذا وقفاً عاقته عنه العوائق
فوضع سواه عليه يده ويريد رفع الدعوى لرفع تلك اليد

(المحامى) - سألتك ماهى قيمة العين

(عيسى بن هشام) - لست أدرى على التحقيق ولكنها تبلغ الألوف

(المحامى) - لا يمكن ان يقلّ مقدّم الاتعاب حينئذ عن المئات

(عيسى بن هشام) - لا تشطط أيها الشيخ فى قيمة الاتعاب

وارفق بنا فاننا الآن فى حالة عسر تقضى عليك بذلك

(الغلام) - وهل ينفع فى رفع الدعوى اعتذار با عسار ألم نعلم

ان هذا شغل له « اشترى كات » وللاكتبة والمحضرين « تطلعات »

واننى لكما بمثل مولانا الشيخ يضمن ربح الدعوى وكسب القضية

بما يهون معه دفع كل ما يطلبه فى قيمة أتعابه وهل يوجد مثله أبداً

فى سعة العلم بالحيل الشرعية ولطف الحيلة فى استمالة محامى الخصم

واستجلاب عناية القضاة

(عيسى بن هشام) - هذا والله كل ما يمكننا دفعه الآن من الدراهم ونكتب بما يبقى صكاً لحين كسب القضية وليس يفوتك شئ من ذلك مادام ربهما مضموناً لديك على كل حال

(الحامى) بعد ان استلم الدراهم يعدّها - أنا أقبل منك هذا العدد القليل الآن ابتغاء ما ادّخره الله لعباده من الأجر والثواب في خدمة المسلمين . وعليك بشاهدين للتوكيل

(عيسى بن هشام) - وبأية طريقة يكون التوكيل

(الحامى) - يجب عليك ان تستحضر شاهدين يشهدان أمام المحكمة بأن فلاناً بن فلان بن فلان وكّل فلاناً بن فلان بن فلان في المرافعات والمدافعات والمحاضرات والمصالحات والقبض والاستلام والتسليم وفي المطالبة والدفع والاقرار وفي كل ما يصح فيه التوكيل شرعاً وفي أن يوكل عنه في الدعوى غيره وان يعزله وان يفعل ذلك مراراً وتكراراً كلما بدا له فعله المرة بعد المرة والكورة بعد الكورة « وأنا أنتظر حضوركما غداً مع الشاهدين ومستند الوقف

(عيسى بن هشام) - لس لدينا الآن إلاّ شاهد واحد يعرف

أصل الباشا ونسبه

(غلام الحامى) - هذه أول خطوة في تكاليف القضية ومشاقها

ولعلك تعرف قيمتها ونحن نجد لك بتيسير الله من يعرف أصل الباشا ونسبه ويشهده بين يدي الحق

(عيسى بن هشام) - وليس في يدنا أيضا مستند للوقوف (المحامى) - أما من جهة المستند فينبغي استخراج صورة من السجل « المصان » (كذا) وهذه خطوة ثانية في متاعب القضية قال عيسى بن هشام - وعند ذلك قطع الشيخ المحامى كلامه معنا واستقبل القبلة بوجهه وقام لصلاة العشاء فقمنا للانصراف. وسرت مع صاحبي وأنا غريق في الافكار أتدبر وأعتبر وأعجب مما رأيت من سكون الباشا وسكوته وحسن احتماله وصبره بعد ان كان شديد الحدة سريع الغضب يرى القتل واجبا لأدنى هفوة وأقل سبب فأصبح بفضل وقوعه في هذه الخطوب المتتالية والرزايال المتتابعة لين العريكة واسع الصدر موطأ الكنف كثير الاحتمال حتى انه لم يأنف ولم يتأفف من كل ما رأيناه في يومنا هذا بل كانت حالته حالة الفيلسوف الحكيم الذي يجعل دأبه البحث والتأمل في أخلاق الناس أثناء التعامل معهم وازددت يقينا بأنه لا شيء أسرع في تهذيب النفوس وتربيتها على التخلق بالاخلاق الفاضلة مثل ممارسة الخطوب ومصارعة النوائب وأن أسوأ الناس أخلاقاً وأنكدم عيشاً هم هؤلاء

الاغمار المنعمون المترفون الذين لم يأخذوا العيش عن تجارب الحدثان ولم تهذبهم صروف الازمان . ولم يزدني الباشا في كلامه أثناء الطريق على ان قال :

(الباشا) - قلتَ لى ان المحامين الشرعيين فيهم صاحب الطربوش وصاحب العمامة فهل تراهم جميعاً على هذا النمط الذى شاهدناه أم يوجد بين الفريقين فرق

(عيسى بن هشام) - اعلم أن الخيرة فى الواقع والحمد لله على كل حال فان فيهم تحت « الطربوش » . من هو أشد فتكاً من ضوارى الوحوش . وأعرف طربوشاً منهم أقسم أمامى بالطلاق ثلاثاً من زوجته ومن كل زوجة يتزوج بها فى حياته على إنكار كلام نطق به فى مجلس كنتُ حاضرهُ إرضاءً لأحد أرباب القضايا وإغضاباً لخالق البرايا واستهانةً بحكم الشارع واعتماداً على قول الشاعر :

وإنَّ أَحلَّفوني بِالطَّلَاقِ أَتَنَّتْهُ على خَيْرِ ما كُنَّا ولم تَتَفَرَّقِ
وإنَّ أَحلَّفوني بِالْعَتَاقِ فَقَدَدَرَى عُبيدُ غلامى أَنَّهُ غيرُ مُعْتَقِ

قال عيسى بن هشام - ومضت علينا الايام ونحن نقصد الشيخ الحامى فى كل يوم فلا نتمكن من لقائه فان ذهبنا اليه فى البيت قيل لنا انه فى المحكمة وان ذهبنا الى المحكمة قيل لنا انه فى القصر الفلانى أو القصر

الفلاّنى من قصور الامراء والكبراء حتى حفيت الاقدام ومللنا الاصطبار فاخترنا ان نربط له أمام بيته عند الثلث الاخير من الليل فنصطاده عند خروجه وقعدنا بعيداً عن الباب حتى خرج علينا راكباً أتانه فتقدمت اليه فقال لى أرجو المسامحة فى هذا التأخير فالذنب فيه لكثرة مشاكل الامراء ودعاويهم فتقبلنا عذره وتوجهنا معه الى المحكمة فذهب بنا « الى كاتب الشهادات » فوجدناه جالساً يلعب فى ثيابه من حمرة الحذاء فى رجله وزرقة الجبة على كتفه وصفرة الحزام فى خصره وبياض العمامة فوق رأسه

تعددت ألوانه كأنه قوس قزح

وكان الشيخ المحامى قد تركنا مع الغلام والشاهد الذى اخبره لنا فنظر الكاتب الى الشاهد نظرة المتوقف وقال انه شاب صغير السن وانه وانه . . . فقال عليه غلام المحامى وألقى فى أذنه بعض القول فقام معنا من فوره الى قاضى الجلسة لسماع الشهادات بعد ان قال لنا الغلام: وهذه الخطوة الثالثة فى تكاليف القضية . ثم انتهى الاشهاد بحمد الله وحسن العناية بنا فى مسافة يوم واحد . وقال لنا الغلام عند الانصراف: يجب بعد هذا ان تقدم عريضة لحضرة القاضى بطلب الكشف من الدفترخانة عن الوقفية فى السجل وأن نوضح فيها نمرة الوقفية وتاريخها

وَمِنْ عملية مَنْ هِيَ (يعنى اسم الكاتب الذى كتبها فى زمانها) نخرجنا
نبحث على احمد أغا البيطار لعله يعرف طريقة توصلنا الى مطلوبنا فعثرنا
عليه وأعلمناه بغرضنا فقال ان عندى ورقة فيها نمرة الوقفية كنت
تحصلت عليها بطرق مختلفة بعد الجهد الجهيد والزمن المديد لاثبات
حقى فى ربيع الوقف . ثم ذهب الى بيته وعاد إلينا بالورقة فوجدناها
قاصرة على ذكر النمرة والتاريخ ولم يذكر فيها اسم الكاتب الذى عمل
« العملية » فقصدنا غلام المحامى وتوجهنا معه الى المحكمة فكتبنا
العريضة وقدمناها لحضرة القاضى فوضع عليها اشارة لحضرة الباشا كاتب
ليتحرى عن مسألة « الشأن » وطلبوا منا شهوداً يشترط فيهم ان يكونوا
من أهل جيل الباشا ليثبتوا شخصيته ويشهدوا بأنه صاحب الوقف
وأن سواه وضع يده عليه فأدر كتنا الحيرة فى الامر فتكفل لنا
الغلام باستحضار أولئك الشهود أيضاً بعد ان قال لنا : وهذه الخطوة
الرابعة فى تكاليف القضية . ولما نظر الباشا كاتب فى العريضة ووجد أنها
لم تبين فيها اسم الكاتب صاحب « العملية » قال لنا انه لا يمكن الاهتداء
فى الدفترخانة بدون ذلك وانه لا بد لنا من انتظار السنين والاعوام
حتى يمكن العثور على صورة الوقفية فى السجل بالنمرة والتاريخ
وحدهما . فعاودتنا الحيرة فقال لنا الغلام : لا تحزننا فأنا أساعد على

سرعة الانجاز وأتوجه معكما الى الدفتر خانة ان شاء الله . وهذه هي الخطوة الخامسة في تكاليف القضية . وما يزال الخبيث يعدُّ لنا الخطوات . ونعدُّ له في كل خطوة دُرهمات . ونحن نسأل الله ان ينفذنا مما اصابنا من حكم الدهر . وأن يعجِّل بانقضاء القضية قبل انقضاء العمر

*
* *

قال عيسى بن هشام - وعكفنا زمنا نشند في الطلب . والمحامي يشتد منا في الهرب . فلما طال علينا الالم في ارياده . ويئسنا من لحاقه واصطياده . انتقلنا للبحث عن غلامه . حتى قبضنا على زمامه . فرأينا الخبيث يصعب في الامور والاحوال . لنسترضيه بالعطاء والنوال . وقال لنا أقول لكم الحق والحق أقول . انه ليس من المتصور المعقول . ان نهتدي في هذه القضية . الى صورة الوقفية . بمجرد تاريخها أو اسم صاحبها . دون الوقوف على اسم محررها وكاتبها . ولا يجوز في الخواطر والأوهام . ان يعثر عليها كاتب السجل بين تلك الآكام . من غير وحي أو إلهام . إلا بعد كثر السنين ومرّ الاعوام . وان اعتراكم بعض الشك أو الريب . ولم تصدّقاني بظهر الغيب . فهلما معي أطلعكما على ما يزول معه اللبس . وتقتنع به النفس . فقيدناه بقيود الترغيب والتأميل . وأعطيناه ما يحضرنا من كثيرٍ وقليل . فانطلق أماننا يثب ويحجل . حتى دخلنا

بيت السجل . فلما جاوزنا الباب . حيث يجلس الكتاب . ألفينا
خشباً مسندة . على خُشْب موطدة . وهياكل تفترش الفرا . فوق
الثرى . لا تميز منهم وجه انسان من انسان . لعشوة البصر من ظلمة
المكان . فتذكر الباشا عند ذلك ظلام الرمس . وكرر راجعاً ينتظرنا
في ضوء الشمس . ثم مال الغلام الى اذن أحدهم يكلمه . بما لا أعيه
ولا أفهمه . فبادر الرجل بالهوض والقيام . وسار بالـغلام وأنا في
عقب الغلام . فما خطونا بضع خطوات حتى حيل بيننا وبين ضوء
النهار . وتجللنا من حندس الليل بحجبٍ وأستار . فوقفت لا أبصر
ولا أهتدى . فأخذ الغلام يدي . وقد عميت على وجوه المسالك .
في هذه المخاوف والمهالك . وسرت فوق أرض تهش تحت القدم
وتلين . كأنها مفروشة بالهشيم تلبد في الطين . ومازلنا نمشي في أنحاء
تلك المظمورة . على هذه الصورة . حتى تخيلت أننى فى قبور قدماء
المصريين . أو فى هياكل الاسرار بمعابد الرومانيين . أو فى طريق
الامتحان عند أحرار البنائين . فوجب القلب . من شدة الرعب .
خشية أجبولة نُصبت . أو مكيدة رُتبت . ووجهت . ثم أحجمت .
وقلت للغلام ليس بيننا ما يوجب للاحتيال . أو يدعو للاغتبال .
وماذا تريد منى فى هذا الغيب . وليس معى من فضة ولا ذهب .

ولا من شيء يُستلب أو يُنتهب . فقرقه الفاجر ثم أقسم بالله وثني بالطلاق . أنا نسير في أمان بين غرائر الدفاتر ولقائف الاوراق . وقال كن آمناً مطمئناً على نفسك . وسترى الحقيقة بعيني رأسك . وما كاد الشقي يتم لي هذه العبارة . حتى عثرت قدمي في لفافة فوقعت على غرارة . واذا بصائح يصيح من تحتها متبرماً متأقفا . ويقول لي متعطر ساء متعجرفاً : ما هذه العشاوة يا عديم الابصار . ونحن لا نزال في أدبم النهار . فقمتم متشاقلاً متسانداً . وقلت في نفسي منشداً :

دُجِيَتْ تَشَابُهُ الْأَشْيَاءِ فِيهِ فَيَجْهَلُ جَنْسَهَا حَتَّى يَصِيحَا
ثم تأملت فإذا أنا بخيال ينفض الغبار عن رأسه ولحيته . بذيل مئزره أوجبته . فتولاني الخوف والوجل . وقلت من الرجل . فقال الغلام كاتب من كتبة «السجلات» . ينبش عن اوراق في سجل «الايولات» فقلت وكيف يهتدي لذلك . وسط الظلام الحالك . فقال أولئك قوم اعتادوا العمل مع احتجاب الضياء . فصاروا كالحفّاش يبصرون في سواد الظلماء :

ولو سار كلُّ الْوَرَى هَكَذَا لَمَّا حَسَدَ الْعُمَى مَنْ يُبْصِرُونَ
ثم انعطفنا . من ذات اليمين الى شبه قاعة . يلوح فيها من الضوء مثل

جناح يراعة . واذا هو لُعابُ الشمس يسيل من ثُقب . في سَقف ذلك
 الجُب . وهو يتموج بأنواع الجراثيم . تموجُج الماء بالهشيم . نفلتُ أن
 عجز الفلك الدوّار . - أريدُ بها شمسَ النهار . خشيتُ أن تضل
 في ظلمة هذه المفازة . فاتخذت لها من لُعابها عكازة . تتوكأ عليها
 للاهتداء . وتدب بها في هذا العماء . فمسحتُ على بصرى . وأحدقتُ
 بنظري . فأبصرت وماذا أبصرت . ونظرت وماذا نظرت :

ما إن سمعتُ ولا أرا نى سامعاً أبداً بصحراء عليها بابُ
 نعم رأيتُ فضاءً متسعاً ترا كم فيه من الاوراق الريثقة والدفاتر
 البالية . مثلُ الرُبى الشاهقة والأَكَماتِ العالية . غير أن هذه تشر
 وتُجنى . وتلك تعثّ وتبلى . هذه تكون مخضرةً مخضبة . إن جادها
 الحيّا أينعتُ بالغضّ من النبات . وتلك سوداء مجدبة . ان بللتها
 الرطوبة اهتزت باليابس من الحشرات :

فالأرضُ تبسطُ في خدّ الثرى ورقاً كما تُنشرُ في حافاتها البُسُطُ
 والريحُ تبعثُ أنفاساً مُعطرّةً مثلَ العبيرِ بماءِ الوردِ مُختلطُ
 وهذه بسطت فوق الثرى ورقاً لكنه للبللى والعثّ منبسطُ
 وريحها تورثُ الأَسقامَ ناشقها كأنه من تراب القبر يستعطُ
 وما لبثتُ أن استبان لى شخص الكاتب المرافق لنا . في لمحّة

ذلك السنّا . فاذا هو قصير القامة . كبير العمامة . ذو وجهٍ مقنعٍ
بالاصفرار . وعينٍ مكتحلة بالاحمرار . وقد طوى من خلفه الجبة .
ورفعها على ظهره كالجعبة . وفي حزامه دواة من نحاس أصفر . وبين
طيّات العمامة أوراق بالتواريخ « والنمر » . فاستعدت بالله من
الشیطان الرجیم . وقلت لذلك الغلام اللئیم :

(عیدی بن هشام) - هلمّ بنا أيها المراءوغ الى الباب لنعود الى ضياء
الحياة فقد يئست من أمرنا . وأنتى لهذا الكاتب أن يهتدى للبحث
في هذا اللّج القامس . واللیل الدامس

(غلام المحامی) - لا تنكرنّ على مثله الاهتداء في دياجی الظلماء
ولا يهولنك تشتت الدفاتر وتراكم الاوراق فهي مرتبة في حافظته
ترتيباً انطبع فيها من طريق الوراثة عن أبيه وعن جده فلا تخفى
عليه مواقعها كما يتوارث رؤساء « البوغاز » في الاسكندرية هداية
السفن عند دخولها بما علموه عن آبائهم من مواقع الارض في قاع
البحر . ولو كان معنا اسم الكاتب لسهل البحث ولوصلنا الى
الغرض

(الشیخ الكاتب) - نعم لا تنكرنّ علينا بارك الله فيك اهتداء نا
للبحث في هذه الأوراق . والله يعلم ان هذه الدفترخانة مرسومة

في ذهني منذ الصغر على أحسن ترتيب وتبويب فهي مقسمة الى عدة سجلات منها «سجل الباب العالى» تسجل فيه الاعيان المباعة غير الموروثة . ومنها «سجل القسمة العسكرية» تسجل فيه الاعيان المباعة الموروثة . ومنها «سجل الابلولات» تسجل فيه الاعيان المحصورة من تركة تخصص أو تباع بالمزاد . ومنها «سجل الاعلامات» تسجل فيه المواد التى تصدر فيها أحكام من المحاكم الشرعية من أى نوع كان . ومنها «سجل التقارير» تسجل فيه تقارير النظار وفقاً وغيره . ومنها «سجل الوقفيات» وتسجل فيه نفس الوقفيات ويدخل فيه التوكيلات والوصايا والتصادق (عيسى بن هشام) - سبحان الفاتح الوهاب . ومن يهدينى الى طريق الباب

(الشيخ الكاتب) - . . . ومنها «سجل الديوان العالى» تسجل فيه فرمانات المتعلقة بتولية القناصل وعزلهم والاعلامات الصادرة من مجلس استئناف مصر فى الهيئة التى يحضرها القاضى الشرعى أو النائب عنه مع جملة من كبار العلماء من المذاهب . ومنها «سجل القسمة العربية» تسجل فيه الأعيان الموروثة المختصة بالذميين (عيسى بن هشام) - اللهم ارفع عنا الأذى والمقت . وهلم فقد

ضاق بنا الوقت

(الشيخ الكاتب) . مسترسلاً - . . . ومنها «سجل اسقاط القرى»
يسجل فيه ما يأخذه الامراء ويعطونه من الاطيان والقرى . وليس
يخفى انه كان في مدينة مصر محاكم شرعية سياسية وكانت السيطرة
عليها للقاضي من قبل السلطان وكان لكل واحدة سجل تسجل
فيه جميع الانواع (وقد حفظت تلك السجلات كلها بهذه الدفترخانة)
وكانت مراكزها في جهات «باب الشعرية» و «قناطر السباع»
و «جامع طولون» و «جامع قيسون»

(عيسى بن هشام) - يكفي أيها الشيخ فقد وجب الرحيل .
ولا حاجة بنا الى هذا التطويل والتفصيل

(الشيخ الكاتب) معدداً - . . . وفي جهات «درب سعادة»
و «باب الخرق» و «الصالحية» و «النجمية» و «أحمد الزاهد»
و «البرشمية» و «مصر القديمة» و «بولاق» و «جامع الصالح»
و «جامع الحاكم»

(عيسى بن هشام) - تبارك من له الاسماء الحسنى . ومن يعيدني
الى الحياة الدنيا

(الشيخ الكاتب) - . . . ثم «محكمة الباب العالي» وهي المحكمة

الكبرى وقاضيا هو المسيطر على الجميع المولّى من القسطنطينية .
و « محكمة القسمة العسكرية » وقاضيا يعين كل سنة من دار السعادة
كقاضي المحكمة الكبرى ويسمى « القسام » وشغله المواريث
بأنواعها فقط و

(عيسى بن هشام للغلام) - لقد ملّ سمعى . وضاق ذرعى . فاخرج
بنا وأتقذنى من شر هذه الدار . ومن ثروة هذا الشيخ المهدار
(الغلام) - لا تضجر ولا تقنط وأنظرنى قليلاً حتى أسنير برأى
الشيخ لعلنا نجد عنده حلاً للعقدة وفرجاً للكربة . (ثم مال على
الشيخ منفرداً به فسمعته يقول له) :

(الغلام) - مثلك لا يعجز عن استخراج الوقفية بدون الوقوف
على اسم كاتبها وأنت لا تأبى الربح والكسب انا جميعاً وأصحاب
القضية من كبراء الناس أهل السماحة والكرم

(الشيخ الكاتب) - مهلاً فقد كدت أذكرك اسم كاتب الوقفية
على ذكر السماحة والبذل فان لكتابتها حكاية مشهورة فى الجود
والعطاء منذ ذلك العصر ولا يزال للخلع التى خلعت على كاتبها بقايا
الى اليوم عند أهله وذريته وهو المرحوم الشيخ فلان فدونك
وأصحاب القضية فاتفق معهم لوضع هذا الاسم فى ورقة النمرة والتاريخ

وجئني بها نافعةً تشفع لنا أجمعين والله ينفعنا بنفع المسلمين
(الغلام لعيسى بن هشام) - قد تيسرت الحال بإذن الله ووصلنا
الى معرفة اسم الكاتب الذى تُستخرج به الصورة . والرأى لك فى
هذه الخطوة السادسة

قال عيسى بن هشام - ثم اطلق الغلام أمامى يسجبنى وراءى حتى
خرجنا بحسن صنع الله من الظلمات الى النور فجهرت عيني وسدرت
فلم أبصر فى الشمس عند الباب الا بعد التردد مراراً بينها وبين
الظلام . ولما التقيتُ بالبasha فى الموضع الذى كان ينتظرنى به سألتنى
عن طول هذا الغياب فلم أرد ان أضيف الى مصائبه مصيبة أخرى
بوصف ما كنت فيه بل كستمته إياه وأخبرته بتيسير الحاجة . ثم
اتفقنا مع الغلام على ان يباشر وضع اسم الكاتب فى الورقة ويعود
بها فى اليوم الثانى الى الشيخ الكاتب ليأتينا بصورة الوقفية بعد أن
نقدناه ما نقدناه

ثم دارت بعد ذلك علينا الايام ومضت الشهور ونحن نتردد على الدفترخانة
تارة فى صحبة الغلام وتارة بدونه الى أن حل الأجل وآان الأوان فجاءنا
الغلام ذات يوم يبشرنا بالوقوف على الوقفية ففرحنا فرح الغواص
بدرّة التاج . تحت تلاطم الامواج . ونهضنا معه الى الدفترخانة

فراينا الشيخ الكاتب عند الباب يتيه إعجاباً بمهارته في الاهتداء
 عليها مع قصر الوقت ويحمد الله على حسن الطالع وسعود الجد
 فحمدناه على همته العالية وصنعه الجميل فأخرج من تحت إبطه أوراقاً
 بالية متخرقة متآكلة لا تستوى منها ورقة مع أختها فيها سطور متقطعة
 وخطوط متوزعة لا يستطيع ان يحلها الا من كان عريقاً في كشف
 الرموز وفك الطلاسم . فقلت له ان الاهتداء الى نقل صورة مفهومة
 من هذه الاوراق لا عظم مشقة وأدهى بلية من الاهتداء على موضعها
 من تلك الصحراء المظلمة . فقال لي ان كثرة التعود تيسر العسير
 وتهون الصعب وقد ورثت عن المرحوم والدي أيضاً قراءة هذه
 الخطوط وتلفيق مارت من أواخر السطور والعبارة واحدة لا تغير
 تقريباً في كل باب من أبواب السجلات . ورأيت يستعد ليسترسل
 في أبواب الشرح والوصف وخفت ان تشتد به نوبة الهذر والاكثار
 فودعناه وانصرفنا وكلفنا غلام الحامي ان يأتي لنا بالصورة من عنده
 بعد انتهائها فطلب منا ان ندفع رسمها وان نأتي بشاهدين يشهدان
 علينا باستلامها ووعدنا بأنه ينوب عنا في اجتلابهما بعد ان طالبنا
 بالمكافأة الواسعة . على هذه الخطوة السابعة

قال عيسى بن هشام - ولما صارت في يدنا الصورة . بعد تلك المواقف المذكورة . خطأ غلامنا الثامنة من خطواته . في بعض روحاته الى المحكمة وغدوانه . فذهب الى كاتب « الطلبات » . لتحديد إحدى الجلسات . ثم عاد فبشرنا بأن الكاتب اتفق مع الرئيس . على ان تكون الجلسة في يوم الخميس . وأنه حرر « طلباً » لحضور الخصوم . في الوقت المعلوم . فأقننا أياماً نعلل النفس بالأمل . حتى حلّ هذا الأجل . وسمح لنا الطالع بطلمعة الشيخ المحامي ولقائه . بعد طول احتجابه عنا واختفائه . ورضى ان يتوجه معنا الى المحكمة . ليكشف عنا بيمينه كل مظلمة . فسرنا جميعاً نقصد بيت القضاء الشرعيّ . والحكم المرضيّ . والعدل المقضيّ . بوحي الآله وسنة النبيّ . حيث تقام منابر الهدى . وتشاد منائر التقى . وينبجج نور الحقيقة والعدالة . وتنكشف ظلمة البدعة والضلالة . ويؤخذ من الظالم للمظلوم . ويُنتصف من الحاكم للمحكوم . ويُسار على الصراط السويّ . في الحكم بين الضعيف والقوىّ . - حيث تتحد المواقف والاقدام . وتستقيم الاوامر والاحكام . وتغدو فيه الشكلى ربة الأيتام . أعزّ من الفارس رب الرمح والحسام . ويصبح الأغزل الشاكي . أقوى من المدجج الشاكي . ويتساوى لديه رب الشؤينة والبعير . برب

التاج والسريـر . — نعم حيث يكون المقعد الموروث . عن النبي
المبعوث . وحيث يُعمل بالسنة وآى الكتاب . فيُنْتَصَر للذليل
على العزيز . ويُتَدَى فيه تارة بسيرة عمر بن الخطاب . وأخرى
بسيرة عمر بن عبد العزيز . وحيث يكون مقر المهابة والجلال .
ومصدر الوقار والكمال . وموضع الطهارة والامانة . ومنبع العفة
والصيانة . وقبلة القنوت والخشوع . ومقام الطاعة والخضوع
ولما وصلنا الى هذه المحكمة وجدنا ساحتها مزدحمة بالمركبات .
تجرها الجياد الصاهلات . وبجانبها الراقصات من البغال والحمير .
عليها سُرُجُ الفضة والحريـر . فحسبناها مراكب للعظماء والأمرء .
فى بعض مواكب الزينة والبهاء . وسألا لِمَنْ هذى الركاب . فقيل
لنا انها لجماعة الكتّاب . فقلنا سبحان الملك الوهاب . ومن يرزق
بغير حساب . ونحوّنا نحو الباب . فى تلك الرحاب . فوجدنا عليه
شيخاً حَتَّ ظهره السنون . فتخطّته رُسُلُ المنون . قد اجتمع عليه العمه
والصم . ولجّ به الخرفُ والسقم . وعلّمنا أنه حارسُ بيت القضاء . من
نوازل القضاء . ثم صعدنا فى السلم فوجدناه مزدجماً بجملة أناس . مختلفى
الاشكال والاجناس . يتسابقون ويتشائمون . ويتلاكمون ويتلاطمون .
ويبرقون ويرعدون . ويتهددون ويتوعدون . وأكثرهم آخذٌ بعضهم

بتلايب بعض . يتصادمون بالحيطان ويتساقطون على الارض . ومازلنا
نزاحم على الصعود في الدَرَج . والعمائمُ تتساقط فوقنا وتدحرج . حتى
من الله علينا بالفرج . ويسر لنا المخرج . في وسط هذا الجمع المتلاصق .
والمأزق المتضايق . ووصلنا الى القاعة السفلى . فوجدنا مدها امرأة حبلى .
تقلب على الارض كالثعبان . وتستشهد بالأهل والجيران . أن بعلمها .
أنكر حملها . وحاولنا ان نخطو خطوة الى الأمام . فلم نستطع من شدة
الزحام . وكيف بالتقدم في عباب موج ملتطم . ومنحدر سيل مرتطم .
من نساء صائحات مولولات . ونائحات ممولات . ونادبات باكيات .
. وصارخات شاكيات . كأنهن قائمات في مأثم على مدافن الاموات .
تقرحت فيه العيون وبُحت الاصوات . فيهن المسفرة والمتقنعة .
والمضطجعة والمتربعة . والحاسرة عن الذراع والرأس . وأختها تقليها
في وهج الشمس . ومنهن الكاشفة عن ثدييها . ترضع طفلاً على يديها .
وغيرها ترضع طفلين في حذاء . وزوجها يضرب رأسها بالحذاء . وأخرى
آخذة بصفيرة ضررتها . ورضيعها يتلف على ضررتها . ومن يبن من
يتقدمها طليقها . ويتبعها عشيقها تشيع الاول باللعن والسباب .
وتغمز الثاني بكف مزدانة بالخضاب . ورأينا العقيلة المخدرة مه
« الأغا » . لا يستطيع ان يحميها في حومة هذا الوغى . وشاهدنا في

الجمع جماعة من جفار الخلعاء . وتباع النساء . يغازلون كل غانية هيفاء .
ويغامزون كل غادة غيداء . ويتعرضون لفض النزاع . بين ذوات
القناع . وفصل العناد والشقاق . بين الطاعنات بالاحداق . فتختلط
غمزات الطرف . بهمزات الكف . فيزول ما هنالك من الجمدال
والخصام . ويصيرون جميعاً الى الحسنى والرقيق من الكلام . ورأينا
فيما رأينا من غرائب البشاعة . وعجائب الشناعة . رجلاً وامراًء
يتسايقان في ألفاظ الفحش والهجر . ويتباذآن في أقوال البذاءة
والنكر . وهما يتجاذبان في أيديهما غلاماً . كأنما يحاولان له اقتساماً .
ليأخذ كل منهما من أعضائه بنصيب . والغلام يبكي من شدة
الالم والتعذيب . فاستعدنا بالله السميع العليم . من موقف هذا الجحيم .
وسمعنا من أفظع ما سمعنا امرأة تنتحب وتقول . ونقابها بماء العين
مطلول : - لو كان للنساء قضاة من النساء . لما وصلنا الى هذه الحالة
التعساء . فان الرجال يميلون لجنس الرجال . وينتصرون لبعضهم على
ذوات الحجال . فاستعنا برب المثاني . وصعدنا في السلم الثاني .
فاذا هو كالأول يتموج بالناس كبيوت النمل . أو خلايا النحل .
وانتهينا منه الى قاعة . ممتلئة بصنوف الباعة . هذا يصيح « الخبز
والخبز » . وذاك ينادى « الدخان والبن » . وآخر يقول « الزبدة

والعسل . . وبعضهم يردد « القول والبصل » . وبائع الضأن يفتت بسكينه جماجم الرؤوس . والثَّالِج يصفق باكواز « العرقسوس » . وهناك قهوة يدب فيها الشهود بالعشرات . كديب الحشرات . فيعرضون أنفسهم على الخصوم . للشهادة أو التزكية بأجر معلوم . وغلمانُ المحامين يروحون بين الجموع ويغدون . فيمكرون بهم ويكيدون . ويتقلبون بين الخصوم ويحتالون . فيخدعون ويغتالون . ودخلنا حجرة صغيرة من حُجُرَات الكتاب . فثار في وجهنا ما على أطباق الباعة من جيش الذباب . فرجعنا على الأعقاب . ونجونا من الأوصاب . ثم انحدرنا مع غلام المحامى الى حجرة كبيرة الساحة . فقال اجلسوا هنا للاستراحة . فأجلسنا فى صدر المكان . بين الكتبة والغلمان . ولا بد لكل كاتب هناك من غلام . يقوم مقامه فى تنسيق الاحكام . فسمعت الكاتب الجالس عن اليمين . يقسم على أقواله بكل يمين . بأنه لولا اعتراض مركبات الكهرباء وضيق الميدان . لما تأخر حماره عن حمار فلان . وسمعت صاحبه بجانبه . يحلف بجدّه وأعرّ أقاربه . انه لولا حبسه للعنان . لسبق كل الحمير فى يوم الرهان . ويقول له وهو يتلفف فى العباء : « قد بلغنا عن الأجداد والآباء . انه اذا صحَّت الشعرةُ الحضرء . لم يتعلق

بذيل الحمار الهواء . ثم التفت ذات الشمال فوجدت كاتباً منهم
غض الشباب . عظيم التألق في لبس الثياب . فهو يتلأأ ويتألق .
في سندس وإستبرق . كأنما خاطو الهقباء من أزهار بستان . مختلفة
الاشكال والالوان . يفعم الأنوف بعطره . ويعبق الجو بنشره .
وأمامه رجل في يده صرة ثياب ينشرها ويطويها . فيأخذها «السيد»
منه ويرميها . ويقول له في حدته . وشده سوزته :

(السيد) - هذه ثياب لا أرضاها ولا أقبها . وبئس المفصل

مفصلها

(الخياط) - كيف ترى ذلك أيها السيد وأنا أقسم لك بالقرآن
المجيد . أنها أوسع من ثياب السيدين عبد العزيز وعبد الحميد
(السيد) - كذبت ورب الكعبة فان استدارة السكم ضيقة والرقبة
لا تنطبق على الزى الحاضر

(الخياط) - وماذا أصنع وذلك كل ما في عرض الحرير ولو كنا
على الزى القديم لدخل مع السيد في طي ثيابه . اثنان أو ثلاثة من
أصحابه

(أحد أصحاب الفضايا) - صبح الله السيد بالخير والإل نعم
(أحد الكتبة الظرفاء) منكناً - لا بل بالخيل والأل نعم

(صاحب القضية) - أرجو سيدى أن يعطينى الاعلام

(السيد) - اذهب حتى يأتى الغلام

(السكران الظريف) مورياً - عليك به فى شارع أم الغلام . تجده

جانساً نصاً تحت الاعلام

قال عيسى بن هشام - وعافت نفسى هذه النكت الباردة والمعانى
الساقطة فأعرضت عن الاصغاء . وسرحت طرفى فى بقية الانحاء .
فرايت الكتبة كلهم يتفكهون ويتسامرون . هذا يُلْتُ فى يده
أفيونه . وذاك يكوّر بين أصابعه معجونه . والغلمان يشتغلون
تارة بأوراقهم . وطوراً يتباحثون فى أذواقهم . وأرباب الحاجات
بين أيديهم يقاسون سوء الرد . ومطل الوعد . وسمعت أحد
الكتبة يخاطب صاحب قضية . بالفاظ بذية . ويقول له : كيف
تعطى الغلام هذا المبلغ الزهيد . أتظنه كان لك من العبيد . أتريد
أن يكتب لك ويتعب . وهو لا أجره له فى المحكمة ولا مرتب .
بغير ربح ولا مكسب . ان هذا لمن أعجب العجب » . وجاء رسول
القاضى يطلب أحد الكتبة الرؤساء . فوجده راقداً كالنفساء .
فبعضهم أشار بتنبيهه من غفلته . وقال بعضهم لا بل اتركوه فى

رَفْدَتِهِ . أُنْسِيَتِمْ حَكْمَ عَادَتِهِ . بَأَنَّهُ لَا يَفِيْقُ مِنْ غَفْوَتِهِ . قَبْلَ أَنْ يَسِيْلَ
الْأَفْيُوْنَ مَعَ الدَّمِ فِي دَوْرَتِهِ . ثَمَّ اتَّفَقَ مَعَهُمُ الرَّسُولُ . عَلَى أَنْ يَرْجِعَ فَيَقُوْلُ
: أَنِّي لَمْ أَجِدْ الشَّيْخَ مَكَانَهُ . وَعَلِمْتُ أَنَّهُ نَزَلَ إِلَى الدَّقْرِخَانَةِ » . ثَمَّ
اسْتَيْقِظَ الرَّاقِدُ بَعْدَ مَدَّةٍ فَتَنَاءَبَ وَتَطَطَّى . ثَمَّ تَدَثَّرَ وَتَغَطَّى . ثَمَّ عَادَ
إِلَى مَا كَانَ فِيهِ مِنَ السَّبَاتِ . وَهُوَ يَنْشُدُ لِلْمَعْرَى مِنْ أَيْاتٍ :
وَفَضِيْلَةُ النُّوْمِ الْخُرُوجُ بِأَهْلِهِ عَنْ عَالَمٍ هُوَ بِالْأَذَى مَحْبُولُ
ثُمَّ جَاءَهُ بِائِعٌ كَتَبَ وَأَوْرَاقَ . فَصَاحَ بِهِ حَتَّى أَفَاقَ . وَقَامَ بَعُوْنَ
إِلَهِهُ وَحَوْلَهُ . يَخَاطِبُ الْبَائِعَ بِقَوْلِهِ :

(الْكَاتِبُ) - هَلْ أَحْضَرْتَ مَا طَلَبْتَهُ مِنَ الْكُتُبِ

(الْبَائِعُ) - نَعَمْ جِئْتُكَ بِكُتُبٍ قَدِيْمَةٍ . لَا تَقْدَرُ لَهَا قِيَمَةٌ . مِنْهَا
كِتَابُ « حَلِّ الرَّمُوزِ » . لَفَتْحِ الْكِنُوزِ » . وَمِنْهَا « أَصُوْلُ
الْمِرَاسِمِ » . فِي فَكِّ الطَّلَاسِمِ » . وَمِنْهَا « حَسَنُ ارْشَادِ النَّاسِ » . فِي
اسْتِخْرَاجِ الذَّهَبِ مِنَ النِّحَاسِ » وَمِنْهَا « الْقُوْلُ الْمَأْثُوْرُ » . فِي تَأْثِيْرِ
الْبُخُوْرِ » وَمِنْهَا

(الْكَاتِبُ) أَلَمْ تَعَثِّرْ لِي عَلَى كِتَابٍ فِي « الْاسْتِحْضَارِ »

(الْبَائِعُ) - نَعَمْ مَعِيَ كِتَابَانِ أَحَدُهُمَا « قَلَائِدُ اللَّوْلُؤِ وَالْمَرْجَانِ » . فِي
اسْتِحْضَارِ الْإِلَهِ . وَالْآخَرُ « خَيْرُ الْمَوَاقِفِ » . لِرُؤْيَةِ الْغَفَارِيْتِ »

(الكاتب) - بارك الله فيك وجزاك خيراً فان عندي نسخة
 محرّفة من هذا الكتاب الاخير فاصحبني الى البيت لنقابلهاء ونصحها
 قال عيسى بن هشام - وقام هذا الكاتب مع البائع . وأقت
 أسخط على هذا الجهل الشائع . والعمل الضائع . وبيننا انا كذلك اذ
 أشار علينا غلام المحامى بالقيام فقد قرب أوانُ الجلسة لقضيتنا فخر جنا
 فوقفنا عند باب الحجرة التي تنعقد فيها الجلسة فرأينا الزحام خارجها
 وداخلها على أشد حالاته وسمعنا الحالج ينادى تارة بصوت عالٍ
 وتارة بصوت منخفض فسألت الغلام عن ذلك فقال انه يُخفض
 الصوت حتى لا يسمع أرباب الدعاوى النداء فتسقط القضية وهو
 من باب الشفقة والحنو بالمدعى عليه وفوق ذلك فان للحجّاب ان
 يُدخلوا الجلسة من أرادوا ويحجبوا عنها من أرادوا . ثم نودى علينا
 فدخلنا مع شهود المعرفة الذين استحضروهم الغلام لنا فوجدنا الجلسة
 مؤلفة من ثلاثة أعضاء ورئسهم وهم جلوس كل واحد منهم بمغزل
 عن الآخر وقد تعسر على ان أفهم كلام الباشا وهو بجاني يخاطبني
 لشدة الضوضاء وعلو الاصوات . ثم دخل كاتب الجلسة يرقص في
 مشيته . وكأنه الطاووس في هيئته . فجلس ووقفت عنده بحيث
 أبصر ما يسطره فوجدته قد تناول القلم بأطراف بانه يضعه في

لدواة تارة ويضعه في أذنه أخرى ثم يلهو بتفقد ثيابه ويستغل بلمس الإبر التي تتشبك بها العمامة ثم ابتدأوا في سماع القضية وتقدم الباشا مع الشهود فلم أسمع شيئاً مما قالوه أو قيل لهم لكثرة الجلبة والصياح وانما رأيت الكاتب يكتب في دفتر الضبط - وكأنما يكتب من عنده - ما أنقله بحرفه وهو :

«استحضر أمام الجلسة المدعى والمحامى والشهود فتقدم المدعى وعرف أنه فلان بن فلان بن فلان وسمى شاهدى معرفته وهما فلان بن فلان بن فلان وفلان بن فلان بن فلان الساكنان بالجهة القلائية شياخة فلان بن فلان بن فلان وشهد كل منهما على انفراده بأنه يعرف المدعى المذكور وأشار اليه بيده وهو فلان بن فلان بن فلان المذكور ثم قال المدعى المذكور ان لى قبل فلان بن فلان بن فلان دعوى نظر على وقف ومعى مستند دعواى والمدعى عليه لم يحضر مع استلامه علم الطلب المحدد له فيه الحضور فى هذه الجلسة » ثم أمرت المحكمة بانصرافنا للمداولة والنظر فى المستند فوقفنا ناحية من الحجرة ننتظر مع من ينتظر ثم نودى علينا بعد برهة فقالوا لنا ان المحكمة تعلمنا بمضمون المادة ٧٢ من اللائحة وهى تقضى - على ما اخبرنا به المحامى - بالاعذار الى المدعى عليه وقال لا بد أن

نطلب ذلك من المحكمة لانه لايسوغ لها ان تعذر الأ بناء على طلب المحامي فقدمنا الطلب . فتقرر إصدار الإ عذار . والله يكفيك شر ما في هذه الدار . من الأ قضية والاقدار . وكثرة الهموم والا كدار

* *

قال عيسى بن هشام - ودخلنا لا أدخل الله عليك طوارق النقم . ولا أخرجك من طرائق النعم . - في دَوْر الإ نذار يتبعه الإ نذار . والإ عذار يتلوه الإ عذار . ومندوبُ المحكمة يعود إلينا بالخيبة . في كل أوبة . زاعماً ان خدم الخصم لا يقابلونه إلا بالازدراء . كغيرهم من خَوَل أبناء الأمراء . حتى وصلنا الى حد الإ عذار الأخير . ورمينا المندوبَ بالإ همال والتقصير . فرأينا ان نخبر خبره . ونقتني أثره . ونتحقق بأنفسنا كيف يتسع الذرع . للاستخفاف برسول الشرع . فسرنا وراء المندوب ومعه الشاهدان . يشهدان بأنه أعذر فلاناً بن فلان بن فلان . وقد أمسك الواحد منهم بكشف الآخر . على هيئة تستفز كل هازيء وساخر . وكلُّ منهم يخذ الأرض بجذائه . ثم يعنى الأثر بفضل رداءه . وهم ينتقلون في المشى من الذميل الى الرسيم الى الوخيد . كأنهم مسرعون الى جفنة تريد . ونحن من خلفهم نخب ونهرول ونحسبل ونحوقل . الى ان كادوا يغيبون

عن البصر . وكدنا نفقد منهم الأثر . لولا أن عثر أحدهم بقضبان
الكهرباء . فطاحت العمامةُ وانفلت الحذاء . فانقتل يلتمسها ويلتمسه .
فلم يرعه إلا السائق وجرسه . فالتحرك ولا انتقل . حتى أدركته
العجل . وكاد يداس ويُقضى عليه . لولا أن جذبته رفيقه إليه .
خيل بين الرجل وبين عمامته ونعله . ووقف مخبولا لا برأسه
ولا برجله . وهو يستنجد لهما ويستغيث فلا يغاث . حتى مررت
عليهما المركبات الثلاث . فأدركناه وهو ممتقع اللون من اليأس
والوجل . فبشرناهُ بسلامتهما فاعتم واتعل . وحمد الله على هذا
اللطف في القضاء . وحمدناه على ما أتيح من التعويق والاياء .
اذ تمكنا من اللحاق بهم . وقد رنا على استئناف السير في عقبهم
وقد انتهى السير بنا الى قصر في سرّة بستان . يزرى في الحسن
بقصور بغداد وغمدان . وقد ترصع البستان بأنواع الازاهر . كأنه
مُحلى بصنوف اليواقيت والجواهر . والقصر في وسطها كأنه الدرة
البيضاء . أو البدر بين نجوم السماء :

كأنه جيد وبستانه من حوله عقدٌ بديع النظام

وما عساي أقول في وصف روض . قد نسجته يد الارض

لتزدان به يوم عيدها ويوم زينتها . وغنمته رداء لها تختال به في

حسن رونقها وبهجتها:

مُوزَّرة من صنعةِ الوبل والنَّدَى بوشى ولاوشى وعَصْبٍ ولا عَصْبٍ
قد أغنى الغواني نسيمه العليل . عن المسك الأذفر . وكفاها
ريحه البليل . تطرَّها بالطيب والعنبر:

بفرسٍ كأبكار الجوارى وتربةٍ كأن ثراها ماءً وردٍ على مسكٍ
ومنى العرائس أن لو اتخذت من نوار الازهار . فصوصاً للخواتم .
ومن اكمام الاشجار . معاقدةً للتمائم . وودُّها ان لو تأزرت من
سندس ارضه بأبهى إزارٍ ومِرْط . وتحلَّت من جوهر نباته بأزهى
شَنَفٍ وقُرْط :

إذا ما النَّدَى وافاهُ صبحاً تمايلتُ أعالیه من درّ نثیر وجوهی
إذا قابَلَتْهُ الشمسُ رَدَّ ضیاءها علیها صقالُ الأخوان المنور
وقامت فيه مشمراتُ الاغصان قیام الكواعب الأتراب .
ساقیات بالأباریق والأكواب . ساكباتٍ سؤرَ الطل من تلك
الاقداح . مائساتٍ من رحيق الندى ومداعبة الرياح :

شقائقُ یحملنَ النَّدَى فكانهُ دموعُ التَّصابی فی خدود الخرائد
فما تخيلنا فی هذا الروض مذ رأیناه الا اننا فی حفلة عرس . جمعت
أسباب اللهو وأطراف الأنس . قد نصب الدَّجنُ علیها سرادقه .

ومدّ ملتفُ النبات فيها نمارقه . وأشرقت في الاغصان الأنوار .
 إشراق المصابيح بالانوار . وقامت الاطيار على الأعواد . تتسابق
 في الترنم والانشاد . فهي تغرّد بألحانٍ يقطع السامع لها جبل-
 النفس . ويأنس إليها مستنفرُ الوحش المفترس :
 رأت زهرًا غصًّا فهاجت بمنزهرٍ مثانيه أحشاء لطفن وأوصالُ
 وللنسيم بين الشجر نغماتٌ بالهفيف والحفيف . من ثقل في
 الضرب أو خفيف . تصفق لها أكفُ الاوراق . وتقوم الأفنانُ
 للرقص على ساق . مترنحة الأعطاف من خمر الندى . مهتزة القدود
 بغمز الصبا . تبسم عن أقاح نضيد . يزرى بثنايا الغيد . ثم تميل
 برشيق القوام . فتلتقط ما ينقطها به الغمام . والجدولُ يجري تحت
 أذيالها ويتعثر . ويلسب الماء في ظلالها ويتكسر . كأن حصباءه
 اللؤلؤ والمرجان . في نحور الحسان . أو قلائد العقيان في أجياد القيان :
 ترُوعُ حصاة حالية العذارى فتلمس جانب العقد النظيم
 ولما ملئنا من هذه الجنة طربا . وقضينا عجبا . قلنا ماشاء الله
 لا قوة الا بالله . ما أعجز الخلق عن شكر نعماءه . واذا بقوم عند
 باب القصر . كأنهم أفراخ في مخاب صقر . تعلو وجوههم قترّة .
 ترهقها غيرة . وهم بين بالكٍ ومتحجب . وصارخٍ ومصطخب .

فتفرستُ في هيئاتهم . وهم يذكرون حاجاتهم . فاذا هم جميعاً في يأس
وقنوط . وخيبة وحبوط . واذا الصيرفيُّ يقول . بصوت المقهور
المخذول:

(الصيرفي) - تمسألي لقد ضاع مالي . وذهبت آمالي
(التاجر) - وبؤساً لي لو كنت أعلم بهذا المال . لم أقع في
تلك الحبال

(البائع) - يا ويح نفسي اغتررت بالمقام العالي . فخرت رزق عيالي
(الجوهرى) - ويل لمن خدعته الظواهر . فضاعت عليه الجواهر
(الصيدلانى) - أقسمت لا يضيع عنده ثمن الدواء . ولو تعلق
بأطراف السماء

(الحمار) - سقياً له من محتالٍ مالٍ على دَنِيٍّ . ثم اختفى عن عيني
(القصاب) - انا لا يضيع عنده حقى . ولو وضعوا السكين على حلقى
(الخياط) - وانالا أترك هذا الباب . حتى أمزق ما عليه من الثياب
(الإسكاف) - ورأسِ أبيه وجدّه . لا آخذنّ ثمن الأَحذية
من جلده

(الحلاق) - أنا ابن جَلّ وطلاءِ الثنايا . وكم لصنعتي من منافع ومزايا .
وليتنى كنت شوّهت خلقته . ومسخت سمحته . فتفتتُ شاربهُ .

وحلقت حاجبه . تالله لا خذنّ بناصيتي هذا الثقيل البارد . ولا أسدنّ عليه المصادر والموارد . ولا ألزمنّه صباح مساء . ولو حلقت في الهواء كل هذا والخدم يكتمون وجود صاحب الدار . ويقسمون انه لم يبق لديه درهم ولا دينار . واذا همّ احدُ الغرّماء بالدخول منعه . أو دافعهم احدُهم دفعوه . وبينما نحن نتأمل وتعجب . ونثقلى على الحجر ونثقل . ونقابل بين سعد المكان . ونحس السكان . اذا برجل افرنجى قد خرج من بيت الحَرَم . وهو يلهب غيظاً ويضطرم . ويقول للبواب برطاته . وسوء عبارته : لقد طالبتُهُ فأبانَ الافلاس والعجز . فلم يبق الاتوقيع الحجز . واليك قائمة البيان . وحذار من التلف والنقصان . وما كاد « مُحضر المختلطة » ينتهى ويذهب . حتى حضر « مُحضر الاهلية » يلهث من التعب . فسلم للبواب ورقة إنذار . فأخذها وهو يدعو بالشبور والدّمار . وبمقابلة ذلك انصرف المحضر . وتبعه جميع مَنْ حضر . لاشتداد حرّ الظهيرة وأورهاها . ولفح الشمس للوجوه بنارها . فانتهزنا هذه الفرصة فتحرك مندوبنا وتقدّم . وخاطب البواب وهو يتلعثم . فقال له أنا مندوب المحكمة الشرعية . فقال له لم يكن ينقصنا الا هذه البلية . ثم دفعه في صدره . فردّه إلينا بظهره . بعد أن أخرجنا من الجنان . وأغلق باب البستان . فأخذ

المنذوب بيد الشاهدين وهو يتظلم ويتضرر . ووقف بينهما ينادى
في الهواء بالنداء المقرر :

« يا فلان بن فلان بن فلان ان مولانا قاضى مصر يأمرُك بأن تحضر
الى المحكمة في يوم الخميس الآتى للنظر فى دعوى اغتصاب الوقف
الموجهة عليك من قبل فلان بن فلان بن فلان وان لم تحضر فى اليوم
المذكور ينصب عنك وكيلًا ويسمع الدعوى فى وجهه ويحكم
عليك غيائياً »

ثم ودعنا المنذوب والشاهدين وانصرفوا الى سبيلهم وبقيت أنا
والباشا فى دهشة وذ هول وحزن وأسف ممارأينا وسمعنا . ثم استند
الباشا الى سور البستان وشرع يقول لى وهو فى تأمله وتفكره :

(الباشا) - مازالت بواطن الامور وحقائق الاشياء تتجلى لى على
وجهها منذ غمرنى الدهر فى هذه المشكلات والخطوب حتى تحققت
اليوم بأن أمور هذه الدنيا انما تجرى كلها على التضليل والبهتان وتدور
على التمويه والبطلان وتنطوى على الغش والتدليس . فبالله عليك من
ذا الذى يرى هذا القصر بزنته وبهجته وخدمه وحشمه ولا يتولاه
الحسد لسا كنيه والتطلع الى حسن حظهم وسعادة عيشهم ثم يرجع
الى نفسه فيسخط على حظه من الدنيا ويندب نصيبه من الحياة وسوء

قسمته في العالم

(عيسى بن هشام) - لازلت ترى الحق وتقول الصدق بما يتسع لك من سبل الهداية والحكمة . نعم ان جلّ من نراهم من المنعمين المترفين والأغنياء الموسرين لو كشفت عن باطن امرهم وحقيقة أحوالهم وخبائا معيشتهم من وراء الجدران لوقفت على ما يوجب الاسى والاسف ويدعو الى الرحمة والشفقة لا ما يدفع الى الحسد والغبطة ولا تثقت ان الرجل الأجير الذي يستخرج قوت يومه منغمساً بعرق جبينه هو أسعد منهم حالاً وأنعم بالآ . والغالب انه كلما كان مظهر العيش زاهياً زاهراً كان باطنه مقتماً مظلماً . وأشد ما يكون من البلاء على أهل هذه الطبقة انهم يقضون اوقات حياتهم في الظهور بين الناس على أغرب حالات التصنع فيكون الواحد منهم غريباً في محور الموم والاكدار وتراه يقسر نفسه بين الملاء على التظاهر بالسرور والانشراح واكثر ما يكون في الضيق والافلاس تراه يتعرض للتبذير والافاق فهو على الدوام يتقلب بين الضيقين ضيق العيش وضيق النفس وان كان عظيم الثروة كثير الغنى فانه لا غنى مع ازدياد الحاجات ولا مال يكفي مع تجدد الرغبات (الباشا) - قد كانت الحال في أيامنا على العكس . ان كان لا يسرك

من الرجل ظاهر حاله فانه يرضيك باطن أمره وربما كان يجتهد في
التظاهر بلباس الفقر اذا بلغ حد النفي ويبدى الشكوى اذا أسر الرضى
قال عيسى بن هشام - وقضينا برهة في مثل هذا الحديث وأنامتهل
مستبشر بما أراه يتمو ويثمر في نفس الباشا من التعلق بالابحاث العقلية
والتعمق في معرفة الاخلاق النفسانية حتى صار من ديدنه ان يستبسط
من كل حادثة يشاهدها ما يرتقى به الى عالم الفضيلة والحكمة وازددت
يقيناً بأن الرجل المرتفع القدر لا يزال غرّاً بالامور غافلاً عن حقائق
الأشياء فاذا وقع في أشراك الخطوب استنارت بصيرته واستضاءت
قريحته وعلم بطلان ما كان فيه بحقيقة ما وصل اليه
ثم حانت منا التفاتة الى ما وراء السور فرأينا خدام البيت وحشمه
قد اجتمعوا حلقة وهم يتحاورون ويتجادلون فسمعنا البواب
يبتدىء فيقول :

(البواب) - ليت أمتى لم تلدنى وليت أبى لم يعلمنى رسم الخط فقد كلت
يذى وحفى قلمي من طول التوقيع بالاستلام على الانذارات والمحاضر
فقلما يمضى يوم الا ولى فيه من التوقيعات ما ليس لرئيس قلم فى ديوان .
فبئست المعيشة معيشتى وبئس الحظ حظى وليتنى كنت قادراً على
الانضمام الى صف هؤلاء المطالبين والغرماء فأخلص بجزء من اجرة

لشهور المتراكمة . ومن لي بالتباعد عن هذا البيت الذي انتشر فيه جراد
الحجز وأزعجت من فيه أصوات الغرماء وأزعجني تردد
المحضرين على صندوق ثيابي

(الكاتب) - لست أدري والله ما يصنع صاحب البيت وماذا يحتال
لحالته وكيف لنا بالمعيشة معه ولم يبق عنده كثير ولا قليل . وإن صدق
ظني كانت عاقبته من أقبح ما تتصورونه في سوء العواقب فقد
أحسست من كثرة حركته واضطرابه في هذه الأيام أنه يدبر لنفسه
أسوأ تدبير للخلاص من ضيقه ليختم أمره بأقبح الخواتم . ويعلم الله
أنه لولا ما ألتقطه في أشغاله من هنا ومن هناك لما تيسر لي القيام بقوت
عيالي بعد أن انقطعت عنا أجور الشهور . وقد دعاني هذا الأمير أمس
وأعطاني خاتماً من الياقوت لأبيعه فذهبت به إلى الجوهرى الذى
كنّا اشتريناه منه بأكثر من مائة جنيه فلم يدفع لي فيه إلا خمسة
وعشرين فبعته بإياه وعدت للأمير بالدرهم فكانما فككت الأسير
من القيد وأتقذت الغريق من اللجج

(الوصيف) - الآن انحلّ ما كان مشكلاً وانكشف لي ما كان
غامضاً فاني رأيت معه أمس ذهباً كثيراً لم أهتد إلى مورده أعطاني
منه عشرة جنيهات وأمرني أن ابتاع من أخيه هذا الكلب الذى

رويه مولعاً بملاعبته منذ الصباح

(الفرّاش) - وأنا اشتريت له من صهره تلك البيغاء بخمسة جنيهاً
وأخذتُ له غرفة في «تيا ترو الاوبره» بثلاثةٍ وزجاجةَ عطر
بأثنين

(الكاتب) - فعلى هذا لم يبق معه الا خمسة جنيهاً ولا بد أن
أبادر في الحال لمطالبته بأنّ يجاز الوعد الذي وعدته لصاحب الجريدة
المعلومة حتى يسكت عنه ويكفّ عن التعرض له

(السائق) - وأنا أذهب اليه أيضاً لآخذ منه ثمن الريش والاسفنج
الذي وعدني به مادام معه من الدراهم بقية

(الخصي) - انكم لفي نعمة وغبطة بما تناولونه من وراء هذا البيع
وهذا الشراء من الربح ولكن غيركم من الخدم في الحرم قد اقتنعوا
من العيش بيسير الاكل والشرب من غير أجر وصبرنا على هذه
الحال وفاءً بالعهد لأهل البيت . وياليت هذه النعمة تدوم فقد سمعتم
اليوم وعيد البك الجزار كما سمعتم أمس بانذار البك الخباز

(السقاء) - ما أظن ان لنا حيلة نلجأ اليها في آخر الامر الا ان
نطلب منه إحالة ارزاقنا على ريع الوقف الذي سلم وحده من الحجز
(البواب) - لقد خاب ظنك وضاع أملك فان هذا الوقف الذي

كنا نرتكن عليه قد دخل في دور القضايا والدعاوى وجاء اليوم
مندوب المحكمة الشرعية بالاعذار الاخير ومن يعلم ماذا يكون
من أمره

وسمعنا الجرس يدق من جانب الحرم قششت الجمع نحو المطبخ
لحلول وقت الغداء فانصرفنا من موقفنا واكتفين بما شهدنا

قال عيسى بن هشام - وحلّ اليوم الموعد جلستنا في المحكمة
الشرعية فتوجهنا اليها ولم يحضر المدعى عليه كعادته ولما فُتحت الجلسة
نقدمنا اليها وشهدا أمامها شهود المعرفة ثم اطلع الاعضاء على الاعذارات
الثلاثة فوجدوها جامعة للشروط المقررة فأمروا بأن ينصب للمدعى
عليه وكيل يكون موثوقا بأمانته معروفا بالمحافظة على حقوق الغائبين
فاختاروا من اختاروه وكلفوه شرح دعواه مكان المدعى عليه ثم أخذ
محاميننا ينظر في صورة الوقفية التي استخرجناها من الدفترخانة ليعدد
الاعيان فلم يجد فيها جميع ما عددناه له بل وجد منها جزا قليلا لا
يقوم بالتعب في إقامة القضية وخشى ان المحكمة لا تحكم لنا بغير
المبين في « الصورة » من العقار فتضيع علينا بقية الحقوق فطلب من
الجلسة تأجيل سماع الدعوى زمنا يتمكن فيه من البحث عن بقية تلك
الاعيان الموقوفة فوافقه الوكيل المنصوب للغائب فتأجلت القضية

الى ما بعد الفسحة القضائية من العام

وخرجنا من الجلسة مع المحامى وقد فُتح له ولغلامه باب احتيال جديد ولما سأله عن المظان التى تبئنا عن بقية أعيان الوقف تلكا فى الجواب ثم أحالنا على الغلام وتركنا معه وانصرف . فقال لنا الغلام لا مظنة عندنا غير ديوان الاوقاف لانه يوجد بهذا الديوان سجلات تسجل فيها مثل هذه الاعيان وطلب منا ان نتفق معه على أجر معلوم للسمى وراء هذا الغرض . فوافقناه على هذا المطلب الجديد . والله يفعل بنا ما يريد



قال عيسى بن هشام - ولما حال أمرنا من المحكمة الى الاوقاف . وأيقن الباشا بما هنالك من قلة الانصاف . وأنه لا بد لنا من أن نطيل الالتماس والرجاء . ونكرر الدعاء والنداء . ونكثر من الغدو والرواح . فى كل مساء وصباح . فنبتلى فى هذا الديوان جدّة الزمن . ونقف عليه وقوف العاشق على الدّمن . لما هو مستفيض من اختلال أعماله . واعتلال عمّاله . وفساد إدارته . وسوء نظارته . - نزل به من الهمم والنعم . ما أورثه الضنى والسقم . وحل به من الحزن والكمد . ما أخلّ بنظام الجسد . فغدا هزىلاً نحىلاً . ووقع مريضاً

عليلا . فأشرت عليه بالطبيب . قال يخطئ ولا يصيب . وماذا يجدى
العلاج وما يفيد . ولآجال توقيت وتحديد . فأقنعته بأن الاعتقاد
بتحديد الأجل . لا يمنع من مداواة العلل . وسبحان من أرشدنا
الى الدواء . عند حلول الداء . لالتماس الشفاء . فقبل إشارتى بعد
طول الإباء . فجئت له بأحد الاطباء . من ذوى الشهرة بالبراعة .
فى ممارسة الصناعة . جلس بجانبه يحسن نبضه ويقرع صدره . ثم
استلم قلمه وولاه ظهره . وأخذ يرقم أصناف العلاج . بيد
دائمة الاخلاج . ثم قال دونكم هذا الدواء . جرعة فى الصباح
وأخرى فى المساء . ولا تأخذوه الا من صيدلية فلان فإنه صادق
مؤتمن . لا يغش فى التركيب ولا يغلى فى الثمن . ثم وقف عند المرأة
يسوى مفرق شعره . ويصقل ما استطال من ظفره . ويرسل
اللحظات تباعاً نحو الباب بنظرٍ مستراب . كأنه يريد ان يستشف
ما وراء الحجاب . من آنسة فى الخدر أو كعاب . ولما أعوزته ما تفقده .
طلب أن يغسل يده . وقال انى أرى حالة المريض شديدة . تقضى
بعيادته أياماً عديدة . حتى ينتهى المرض من شدته . وتلطف من حدته
ومضت مدة والطبيب يذهب ويعود . ودرجة الحرارة لا تفتأ
فى صعود . والمريض يهذى فى شدة حمّاه . وأنا اتضرع وأرحمّاه .

حتى كدت أياس من الشفاء . وأسلم لحكم القضاء . ولكن زارني
أحد الاصدقاء . ممن يتولعون بالطب والاطباء . فقال لي وهو يبصر
حالته : من الطبيب الذي يعالج علمته . فقلت هو الشهير فلان . قال علمت
السبب الآن وأنا أنصحك أن لا تعتمد في الطب . الا على أطباء الغرب .
اولئك قوم قد برعوا في معرفة الامراض . وتشخيص الاعراض .
وأحاطوا بكل جليل وحفير . من البسائط والعقاقير . فالأدواء لا
تستعصى في أيديهم . وليس بين الوطنيين من يماثلهم أو يداينهم . وأنا
آتيك بمن هو فيهم أوسع معرفةً وعلماً . وأشهر صيتاً وإسماً . وقام فعاد
بأجنبي يهدد الأرض بخطواته . ويكثر من اشاراته وافتاتته . فتقدم
نحو المريض نجس ولمس . ثم قطب وعبَس . ووضع طرف منديله على
أنفه . وقال لنا في صلفه وعنفه . ان هواء الغرفة فاسدٌ قتال . وداء المريض
داء عضال . ولا رجاء الا باتباع اشارته . في توأترزيارته . ثم هزى بما
راه من دواء الطبيب الأول . بعد أن كتب علاجه بوصفٍ مطوّل .
وقال لا يحسن تركيب هذه الاجزاء . الا صاحب صيدلية الشفاء . وما
زال هذا الطبيب أيضاً يذهب ويحضر . والعلاج يتجدد ويتكرر .
والمريض يتألم ويتضجر . والمرض باقٍ لا يتقدم ولا يتأخر . حتى جاء في
خاتمة انما اجمعهم جماعة للاستشارة والمداولة . فنخلص من هذا

لما راغوا والمطاولة . فلما اجتمعوا وقعوا في الحجاج والحجاج . ولم يتوافقوا على تشخيص الداء . أو تقرير العلاج . وأقام كل واحد منهم منفرداً برأيه . لا يهتدى إلا بهديه . وسمعت بينهم من يقول لرفيقه . لا ينبغي أن نوافق فلاناً في تحقيقه . كما لم يوافقنا على رأينا في الاستشارة الماضية . وأنكر علينا جميع أدويتنا الشافية

ثم خلقونا ونزلوا على الخلاف . وإن كانوا اتفقوا في تناول الاجرة عند الانصراف . وكنت شاهدت بينهم طبيباً يظهر نفوره من طريقهم . ويجرى معهم على غير حالتهم . فأرسلت في أثره من دعاه . وكاشفته بأنني اخترته على سواه . فقال لي إن علة المريض بسيطة فيما أراه . لا يجب فيها هذا الاختلاف والاشتباه . ولعلها ناشئة عن انفعالات نفسانية . من هموم فجائية . فقلت له نعم أصبت في النظر . ثم أخبرته بجملة الخبر . فقال الآن تبين أن معالجة الاطباء . كانت بغير اهتمام . ولا يلزم لعلاجها إلا الامتناع عن هذه المركبات . والاكتفاء ببعض البسائط من النبات . مع جودة الغذاء . وتبديل الهواء . فأيقننا حينئذٍ بمهارته . وسلمنا لإشارته . فلم يمض إلا بضعة أيام حتى انتقلنا من دور السقم والاعتلال . إلى دور النقاهة والإبلال . وجلس الباشا ذات يوم

الى الطبيب يشكره على حذقه وبراعته . ويحاورنا فى الحديث على حسب عادته :

(الباشا) - كيف اهتديتَ أيها الطبيب الى ما لم يهتدِ اليه سواك من الاطباء فأدركتَ سبب علتي وأحسنْتَ تشخيص مرضى وأصبتَ فى اختيار العلاج فكان الشفاء . لاشك عندى أنك نادرة عصرك وناطقة زمنك

(الطبيب) - لافضل لى يستحق كل هذا المدح والثناء . والسبب فى خطأ الاطباء ان العدد الأعظم منهم يسرون فى ممارسة صناعتهم على طريقة معينة ودائرة محدودة قررتها العادة فيهم فهم لا يتخطونها ولا يتعدونها فترى كل واحد منهم يحصر فى ذهنه عدة امراض معلومة وعللٍ معروفة فيطبق عليها كل ما يراه من الأعراض التى تظهر له فى عامة المرضى - والأعراض تختلف وتشتبه - فيحكم بمعرفة الداء ويأمر بالدواء المعين لذلك المرض المعين بقطع النظر عن الفحص والتأمل فى حال المريض أو البحث والتدقيق فى معرفة الاسباب المادية والادبية التى يرجع منشأ المرض بها ولا يكلف ذهنه التبصر أو التصرف على حال من الاحوال فيعيش فى اسر العادة وقيد الطريقة لا يعبأ بالبحث فى اختلاف الامزجة وتباين الغرائز

وتفاوتِ المعاشِ وتغايرِ القُوى في البُنَى فلذلك يكثر منهم الخطأ
ويقل الصواب

(عيسى بن هشام) - كأنك تريد أنهم يكونون على مثل حال
أهل الصناعات الآلية الذين يحل فيهم مجرى العادة محل إعمال
الفكرة فتنتقل أيديهم على وجه واحد وتنصرف افكارهم عن
المصرف أو التفنن في وجوه شتى

(الطبيب) - نعم لقد أصبت في التشبيه . وغير ذلك فانه يوجد
بين هؤلاء الاطباء مَنْ لا يرى في صناعته الآلة لاجتلاب الرزق
واصطياد الربح واستدراار الدرهم والدينار حتى يصلوا الى اكتناز
الاموال ويصبحوا في مصافّ اهل الغنى والثراء لا يبالي احدهم أىّ
باب طرق ولا أىّ سبيل قصد للتوصل الى هذا الغرض المطلوب
فكل الوسائل لديه مقبولة وكل الطرق عنده مسلوكة فهو يدخل
على المريض طامعاً في ماله لا طامعاً في شفائه فيحتال له انواع الحيل
لتطول مدته في المرض فيتسع نصيبه في الاجرة فيعطيه من أصناف
الادوية ما لا ينفع ولا يضرّ أستغفر الله بل ما يضرّ ولا ينفع لبقى
المريض في حاجة دائمة الى تجديد العيادة والزيارة وفي كل مرة يصف
له نوعاً حديثاً وصنفًا جديداً من المركّبات التي يعظم ثمنها بمقدار

ما يقل نفعها وينفسح له بذلك طريق للكسب والربح فوق أجر
 العيادات يرصده له الصيدني في دفتر شركتهما ليقاسمه أرباح تلك
 الأثمان الفسادة لتلك الادوية المنكررة . فيضرب الطبيب في
 صناعته يقدحبن . ويصيب في الكسب بسهمين . بعد أن يملأ جوف
 العليل من كل دواءٍ ضار . ويخلئ كيسه من كل فضة ونضار
 ومن أولئك الاطباء من يجعل همه منصرفاً الى الإبداع والتفنن .
 في وجوه التزيي والتزين . ويسلك سبيل النضنع والتكلف . في
 أبواب التطرف والتلطف . ثم يتفنن ما استطاع في حسن المحاضرة .
 ويتعمد رقة الحديث والمسامرة . ويتقلب في أساليب المؤانسة
 والمجاملة . وأفانين المغامرة والمغازلة . ليقيم له بين النساء بضاعة
 رائجة . وسوقاً رابحة . فيحل من اهل الحرم محل الجاليس المحبوب
 والانيس المطلوب . وينزل من ربات الخدور بمنزلة المحب المكرم .
 ويكون بين مقصورات القصور اكرم زائر في أرحب منزل . والنساء
 لا يعدمن العلات . على العلات . ولا تعوزهن العلل . في اختراع
 العلل . لاسيما ان كانت دعوى المرض . تدني من نيل الغرض . فيكوز
 للطبيب بينهن زيارات وعيادات . وروحان وغدوات . والطبيب
 كما يعل الناس مؤتمن الجانب . يؤتمن فوق الاهل والأقارب

تفتح أمامه الابواب . ويُكشف من دونه الحجاب . فترى له
زيارة بين كل صباح ومساء . تكتب له بوافر الأجر وسوء الجزاء .
بوافر الأجر في دفتر حسابه . وبسوء الجزاء يوم عرضه وحسابه .
ومنهم من يتطلع الى ما فوق ذلك فيطمع في ثروة البيت بأكملها
وفي حيازة الاموال بأجمعها فيديم التردد ويوالي العشرة ويحكم الصلة
ويلحم الخلطة حتى اذا تأرّبت عقدة الجبل تم الاتفاق بينه وبين ربة
البيت وصاحبه المتاع على التأهل بها لا التفات هناك الى تفاوت
الاقدار ولا عناية بوجوه الكفاءة فتصبح له حليلة . بعد ان كانت
خليلة . وينتهى ما كان من أمر الداء والعلاج . بما تم من أمر العقد
والزواج

(عيسى بن هشام) - الآن تبين لى ما كان عليّ غامضاً وانضح ما
كان مبهماً من أمر الطيبين الذين كانوا يعالجون الباشا في كثرة الزيارة
وقلة نفع الدواء وشدة التدقيق في تعين الصيدلية وطول استراق
النظر لما وراء الحجاب

(الطبيب) - أجل . هذا هو حال بعض الأطباء مع الأعلّاء
وأشباه الأعلّاء . فاما حالهم مع الاصحاء وذوى السلامة من بعض
الخلق فهو أعجب وأغرب . وما يغرب عنك أن كثيراً من المولعين

بسوء التقليد للغربيين والمتهالكين على حب التظاهر بمظهر الرفه والترف يتغالون في الاحتباط لأبدانهم ويبالغون في التوفى لأجسامهم فينمو فيهم وسواس المرض والسقم فتراهم يتوجسون من كل أكلة شرا . ويتوقعون من كل شربة ضرا . ويتخيلون ان في كل لقمة تحمة . وفي كل جرعة غصة . فلا يتناولون قدحاً من الماء . أو يستنشقون نفساً من الهواء . إلا وفي اعتقادهم انه لا يخلو من كل هامة سامة . أو جرثومة ضارة . ولا يزالون على هذه الحال حتى يمتنعوا عما فيه صلاح أبدانهم من المأكول والمشرب ويبعدوا ما استطاعوا في طرق الحمية من غير علة ولا داء فيبدلوا الماء الزلال بالماء المعدنى ويهجروا الاغذية المناسبة لتركيب الجسم وقوام البدن الى الاطعمة الغريبة عن أذواقهم المنافرة لنسيج أبدانهم فيضطرب نظام التركيب وتضعف البنية ويصبح كل واحد منهم جازماً بأن به داء دفيناً وما به من داء وعلة كامنّة وما به من علة فيشكو أمره الى الطبيب فيكون الطبيب حينئذٍ أسرع من وهمه وخياله في اختلاق علة له واختراع مرض دون ان يفحص أمره أو يبلو خبره فينزل به ما ينزل من بوائق الخوف والفرع ويوالى عليه الطبيب ما يوالى من صنوف الخلاصات المعدنية والجواهر السامة

والمركبات الحادة فيترصف على مائدته من ألوان العلاج والدواء
أضعاف ما يترصص عليها من ألوان الطعام والغذاء . ويتقيد المسكين
بمعيشة لا تناسب غريزة البنية ولا فطرة المولد ولا طبيعة الاقليم ولا
توافق الاَمن . جمدت عروق آبائه تحت جليد لوندرة لاَمن ذابت
مفاصل أجداده تحت هجير القاهرة . فلا يلبث ان يأتى على ما بقى في
الجسم من قوة وما في البدن من صحة ويعيش ان عاش في يد الطبيب
حيًا كميت ويكون بين الاموات والاحياء . لاهو من هؤلاء ولا
من هؤلاء . الى ان يلحد في لحده . شهيد طبيبه وقتيل يده . وهناك
يخلق بأهله أن يكتبوا بنجيع الدمع لابسواد المداد . ما كتب على
قبر عظيم من قدماء القواد : « لم تُمتنى قوة الاعداء . وانما أهلكتنى
قوة الاطباء »

ولقد سرى هذا البلاء فينا مسرى العادة فأصبحنا لا نرى في جمهور
مَن نراهم من المترفين المقلدين الا شاكيًا من ألم أو متألمًا من مرض
فراجت سوق الطب وعظم عدد الاطباء وغدت حوانيت الصيدالة
في الاسواق اكثر عددًا من حوانيت الخبازين والقصابين . وصار
من متاع البيت وجهاز العروس صناديقُ الدواء وآنية العلاج وقل
ان تجد اليوم بيتًا خاليًا من مريض ولا مجلسًا ليس فيه من سقيم

(عيسى بن هشام) - كأنتك تحاول أيها الطبيب الآسى ان تقنعنا بقوة البرهان وجليّ البيان ان لافائدة من الطب ولا منفعة فى الاطباء (الطبيب) - حاشا للمثلث أن يشتبه عليه القصد أو أن يذهب بقولى خلاف مذهبه وما قصدت بكلامى هذا كله الا أن أظهر عيب بعض الاطباء فى ممارسة صناعتهم دون التعرض لصناعة الطب فى ذاتها. على انه يمكن لى ان أضيف الى ما قلته ما قد قيل من قبل وهو أن العلم علمان علم تستنير به البصائر وتهتدى به العقول فهو جميل الاثر. محمود الورد والصدر. وعلم تصدأ منه الافهام . وتضل به الاحلام . فهو وبى الرعى . سى العقبى . وكذلك الطب طبان طب يصحح الاجسام . ويشفى الاسقام . فهو عظيم النفع جليل القدر . وطب يورث الامراض ويولد الادواء فهو شديد الوطء عظيم الضرر . ومدار الامر كله على حسن الاهتداء للتمييز بين النافع والضار والتفريق بين الطيب والخبيث . ولا توهمنى أيضاً انى اتناول بكلامى جماعة الاطباء قاطبة فان فيهم الصالح كما أن فيهم الطالح ولكننى أعنى من بينهم أولئك الذين يطلبون مجرد الربح من مباشرة الصناعة مع الجهل بها أو يتعمدون الحيل وينصبون الاشراك حتى يعقل جسم الصحيح ويز من مرض المريض ليكون لهم من وراء ذلك ما يسد بعض شرهم فى الغنى واليسار . وما أؤلى

بأن الناس بأن يثبتوا بينهم عادة أهل الصين في معاملة مثل هؤلاء
لاطباء . وذلك أنهم يجرون على أطبائهم العطاء ماداموا أصحاء فإذا نزل
أحدهم المرض انقطع العطاء عن الطبيب حتى يعود المريض الى
سلامته فيكون من مصلحة الاطباء على الدوام ان تطول مدة السلامة
وتقصّر مدة العلة على خلاف الحال بيننا

وما ينبغي ان ينصرف شيء مما قلته الى بقية أهل الصناعة من
ذوى الخلق والامانة الذين يوفون الصناعة حقها ويؤدون الواجب
عليهم فيها حق أدائه والذين يراعون في ممارستهما يكون من تفاوت
الاحوال في العلل والامراض وما تقضى به أحكام البلاد والعادات
واختلاف الامزجة والطبائع والذين يجعلون لانفسهم من حسن
تبصرتهم وكثرة تجربتهم غداة حاضرة لمقاومة الامراض وصحة
تشخيص الأدوية ولطف تناسب العلاج وحسن الارشاد لرفع
الوسواس ودفع الخيال وما يجري هذا المجرى من استعمال ما يليق
بأهل الاقليم الحار مما لا يليق الا بأهل الاقليم البارد واجتناب
مالا يوافق أمزجة أهل البلاد الشرقية من المركبات المجهزة لطبائع
أهل البلاد الغربية . ولقد طالما سمعت عن أشياخي في الصناعة أنه
يجب على الطبيب في مصر ان يختار ما يكون من الادوية وغيرها

ألين قوة حتى لا يكون على طبيعة المصريين فيها كلفة ولا ياحق
أبدانهم منها مضرة وأن لا يقدم على الأدوية الموجودة في كتب
أهل الغرب فإن أكثرها عملت لأبدان قوية البنية عظيمة الخلط
على خلاف المهود في أهل مصر فيتعين على الطبيب حينئذ أن
يتوقف في إعطاء هذه الأدوية للمرضى ويختار ألينها وينقص من
مقدار تركيبها ويبدل كثيراً منها بما يقوم مقامه ويكون ألين منه
وأن لا يهمل الاعتماد على الأدوية الطبيعية وهي البسائط واللبن
والحمية والقصد والاستحمام والرياضة والهواء . وان يكون على الجملة
مولعاً بلذة الصناعة في ذاتها لا يعادها لديه سواها من سائر اللذات
ممتلئ النفس بجلال قدرها وشرف منزلتها من بين الصناعات والفنون
فتعظم عنده نفسه ويشرف في عينه قدره فيترفع عن سفالة الطمع
وحطة الشره ويزهد في نيل الغنى من طريق التحايل على اقتنائها من
وراء هذه الصناعة الجليلة . وكيف تزدهيه لذات العالم أجمع من مالٍ
وجاه أو زخرف ومتاع في جانب لذة الاتقان في الصنعة والاحسان
في العمل . وأية رتبة من مراتب الخلق تماثل رتبة الطبيب العامل
وهو القيم على قوام الأبدان والكفيل بصحة الاجسام والرقيب
على اعتدال الامزجة والمشرف على سلامة الجوارح . لا بل أية

صناعة في الوجود تفضل صناعته وهي أمسُّ الصناعات بخلقها الصانع
 الفاطر وتكوين المبدع القادر . وإذا كان قد بلغ عجبُ الصناعة
 بأحد النحائين المصورين في الزمن السابق لَمَّا ازدهاه جمال الإتيان
 والإحكام في صورة إنسان نَحْتَهَا من المرمر أن استخفَّ الطرب
 واستفزته لذة الصنعة فعمى عليه فَأَنحَى على التمثال بمنجحاته يثيره على
 نطق اللسان بعد أن أُحكمت فيه خلقه اللسان ويكلف الجماد وقد
 أُتقنت فيه الصنعة أن يخرج من الجمود الى الحركة حتى أطار عنه
 بعض أجزائه وبقي التمثال قائماً الى اليوم يفصح بما فيه من التلف
 عن نهاية الكمال في جمال الاتقان ومقدار لذة الاحسان في عمل
 الانسان - فما بالك بلذة الطيب ومقدار طربه في صناعته اذا هو
 شاهد أجسام الاحياء أمامه وقد استخلصها من شوائب الامراض
 واستنقذها من آفات العاهات وردّها الى سواء التكوين وأعاد نظام
 الخلقة الى أصله وانتساق التركيب الى شكله . فهل يجوز في العقل لمن
 يدرك كنه هذه الصناعة من الاطباء ان يرغب عن تلك الدرجة
 الرفيعة الى الدرجة الوضيعة فينزل بصناعته الى مصاف أهل التجارة
 والسلع لا يفقه فيها من معنى سوى اصطيد الدرهم ولا يعلم لها من
 مزية سوى الاحتيال على اكتساب الاموال . لا جرم ان الطيب

المدرک يفضل لذة صناعته في ذاتها على كل لذة ويسلو عندها أعظم
مزية في الوجود وأعلى رتبة في العالم . وفصل الخطاب . في هذا
الباب . ان يكون مبلغ همته . وجمع لذته . أن يرى المريض بعد
شفائه . بوجهٍ لامعٍ كالدينار . لأن يراه في طول شقائه . بنظر
طامعٍ في درهمٍ أو دينارٍ

قال عيسى بن هشام - فأعجبني من هذا الطبيب صدقه في مقالته .
وحسن نظره في صناعته . وسألت الله لجماعة الأطباء . ان يهتدوا
مثل هذا الاهتداء . ثم اني ودعته بعد أن عني لنا البقعة المناسبة
لتبديل الهواء . وقرر ما يناسب حال المريض من العلاج والغذاء .
الى ان يتدرج من النقاهة الى تمام الشفاء

*
* *

(قال عيسى بن هشام) - فطاوعنا القدر . وعز منا السفر . التماساً
لبراء الداء . بتبديل الهواء . ونزلنا من ضواحي الاسكندرية قصرأ
ذاروضة غناء . في بقعة فبحاء . لا تسمع فيها الا هديل الورقاء .
إيقاعاً على هدير الماء . فاذا بلل الموج جباح النسيم . فرفرف
على ذلك الروض البسيم . نثر الماء درأ على تيجان الازاهر .
ورقرقه دموعاً في أحداق العباهر . هناك يتمنى العاشق لو استعار هذى

الدموع لمحاجره . فيستلبن بها قلب شاجيه وهاجره . وتود الغاية
لو نظمت من ذلك الدرّ عقداً لنحرها . أو نطاقاً لخصرها :
إنّ هذا المكان تى عجيب تضحك الارض من بكاء السماء
ذهب حيث ما ذهبنا ودرّ حيث دُرنا وفضة في الفضاء
أو قل إنه المجرّة قامت فيه زواهر الزّهر . مقام الكواكب الزّهر .
وعنايد الكروم . مقام ثريا النجوم . وأنوار الاثمار . مقام الشموس
والاقدار . فأقنا في ذلك الظل الوريث . مدة من أيام الحريف .
ومكشنا نقتطف القطوف الدانية . بين تلك الاعين الجارية . في
عبسة راضية . لا يُسمع فيها لاغية . آخذين بمستنّ النخيزة . ومجتنّ
الغريزة . في ما يوافق صحة البدن من طعام شهى . وغذاء مَرى .
ورياضة للاعضاء . دون تعب أو شقاء . وتطهير للنفس من أدران
الكدر . باطف البحث وحسن النظر . وتجريد للصدر من عوامل
الهواجس . وغوائل الوسوس . بالتبصر في حقائق الوجود .
والتمن في صنعة الخالق المعبود . وأفضت بصاحب طيب هذه
الاقامة . الى المقصود من تمام العافية والسلامة . لولا أن راعنا شيطان
من الانس بخبر الطاعون . فقلنا إنا لله وإنا اليه راجعون . وسبحان
الله والحمد لله ما زلنا نعلل النفس . بزوال النحس والنكس . وما زالت

تناوبنا النوائب والاحزان . وتراوحنا النوازل في كل منزل ومكان .
وانبرى الباشا يسألني عن هذا الطاعون وأخباره . وما يتوقعه من
هول أفعاله وآثاره . فأجبتُهُ بأنه لا يلبث أن يصبح أثراً بعد عين . وما
أصاب الى اليوم إلا عدد أصابع اليدين . وقريةً يفرُّ من أمامنا هذا
العدو المناجز . ونردّد في أثره قول الراجز :

قد رفعَ اللهُ رماحَ الجنِّ وأذهبَ التعذيبَ والتجنّي
(الباشا) - كيف تدعى ذلك وتزعمه وما عهدت منك إخفاءً
للحقائق ولا تمويهاً للوقائع . وللطاعون في مصر أفاعيل تذوب لها
الماقي والاحداق وتتفطر منها القلوب والاكباد وهو عندنا من
أمراض مصر الموضعية التي تحدث عند اختلاف الفصول . والمصريون
يتوقعونه لكل ربيع حتى أطلقوا عليه كلمة «الفصل» فيقولون جاء
«الفصل» عند ظهور الطاعون فترتاع النفوس ونخلم القلوب وتخور
النفوس وتذهل العقول ثم يصول صولته ويفتك فتكته فلا يقف
سيله عند حاجز ولا يمنع اندفاعه مانع ولا تغيض قرارته حتى يخرب
القصور . ويعمر القبور . فتصبح الاطفال يتامى . والنساء أيتام .
ويسى الخلق بين ثاكل ومشكول . وحامل ومحمول . وهذا يبكى
أباه . وذاك ندب أخاه . وهذه تولول على أهلها . وتلك تنوح على

بعلها . وقد سمعتُ عنه في زمانى من أحد النعمرين يقول في وصفه
عند وقوعه في سنة ١٢٠٥ :

«ابتدأ الطاعون في شهر رجب سنة ١٢٠٥ وداخل الناس منه وهم
عظيم واشتد بطشه وقوى بأسه في رجب وشعبان ومات به مالا يحصى
من لا اطفال والشبان والجوارى والعبيد والممالك والاجناد
والكُشَّاف والامراء ومات من الصناجق امراء الالوف اثنا عشر
صنجقا منهم اسماعيل بك الكبير . وقد أفنى عسكر القليونية
والارنؤوط المقيمين بمصر القديمة وبولاق والجزيرة وكانوا الكثرة
الموتى يحفرون حفراً بالجزيرة بالقرب من مسجد أبى هريرة وبلقونهم
فيها . وكان يخرج من بيت الامير في الجنازة الواحدة الخمسة والسته
والعشرة وازدحم الناس على الحوانيت يلتمسون ما يجهزون به موتاهم
ويطلبون من يحملون النعوش فلا يجدونهم ويقف الناس يتشاحنون
ويتضاربون على ذلك . ولم يبق للناس شغل الا الموت واسبابه فلا
تجد الا مريضاً أو ميتاً أو عائداً أو معزياً أو مشيعاً أو راجعاً من صلاة
جنازة أو دفن أو مشغولاً بتجهيز ميت أو باكياً على نفسه موهوماً .
ولا تنقطع صلاة الجنازة من المساجد والمصليات ولا تقام الصلاة الا
على أربعة أو خمسة ونذر من يصاب ولا يموت وقل ظهور الطعن على

الجسم فيكون الانسان جالساً فيرتعش من البرد فيتدثر فلا يفيق الا
مخبطاً أو يموت في غده ان لم يمت في نهاره . واستمر فتسكه الى اوائل
رمضان فمات الاغا والوالى في أثناء ذلك فولوا خلافاً فماتاً بعد ثلاثة
ايام فولوا خلافاً فماتاً ايضاً . واتفق ان الميراث انتقل ثلاث مرات
في سبعة أيام . وأُغلق بالمفتاح بيت أميرٍ كان فيه مائة وعشرون
نفساً فماتوا جميعاً »

(عيسى بن هشام) -- انى لأظنك تصف لى موقفاً شاهدته من
مواقف الآخرة وأهوال القيامة

(الباشا) -- وما كان الامر ليقنصر في الطاعون بعد ذلك على فتسكه
بل كان يزيد عليه من البلاء ما دسه الافرنج للولادة من وجوب
إزعاج الناس بأمرٍ تشق على نفوسهم يزعمون انها تدفع الطاعون
فيفصلون بين الناس وبعضهم ويفرقون بين الأب وابنه والأخ
وأخيه والمرء وزوجه ثم يهدمون الدور ويحرقون الثياب وينشرون
البخور كأنهم لجأهم يظنون ان هذه الاعمال التى تؤذى النفوس
وتعطل مصالح العباد تشتت شمل الجن وتكسر أسنة رماحهم
فيزداد الناس ويلاً على ويل وحزناً على حزن وخراباً فوق خراب .
وقد شاهدت بعينى ما تشيب له النواصى في سنة ١٢٦٠ وقصّ عليّ

أخى ما رآه منه فى سنة ١٢٢٨ وهو فى خدمة المرحوم محمد على باشا الكبير . قال :

« أمر جتتمكان محمد على بعمل « كورنتيله » بالجيزة فى اليوم العاشر من ربيع الثانى وعزم على الإقامة بها اذ اشتد عليه الهم من الطاعون لوقوع القليل من الاصابات بمصر ومات به الطبيب الفرنسى وبعض من نصارى الاروام وهم يعتقدون صحة الكورنتيله وانها تمنع الطاعون . وقاضى الشريعة الذى هو قاضى العسكر يحقق قولهم ويسير على مذهبهم وكان أفندينا لشدة شغفه بالحياة وحرصه على الدنيا يصدق هذا الزعم وبغرسه فى نفوس حاشيته وأهل دائرته وافق أن مات بالطاعون شخص بالحكمة من أتباع القاضى فأمر بحرق ثيابه وغسل المكان الذى فيه وتخييره بالأجرة المتنوعة وكذلك الأوانى التى كان يمسها وأمروا أصحاب الشرطة انهم يأمرؤن الناس وأصحاب الأسواق بالكس والرش والتنظيف وبشر الشاب فى كل وقت . واذا وردت عليهم مكاتبات خرقوها بالسكاكين ودخنوها بالبخور قبل تسليمها اليهم . ولما عزم الباشا على كورنتيلة الجيزة أمر فى ذلك اليوم ان ينادوا بها على سكانها بأن من كان يملك قوته وقوت عياله ستمن يوماً واختار الإقامة فليمكث بالبلدة والا فيخرج

منها ويذهب فيسكن حيث أراد وأعطوا مهلة أربع ساعات فازرعج سكان الجيزة وخرج من خرج وأقام منهم من أقام وكان ذلك في وقت الحصاد وللناس مزارع ومرافق مع مجاورهم من أهل القرى ولا يخفى احتياج الانسان لبيته وأهله وعياله وأسباب رزقه فيحرمونه من ذلك كله حتى لقد سدوا خروق السور والابواب ومنعوا مرآكب المعادى من السير . وأقام الباشا بيت الازبكية لا يجتمع بأحد من الناس الا يوم الجمعة ثم قصد الجيزة وقت الفجر من ذلك اليوم وصعد الى قصره وأوقف مركبين الأولى ببر الجيزة والأخرى في مقابلتها ببر مصر القديمة فاذا أرسل الكتبخدا أو المعلم غالى مراسلة ناولها المرسل للمقيد بذلك في طرف مزارق بعد تجخير الورقة بالشيخ واللبان والكبريت فيتناولها منه الآخر بمزارق آخر على بعد منهما ويعود راجعاً فاذا قرب من البر تناولها المنتظر له أيضاً بمزارق وغمسها في الخل وبخرها بالبخور المذكور ثم يوصلها الى حضرة المشار اليه بكيفية أخرى وأقام الباشا على ذلك أياماً وسافر الى القيوم ثم عاد وأرسل مماليكته ومن يخاف عليه من الموت الى أسيوط . «
(عيسى بن هشام) - اعلم أن ما كان يعترض عليه عامة الناس في الازمان الغابرة - ولا يزال بيننا الى اليوم بقية منهم - من الأخذ

بأسباب التوقى والاحتياط لدفع غائلة الطاعون لجهلهم بماهيته وأسباب انتشاره هو الذى يحمينا اليوم من فتكاته وسطواته التى قصصت على طرفا منها وقد كان جمهور الناس فى أزمانكم ينكرون هذه الوقاية ويسخرون منها

(الباشا) - قل لى بالله أية علاقة بين إحراق الثياب وتلك الوخزة التى تأتى بالأجل وأى ارتباط بين هذا البخور وحى الطاعون اللهم الا ان يراد به تلطيف أمزجة الجن

(عيسى بن هشام) - لا يفوتنك ان كثيراً من الماهيات والحقائق كانت مكنونة فى خفاء الجهل عند عامة الناس لاختصاص بعض الافراد بالعلم ولبعد تناوله على بقية الطبقات فلما انتشر العلم وأضاء برهانه كشف للناس ما كان مكنونا عنهم وأظهر من العلل والاسباب ما كانت تقف دونه الافكار حيرى . فان كان الناس فى زمانكم يعتقدون ان الطاعون من وخزات الجن برماحها وأن لاشئ يقوى على رد تلك الرماح الخفية عن العيون فان البحث أوصلهم اليوم الى اليقين بان للطاعون جنوداً لا تدركها العيون المجردة وأن لها وخزاً خفياً دونه وخز الرماح وعوا الى المُرَّان ولكنهم استعانوا بالعلم فصنعوا آلة تجسم الاشياء الدقيقة وتعظمها وتبرزها مرئية للعين فوقفوا بها

على حقيقة تلك الجنود واستنبطوا طرق الوقاية منها فتدروا بها
لدفع أذاها ورفع غائلها

(الباشا) - وماذا تجدى الوقاية والحذر . من القضاء والقدر

(عيسى بن هشام) - حَفَظْتَ شَيْئًا وَغَابَتْ عَنْكَ أَشْيَاءُ . ان الوقاية
من السنة الشريفة وأحكام الدين المبين فقد ظاهر عليه الصلاة والسلام
في الحرب بين درعين . وقال الله تعالى « وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ
مِنْ قُوَّةٍ » . وإطريق الوقاية اليوم أنواع مختلفة لدفع هذا العدو الخفي
الذى يسمونه « المكروب » وهو دُويبة دقيقة من عالم الذر ينطبق
عليها أحد أوصاف الجن في سرعة التولد وكثرة التعدد في أيسر
برهة من الزمن . وهم يتخذون البخور في الوقاية لينحل تركيبه
ويحرقون الثياب والأمتعة حتى لا تثقل بها عدواه

(الباشا) - لقد كشفت لى معنى دقيقاً في رماح الجن المسمومة
ما كنت إخال أن أحداً يدركه في عصرنا الماضى وهل لك فى أن
تطلعنى على تلك الآلة العجيبة المجسمة للأشياء الدقيقة لأزداد بصرة
وهدى بالنظر فى عجائب المخلوقات

قال عيسى بن هشام - فذهبت الى معمل كيماوى وأرْبَتُهُ نَقْطَا
من الماء تحت « المكرو سكوب » فلما رآها كأنها غدير ورأى ألوف

الالوف من الهوامّ ساجدةً فيها سجد سجدة التقديس لقدرة الخالق
والتمجيد لعظمة الصانع وتلا قوله عزّ من قائل : « وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ
رَبِّكَ إِلَّا هُوَ » فحمدت الله اذ آمن بالبرهان الساطع ولم يفعل ما فعله
ذلك الهنديّ مع العالم الالمانى حيث أراه مثل هذه النقطة وما فيها
من الحيوانات ليقنعه بأن ماء الشرب مشحون بما يحرم أهل الهند
قتله وأكله من الحيوانات فسخر الهنديّ منه وكسر النظارة
إصراراً على الباطل وعناداً للحق . ولما أيقن الباشا بصدق ما قتله
وما رآه وأن العلم هزم جنود الطاعون وحطّم رماحه ولولاه لمات
به اليوم مئآت الالوف مكان العشرات سألنى يقول :

(الباشا) . ومن هو المخترع لهذه الآلة التى تدل بغير واسطة
على عظمة الخالق وقدرة الصانع من مشايخ الموحدين وعلماء الدين .
وفى أية بقعة من بقاع المسلمين كان مولده لتردد الثناء عليه ونذكر
اسمه بالحمد

(عيسى بن هشام) - أقسم لك بالله وملائكته وكتبه أن أكثر
مشايخنا لا علم لهم بها وأنهم لا يزالون كالعهد بهم فى معزل عن هذه
العلوم النافعة والمخترعات المفيدة وما نشط لرؤيتها أحد منهم وهم الى
اليوم ينفرون من الأخذ بوجوه الوقاية ويفضلون التعرض لنيران

البنادق في معارضتهم لأوامر الحكومة دون الإذعان لوجوب الاحتياط من هذه الحيوانات الدقيقة ولا يعرفون منها الا ما نخر كتبهم من الأرضة وما سبّح في حلقات دروسهم من القمل والنمل وما دار في أمثلتهم من « أكلوني البراغيث »

(الباشا) - ومع هذا كله فلا مقام لنا اليوم في هذه البلدة التي أصيبت بالداء وقد وجب علينا الفرار من قدر الله الى قدر الله فعُدنا بنا الى مصر ان شاء الله آمين

(قال عيسى بن هشام) - فأجبتة الى سؤله وقفلنا للرجوع . بعد أن ودعنا محاسن تلك الربوع

*
* *

(قال عيسى بن هشام) - وأقننا في مصر مدة وقد أبلّ الباشا من علته وسقمه . وتمت له العافية والسلامة في جسمه . فأخذت أهنئه ذات يوم بالشفاء والابلال . من المرض والاعتلال . وأذكر له أن صحة الأبدان . هي ملاك السعادة للانسان . وأنك لو جمعت نعم العالم للمريض . من مالٍ واسع وجاهٍ عريض . لانصرفت نفسه عنها انصرف الضب عن الماء . والأرمد عن الضياء . والمعمود عن شهى الغذاء . وأن خاتم الياقوت في الإصبع التي أصيبت بدمل .

لا يساوى عند صاحبه حبة من خردل . وأن ما اجتمع في سرير الملك
من العزة والبأس . لَيُهَوَّنُ عند مفقور الظهر أو مصدوع الرأس :
وَمَنْ يَكُ ذَا فَمٍ مُرٍّ مَرِيضٍ يَجْذُرُ بِهِ الْمَاءُ الزُّلَّالَ
و كنت كلما زدت من هذه الموعظة والحكمة . أراه يزيد في الإعراض
عن شكر تلك النعمة . وتحققت أن المرء إنما يذكر النعيم في البؤس
ولا يذكر البؤس في النعيم . وينسى المرض في الصحة ولا يذكر
الصحة إلا وهو سقيم . وقل من يحمد النعماء في لبسها . ويدرك
سعادة الحياة إلا في محسها . فهذا معنى من معاني الآية الشريفة :
« وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَا لِنَجْوَاهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا
عنه ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسِّهِ » . فسألته عما دهاه .
وأذهله عن شكر الله . فأجابني يقول . وهو في حال الخجل والذهول :
(الباشا) - فيمَ الهناء بكشف البلاء والضرر . وما انتقلت من
خطر الآلى خطر :

فَإِنْ أَسْلَمَ فَمَا أَبْقَى وَلَكِنْ سَلِمْتُ مِنَ الْخَمَامِ إِلَى الْخَمَامِ
ألم تسمع معي بخبر انتشار الوباء في مصر بعد أن خلفنا الطاعون في
الاسكندرية . فما هذه الرزايا المتساقطة وما هذه البلايا المتلاحقة
أو كلما انتهينا من بلاء دخلنا في بلاء وانصر فنا من شقاء الى شقاء

(عيسى بن هشام) - أراك لا تزال كأمثالك من سائر الناس يغلب عليك الفزعُ والوسواس . وإن كنتَ جَرَّبْتَ في هذه الحياة شدة الأُلم . وذقتَ في القبر راحةَ العدم . وأنَّ ما كنتَ تتمناه على دهرِكَ . من الرجوع إلى قبرِكَ . عند اشتداد السكروب . من وقع الخطوب . لم يكن لشجاعةٍ في النفس . تستهين بسكنى الرمس . بل كان لضعفِكَ عن احتمال الآلام . من نوازل الأيام . وأراك لا تزال مع صحه الدين . وقوة اليقين . ترهب الموت وتخشاه . وتعتورك الأهوال من ذكره . وهذا داءٌ في الناس قديم . عزَّ شفاؤه على كل مرشد وحكيم :

وخوفُ الرَّدَى آوَى إلى الكهفِ أهلهُ وَعَلَّمَ نُوحًا وَابْنَهُ عَمَلَ السَّفِينِ
وما استعذبته رُوحُ موسى وآدمِ وَقَدَّوْا عِدَامِينَ بَعْدَهُ جَنَّتِي عَذَنِ
ولكنني لا أزيدك في الموعظة ولا أخفف عنك من ويلات الهواجس
والوساوس بأحسن من أن أقرأ عليك مقالة أطلعتُ عليها اليوم في
بيان أحوال الناس وتقسيم طبقاتهم في أهوال هذا الوباء فإن أردتَ
تلوُّها عليك ثم ضع نفسك بعدها حيث شئتَ

(الباشا) - هات أسمعني لازلتَ للحق راويا . وللهدى داعيا

(عيسى بن هشام) قارئاً - « إنما النوازل العظيمة والخطوب

الجسيمة محكّ الطباع ومِسْبار الاخلاق فهي لشدتها وهولها
تكشف من الناس ما يخفونه عن الناس وتهتك سجوف التمويه
والتزويق عن حقائق الصفات فلا تمالك النفوس ان تبقى على التظاهر
بما ليس فيها ولا النطاول بما هو مفقود لديها بل تتجلى للنظر بما اشتملت
عليه ضمائرُها واحتوتُه سرائرُها من قوة أو ضعف ومن فضيلة أو
نقيصة ومن علم أو جهل . وهنا يتمكن الباحث في الاخلاق من النظر
فيها نظرة الثبوت والتحقق وهي مجردة أمامه من كل غشاء عارية
من كل غطاء .

« وليس في باب النوازل والخطوب ما يهول النفوس ويروع القلوب
أعظم ولا أكبر من مصيبة الموت وبلاء هذا الوباء . فلذلك لا نرى بأساً
من الكلام بشيء عما يجده المستقرى لأحوال الناس من طبقات
المصريين وهم بين أيدي هذه النازلة العظمى والمحنة الكبرى
« فطبقة العامة أناس جبُلوا في مثل هذه النوازل العامة على التسليم
لأحكام القضاء وتفويض الامر لأقدار السماء وهم لا يعلمون من
أمر الوباء ما جراثيم الداء ولا علة المرض والشفاء ولا سبب الهلاك
والنجاء وليس في قدرة قادر من البشر أن يزحزحهم عن اعتقادهم أو
يحوّلهم عن يقينهم ولا في استطاعة أحد من أبلغ الوعاظ وأفصح

الخطباء ان يضع في رؤوسهم أن الوقاية تمنع من المقدور وأن الحذر يُنجي من المكتوب وأن طب الاطباء يؤجل في الأجل المحدود وأن صنوف الدواء تنفع في رد القضاء المحتوم . وهم يرون كل ما يؤمرون به من وسائل الوقاية وأسباب الحيلة أموراً تضر ولا تنفع فلا تزيد في عمرهم ساعة ولا تكف عنهم غرب المنون ولا تقبض دونهم يد قابض الأرواح . فهم بمعزل عن الخوف والهلع وفي أمان من الذعر والفرع وفي ضمان من الوسوس والهواجس وإن كانوا مقيمين في غفلة عما يجب عليهم لانفسهم من المحافظة على صحة الابدان وتعهد الاجسام بما يدرأ عنها الاستعداد لقبول الداء والوقوع في مخالب الوباء لبعدهم عن فهم قوله عليه الصلاة والسلام « إعلمها وتوكل » لكنهم لا يزالون على كل حال في صحة من الارواح وإن أعوزتهم صحة الابدان

« وطبقة الخاصة ونعى بهم أهل الدين واليقين وهم الذين يعتمدون أيضاً على التسليم لاحكام القضاء وحسن الاعتقاد بتحديد الآجال والإيمان بأنه لن ينالهم الا ما قدره الله لهم ولا نفقاً تجري السننهم في مثل هذه الأحوال بتلاوة الآيات البينات من كتاب الله : « ولكل أجل كتاب » : « فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة

وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ» : «أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ» : «قُلْ إِنْ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ» .
 تعالى الله أحكم العائلين . وهم الذين يعلمون علم اليقين أن الموت أمرٌ واقع لا مردّ منه وأن الانسان عرضة له في كل وقت ولحظة وأن طعمه واحد سواء كان بمرض الوباء أو صواعق السماء أو زلازل الارض أو كان بفصّة شرابٍ أو عثرة قدم أو لسعة حشرة وأن نفْسَ المرء خُطاهُ الى أجله فعليه أن ينتظر ساعته في كل حركة وسكون وعند كل قيام وقعود :

وَمَا نَفْسٌ إِلَّا بِإِعْدَادٍ مُّوَلَّدَةٍ وَيُدْنِي الْمَنَآيَا لِلنَّفُوسِ فَتَقْرُبُ
 وهم يعتقدون حق الاعتقاد أن الحى حيّ للفناء وانه مقيم من دنياه أبداً في أرض وباء وإن لم يكن ثم وباء :

مَا خَصَّ مَصْرًا وَبًا وَحَدَّهَا بَلْ كَانَتْ فِي كُلِّ مَصْرٍ وَبًا
 وَأَنَّ مَنْ فَرَ مِنَ الْمَقْدُورِ فَعَلَى الْمَقْدُورِ نَزَلَ . وَمَنْ هَرَبَ مِنَ الْقَضَاءِ فَإِلَى الْقَضَاءِ رَحَلَ :

مَهَلًا أَمْ مِنْ وَبَأٍ فَتَرَى فِي الدَّهْرِ إِلَّا مَنْزِلًا مَّوْبُوءًا
 وَأَنَّ مَنْ حَانَتْ مَنِيَّتُهُ . لَمْ تَنْفَعِهِ تَقِيَّتُهُ . وَمَنْ حَلَّ أَجَلُهُ . لَمْ يَحْمِهِ وَجَلُّهُ :

وَمَنْ هَابَ أَسْبَابَ الْمَنَآيَا يَنْلَنَّهُ وَلَوْ رَامَ أَسْبَابَ السَّمَاءِ يَسْلَمُ
 إِلَّا أَنَّهُمْ مَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ لَا يَرُونَ مِنْ مَانِعٍ يَمْنَعُهُمْ عَنِ الْإِخْذِ بِأَسْبَابِ التَّقِيَّةِ
 وَالْحَذَرِ وَلَا فِي الْعَمَلِ بِمَقْتَضَى الْقَوَانِينِ الْمُنْدُوبِ إِلَيْهَا فِي حِفْظِ صِحَّةِ
 الْأَبْدَانِ وَمَا يَقْرَرُهُ أَهْلُ صُنَاعَةِ الطَّبِّ مِنْ سَبِيلِ التَّوَقُّيِ وَالنَّحْرَسِ
 اتِّقَاءً لِمَا نَهَوْا عَنْهُ مِنَ الْإِلْقَاءِ بِالْأَيْدِي إِلَى التَّهْلُكَةِ وَاحْتِدَاءً لِمَا تَرَسَّمَهُ
 ظُرُوفُ الْأَحْوَالِ وَتَقْضَى بِهِ أَحْكَامُ الْأَزْمَانِ وَلَا يَجِدُونَ الطَّاعَةَ
 لِإِشَارَةِ الْأَطْبَاءِ فِي مِثْلِ هَذِهِ النَّوَازِلِ مِمَّا يَخَالِفُ لَهُمْ سُنَّةٌ أَوْ يَنَاقِضُ
 لَدَيْهِمْ شَرْعًا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ وَرَأِهَا فَائِدَةٌ فَلْيَسْ فِي عَقْبَاهَا مُضَرَّةٌ .
 فَتَرَاهُمْ لِذَلِكَ فِي أَجَلٍ مَقَامٍ مِنْ شَجَاعَةِ الْقَلْبِ وَقُوَّةِ النَّفْسِ وَثَبَاتِ
 الْجَنَانِ بِفَضْلِ الدِّينِ وَالْيَقِينِ وَعَلَى أَحْسَنِ حَالٍ مِنْ سَلَامَةِ الْجِسْمِ
 وَطَهَارَةِ الْبَدَنِ بِفَضْلِ الْعِلْمِ وَحَسَنِ الْقِيَامِ بِمَا يُرْشِدُ إِلَيْهِ مِنْ وَسَائِطِ
 الْوَقَايَةِ لَا سُلْطَةَ لِلْوَسَاوِسِ وَالْهَوَاجِسِ عَلَيْهِمْ وَلَا مَحْلَ لِلرَّعْبِ
 وَالرَّهَبِ فِيهِمْ آمَنِينَ مَطْمَئِنِّينَ يَتَمَتَّعُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِالرُّوحِ السَّلِيمَةِ فِي
 الْجِسْمِ السَّلِيمِ

« وَهَنَّاكَ طَبَقَةُ ثَالِثَةٌ حَدِيثَةُ النِّسَاءِ حَدِيثَةُ التَّرْبِيَةِ لَا مِنْ هَؤُلَاءِ وَلَا
 مِنْ هَؤُلَاءِ لَمْ يَرْسُخِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِهِمْ وَلَمْ تَتِمَّكُنِ التَّرْبِيَةُ الدِّينِيَّةُ مِنْ
 نَفْسِهِمْ وَلَمْ يَتَأَدَّبُوا بِأَدَبِ الدِّينِ وَلَمْ يَرْتَا حُوا الْحَسَنَ الْيَقِينَ بَلْ اقْتَصَرَتْ

بضاعتهم على ما تلقوه في المدارس من العلوم والآلية والفنون الصناعية دون علوم التربية النفسانية والفضائل الروحية وخلت صدورهم من آيات الله والحكمة قد أخذوا عن الغربيين عادة التهاون بالشرائع والازدراء بالإيمان ولم يحيطوا بشيء من العلوم الموضوعة لتقويم النفوس وتطهير الطباع وتقرير الحقائق وترويض القلوب على التجلد والثبات عند وقوع المكروه ونزول الملمات فنجدهم قد ظهروا للناس في هذه النازلة الوبائية وانكشفوا لاهل البحث والنظر أصغر خلق الله نفوساً وأجبنهم قلوباً وأكثرهم هوساً ووسواساً وأشدهم قلقاً واضطراباً وأعظمهم خوفاً ورعباً واكبرهم بلاءً وكرهاً يتمثل لهم الموت في أعينهم على أفطع الصور وأشنع المناظر فيحاولون الفرار منه وهو ممسك بنواصيهم ويهابون دنوه وهو آخذ بتلابيبهم . حلّ الخوف مفاصلهم واستلّ الرعب نخاعهم فهم يرون في كل عودٍ نعشاً لهم ويحسبون كل صيحة عليهم أو تلك لا إيمان لهم يثبت أقدامهم ولا علم لديهم يرجح أحلامهم بل هم على مثل حال المغشى عليه من الموت أو المسوس من الشيطان يتوهمون طعم الموت ومذاق الوباء في تنفس الهواء وتناول الغذاء وشرب الماء وملاسة الأيدي ومخاطبة الناس فاذا رأى المسكين منهم تلك الآلة الحدباء تحمل أحد المصابين

بالوباء جمدَ دمهُ وسالَ عرقه وخمدت أنفاسه والتوت أعصابه
وأمسك مَنْ بجانبه يستنجد به ويستغيث ليحميه من شر العدوى
ويدفع عنه نزول البلوى . وما أشبههم في حالهم هذه من الخور والهلوع
والفزع والجزع إلا بمثل أناسٍ قضى عليهم بالأعدام لوقتهم فهم
وقوفٌ بين يدي الجلاد والسيّاف إذا قدّم أحدهم للسيف والنطع
مات الذي يليه من الخوف قبل القتل . ومنهم من اعتكف على
الخمر يشربها ليلاً ونهاره عساها تجهله كيف اطمانت به الحال ومنهم
من يبالغ ويفالى فى تناول العقاقير السامة والجواهر القتالة مما وضعه
الاطباء لقتل الجرائم فهو يشربها ويستعطها ويدهن بها جسده
ويعمس فيها ثيابه ويلبل بها فراشه ويفسل بها آنية طعامه وشرابه
وكما سمع بزيادة العدد فى المصابين زاد فى مقدار ما يستعمله منها
يوماً بعد يوم حتى أصبحت اجسامهم مسمومةً وأبدانهم مهزولة
وشفاههم متقلصة وعيونهم غائرة ووجوههم مغبرةً وأناملهم مصفرة
ينطبق عليهم قوله جلّ وعلا : « وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا
هُوَ بِمَيِّتٍ » اذ رأيتهم حسبتهم فى حال المصابين بالقل لولا أن هؤلاء
يفضلونهم بالخلاص من ألم الداء براحة العدم والفناء ، ولما كان الخوف
والوسواس من أكبر وجوه العذاب فى الحياة ومن أعظم الاسباب

في رأى الاطباء جلب الداء كانوا هم أعداء أنفسهم بأنفسهم وأصحاب
الارواح السقيمة في الاجسام السقيمة لهم النكد في هذه الدنيا
ولهم الخزي في الآخرة »

- فأين تضع نفسك الشريفة أيها الباشا من هذه الطبقات
(الباشا) - ما أرى لى موضعاً بعد إذ عاشرتني وأرشدتني الا في
طبقة أهل الخاصة الذين يسلمون للقضاء والقدر ويعملون بالحيلة
والحذر لكنني مع ذلك أفضل الابتعاد عن ضوضاء الناس في هذا
الوباء وأرغب في التخلص من النظر اليهم وهم في مثل أهوال القيامة
من الفزع والهلع وليس من الصواب ان نجتمع بين أكدارنا وهمومنا
وبين التأثير لأكدار الناس وهمومهم

قال عيسى بن هشام - وخشيتُ على الباشا إن أنا تركته في هذه
الحال غريقَ أفكاره . وأسيرَ همومه وأكداره . ان ينتويه
الانتكاس . ويعتريه الارتكاس . والنكسة بعد البلية . شرّ ادوار
العلة . فبادرتُ الى طاعته . وامثال اشارته . فاخترت له من
ضواحي المدينة مكاناً قصياً . ومسكناً مريضاً

*
* *

قال عيسى بن هشام - واعتزلتُ بالباشا مدة من الدهر . نستملح

العزلة ونستعذب عليها الصبر . ونعيش فيها عيش الحكماء . من
حسن الرضاء بحسن الاكتفاء . ونستر روح راحة البعد عن هذا
العالم وأذاه . وإغماض الجفون على قذاه . مؤتسين كل الاثناس .
بالوحشة من الناس . بعد الذي شهدنا من اعمالهم ورأينا . وسمعنا
من اقوالهم ووَعَيْنَا . وقاسينا من عسرتهم ما قاسينا :

عَوَى الذَّبُّ فَاسْتَأَسْتُ لِلذَّبِّ إِذْ عَوَى

وَصَوَّتَ إِنْسَانٌ فَكِدْتُ أَطِيرُ

إن سلمتهم حاربوك . وإن وادعتهم ناصبوك . وإن صادقتهم عادوك .
وإن واثقتهم كادوك . وإذا خالطتهم لا تأمن الاعتداء . وإذا مازجهم
لا تعدم الاقتراء . وإذا طالبتهم بحق فانك لا تسمع الصم الدعاء :
فلو خبرتهم الجوزاء خبرى لَمَا طلعت مخافة أن تُكادا

ولو أنك لم تخالطهم الا في مجالس أنفسهم وصفوهم . ومعهدهم
لعبهم ولهوهم . لم تجن منها الا كل ما يُبعد وينفر . وينقص ويكدر .
تدخلها اذا دخلتها مستروحاً مستبشراً . وتخرج عنها مستقبحاً
مستنكراً . فعيشتهم في كلتا الحالتين قرارة معائب . ومجتمع نقائص
ومثالب . ومنابت اكدار . وينابيع اضرار . ولا راحة في الدنيا
الا لمن تنسك وتزهّد . ولا سلامة من الخلق الا لمن اعتزل وتوحد .

أبعدُ الناسِ عن معاشرَةِ البرايا . أقربهم إلى كرمِ السجايا :
عُدِي عن الناسِ برغمِ سَقَامِهِمْ وقربهم للحجى والدينِ أدواءُ
كاليتِ أفرَدَ لا إِيْطَاءَ يدركُهُ ولا سِنَادَ ولا فى اللفظِ إقواءُ
وعكفتُ مع الباشا فى عزِّ لَتْنِ أَذْهَبَ به كل مذهب . وأثقل به من
مطلب إلى مطاب . فى مطالعة الاسفار والكتب . من تاريخ وأدب .
ومن حكمٍ متينَةٍ قويمة . وشتى علومٍ حديثةٍ وقديمة . أهديه من كل
طرفٍ بطرفة . وأتحفه من كل بابٍ بتحفة . وأجتنب معه ما يدعو إلى
الضجر والملل . ويدنى من الكد والكلل . فإرةً أخوض معه عباب
البحار . وطوراً أجتاز به سراب القفار . فرى من يحرق فى البحر
مراكبه . ليحمل على افتتاحِ المنايا كتابه . ونسمع الشاعر فى القفر
يحدو بناقته . ويشبب بمعشوقته . ثم لا يقعد به ذل الغرام . عن التفاخر
بعض الكرام . ولا ينسيه ذكرُ الهوى . مواقف الحُفِّ والردي .
فيخلط بالغزل الفخر . ويخاطب خلته من جوف القفر :
إنا مُحيوُّك يا سلمى خيِّنا وإن سقيتِ كرامِ الناسِ فاسقينَا
وإن دعوتِ إلى جُلِّ ومكرمةٍ يوماً سراً كرامِ الناسِ فادعينا
إن تبتدِرْ غايةً يوماً لمكرمةٍ تلقِ السوابقَ منا والمُصلينا
وليس يهلك منا سيدهُ أبداً إلاً افلئنا خلاماً سيِّداً فينا

إِنَّا لَنُرْخِصُ يَوْمَ الرُّوعِ أَنْفُسَنَا وَلَوْ نُسَامُ بِهَا فِي الْأَمْنِ أَغْلِنَا
يَبِضُّ مَفَارِقُنَا تَغْلَى مَرَاجِلُنَا نَأْسُوا بِأَمْوَالِنَا آثَارَ أَيْدِينَا
إِنِّي لَمِنْ مَعْشَرٍ أَفْنَى أَوَائِلِهِمْ قِيلُ الْكُفَاةِ إِلَّا أَيْنَ الْحَامُونَا
إِذَا الْكُفَاةُ تَنَحَّوْا أَنْ يَصِيبَهُمْ حَدُّ الطُّبَاةِ وَصَلْنَاهَا بِأَيْدِينَا
وَرَى النَّاقَةَ تَطْرُبُ تَحْتَهُ إِلَى مَوَاطِنِهَا . وَتَشْتَاقُ إِلَى مَعَاطِنِهَا .
فَتَحْنُ حَنِينَهُ . وَتَتَنَّى أَيْنَتَهُ . وَكَلِمَارَاهَا تَشْكُو مِثْلَ شَكْوَاهُ . وَتَصْنِي
بِأُذُنِهَا إِلَى نَجْوَاهُ . وَتَرْدُّدُ بَرْغَائِهَا صَدَاهُ . وَتَسْعَدُهُ بِتَرْجِيعِهَا فِي
هَوَاهُ . تَأْوُهُ وَتَهْدُ . وَتَرْنَمُ فَأَنْشُدُ :

لَقَدْ زَارَنِي طَيْفُ الْخِيَالِ فَهَاجَنِي فَهَلْ زَارَ هَذِي الْأَبْلَ طَيْفُ خِيَالِ
لَعَلَّ كَرَاهَا قَدْ أَرَاهَا جَذَابَهَا ذَوَائِبَ طَلَحَ بِالْعَقِيقِ وَضَالِ
وَمَسَرَّحَهَا فِي ظِلِّ أَحْوَى كَأَنَّهَا إِذَا أَظْهَرَتْ فِيهِ ذَوَاتُ حُجَالِ
تَلَوْنَ زَبُورًا فِي الْحَنِينِ مُنْزَلًا عَلِيَّهِنَّ فِيهِ الصَّبْرُ غَيْرُ حَلَالِ
وَأَنْشَدَنَ مِنْ شَعْرِ الْمَطَايَا قَصِيدَةً وَأَوْدَعْنَهَا فِي الشُّوقِ كُلِّ مَقَالِ

ثُمَّ نَلْتَقِلُ إِلَى مَشَاهِدَةِ الْمَعَامِعِ الْمَشْهُورَةِ . وَالْوَقَائِعِ الْمَذْكُورَةِ .
فَقَرَى الدَّمَاءَ تَجْرِي أَنْهَارًا فِي الْوُدْيَانِ . وَالْمُهَيَّجَ تَسِيلُ انْحِدَارًا مِنْ
مِنْ مَسَائِلِ الْأَبْدَانِ . وَالْمَوْتَ وَاقْفًا يَحْصِدُ الرُّؤُوسَ . وَيَجْنِي نَفَائِسَ
النَّفُوسِ . وَالْفَارِسَ يَمْشِي فِي الصُّفُوفِ مِشْيَةَ الْخِيَلَاءِ . وَيَطْعُنُ

برحمه كل طعنة نجلاء . ثم ينشد في وصف أثرها . وبُعدِ غَوزها :
 طعنتُ ابنَ عبدِ القيسِ طعنةً نائِرَ لها تَفْدُّ لولا الشعاعُ أضاءَهَا
 ملكْتُ بها كَفَى فَأَنهَرْتُ فُتْقَهَا يَرى قائمٌ مِن دونها ما وراءَهَا
 يهون على أن تردَّ جراحها عيونَ الأَواشي اذْجَدتْ بلاءَهَا
 أو يقول فيها :

أضربُ الضربةَ الفَريغَ كَفَى البَا زلَ أحيَا لَهُ المَرَارُ مَرِيرا
 برَسوبٍ يَهوى الى ثَبَرَةِ المَا ءَ وَلو أَنه أَصابَ ثَبِيرا
 هدرُها يَسكتُ البليغُ ولو زَا د على المُصعَبِ الأغرِّ هَدِيرا
 كالقَلْبِ النَّزوعِ في القلبِ لَأَتَدُ بَطُ الأَدمَ الغَريضَ الزَّيرَا
 أسهرتُهُ وَأَهْلَهُ وَهِيَ كالمَغَدِ مورٍ نوماً تحسَّ منها شَخِيرا
 أو يقول في وصفها أيضاً :

غارَتْ وفارتْ وأَلْقَى مَنْ يَمارِسُهَا فيها العِمامُ أبدالاً مِنَ القُتُلِ
 وتَذكو شِعْلَةُ الحَرْبِ فلا تَنطَفِئُ نارُها . ولا يَخمدُ أوارُها .
 الأَ وقد غادرتِ النساءُ أَيامِي . والاطفالُ يَتامَى . والاموالُ نهباً
 منهوباً . والأَلاقُ سَلَباً مَسلوباً . والمدائنُ خاليةٌ خاوية . والقصورُ
 بائدةٌ بالية . والحربُ يَنخِذُ فيها القَوَى لَأَوهَى سَببُ . وينتصر
 الضعيفُ مِنْ حيثُ لا يَحْتَسِبُ . فكَم دالتْها الدُولُ ودارتِ الدوائرُ

وانثَلَّت العروش وسقطت الممالك بعد لواء العز المعقود . وبسائط
المجد الممدود . وذلك التناهى فى العَظُمُوت . والتمادى فى الجبروت .
وبعد أن لم يكن يدور فى الوهم سقوطها . ويخطر فى الخيال هبوطها .
كل ذلك يكون أسرع من لمح البصر . اذا نزل القضاء وحُمَّ القدر .
وكل مُلْكٍ مهما امتد ظله زائل . وعند التناهى يقصر المتطاوُل .
ثم أدخلُ به فى مطالعتنا الى حلقة حكيمٍ واعظٍ يسلب الالباب
بقوة بيانه . ويخب العقول بضوء برهانه . ويسترق النفوس بطلاقة
لسانه . ويقول فى حقارة الغنى وهوانه :

« ايها الناس والله لَدُنْيا كم هذه أهونُ عُنْدى من عُراقِ كلبٍ
فى يدِ مجذومٍ »

« والمختَرُ بين أن يستغنى عن الدنيا وبين أن يستغنى بالدنيا كالمُخِيرِ
بين أن يكون مالكا او مملوكا :

مَنْ سَرَّه أن لا يرى ما يسوءه فلا يتخذ شيئا يخاف له فقدا
« والحياة الطيبة هى حياة الغنى والغنى هو القنوع لانه اذا كان
الغنى عدم الحاجة الى الناس فأغنى الناس أقلهم حاجةً الى الناس ولذلك
كان الله تعالى أغنى الاغنياء :

غنى النفس ما يكفيك من سدِّ خَلَّةٍ فإن زاد شيئا عاد ذاك الغنى فقرا

ويقول في محاسن الاخلاق : « الجودُ حارس الاعراض والحلمُ
فِدَامُ السفيه والعفوُ زكاة الظفر والاستشارة عين الهداية وأشرفُ
الغنى تركُ المُنَى وكم من عقلٍ أسير عند هوى أمير ومن التوفيق
حفظ التجربة ومن لَانَ عودُهُ كثفت أغصانهُ ومن لانت كلمتهُ
وجبت محبته »

ويقول في مساوئ الصفات: « الكاذبُ في نهاية البعد من الفضل
والمُرأى أسوأُ حالاً من الكاذب لانهُ يكذب فعلاً وذلك يكذب
قولاً والفعل آ كَذ من القول . فأما المعجب بنفسه فأسوأُ حالاً
منهما لانهما يريانِ نقص أنفسهما ويريدان إخفاءهُ والمعجب بنفسه
قد عمى عن عيوب نفسه فيراها محاسن ويبيدها . وانى لأعجب للبخل
يستعجل الفقر الذى منه هرب . ويفوته الذى إياه طلب . فيعيش
في الدنيا عيش الفقراء . ويحاسب فى الآخرة حساب الاغنياء .
وأعجبُ للمتكبر الذى كان بالأُمس نطفة وفى الغد جيفة . وأعجب
لمن يغفل صبره ويشكو الى الناس دهره فان كان عدواً سرّه وان كان
صديقاً أساءه وليس مسرّة العدو ولا مساءة الصديق بمحمودة :

ولا تَشْكُ الى خَلْقٍ فتُشْمِتَهُ شَكْوَى الجريح الى العقبان والرواحم
« والعجز عجزان أحدهما عجز التقصير وقد أمكن الأمر والثانى

الجدّ في طلبه وقدّات

ويقول في ذكر الحياة والموت : « انما المرء في الدنيا غرض تلتضل فيه المنايا ونهبٌ تبادره المصائب ومع كل جرعة شرقٌ وفي كل أكلة غصص ولا ينال العبدُ نعمةً الا بفراق أخرى ولا يستقبل يومًا من عمره الا بفراق آخر من أجله فنحن أعوان المنون وأنفسنا نصب الخُتوف فمن أين نرجو البقاء وهذا الليل والنهار لم يرفعنا من شئٍ شرفًا الا أسرعنا الكرة في هدم ما بنينا وتفريق ما جمعنا وعجبت لمن نسي الموت وهو يرى مَنْ يموت »

ويقول في وصف العلماء . « الخيّر من العلماء من يرى الجاهل بمنزلة الطفل الذي هو بالرحمة أحقّ منه بالغلظة ويعمّدهُ بنقصه في ما فرط منه ولا يعذر نفسه في التأخر عن هدايته

ثم يختم وعظه بقوله :

الدينُ إنصافُك الأقوامَ كلّهمُ وأى دينٍ لا بي الحقَّ إن وجبًا
والمرءُ يُعييه قودُ النفسِ مُصْحَبَةً للخيرِ وهو يقودُ العسكرَ اللّجبا
اللهم اكفني بوائِقَ الثّقَاتِ ومكائِدَ الأصْدَقَاءِ »

ثم انتهى بصاحبِي الى مجلس محاضرات بين الادباء . ومفاكهاث بين الندماء . فنقرأ من لطيف بواذرهم . ورقيق نوادرهم . ما ينير

ظلمة الفهوم . ويجلو صداً الهموم :

لفظ كأن معاني السكر تسكنه فَمَنْ تحفظ شيئاً منه لم يفق
جزل يشجع مَنْ وَافَى لَهُ أَذُنًا فهو الدواء لداء الجبن والقلق
إذا ترنم شادٍ للجبان به لَاقَى المنايا بلا خوف ولا فرق
وإن تمثّل صَادٍ للصخور به جادت عليه بعذب غير ذى رَتَقِ
وهكذا قضيتُ مع الباشا زمناً ليس بقصير أستخرج له نفائس
الأعلاق . من بطون الاوراق . وأقتطف معه زهر الأدب العاطر .
من حقائق الكتب والدفاتر . الى ان قال لى ذات يوم . بين
ندم ولوم :

(الباشا) - إن أعظم ما آسف عليه اليوم تلك الايام التى أضعتها
من سالف عمرى فى ما لا يجدى ولا يفيد من مشاغل الدهر وملاهى
العيش وياليتنى كنت قصّرت همى منذ صباى على مثل هذه المعيشة
مع هذا التفرغ لاجتناء فوائد العلوم واقتناء فرائد الآداب مقتبطاً
سعيداً لا حاسداً ولا محسوداً أتقل من مطالعة الكتب الى
مذاكرة العلماء ومن مذاكرة العلماء الى مسامرة الفضلاء ومن
مسامرة الفضلاء الى مطارحة الادباء . ويعلم الله ان أسفى ليزيد
شدةً وإن ندمى ليعظم حدة كلما تذكرت ما كانوا يحدثوننى عنه فى

أيام دولتي عن مجالس العلم والادب فما كنت آبهُ بها ولا أنتبه اليها وكنت أظن أهلها قوماً من أهل الكسل والفراغ يجلسون للدفاتر والكتب كما تجلس النساء للغزل والرّذن والحمد لله الذي أرشدني الى الهدى آخرَ الدهر فعلمت مقدار هذه النعمة التي حبّبت اليّ الحياة ثانية وهوّنت عليّ احتمال متاعها وما إخالك تبخل عليّ بعد الآن وقد علمت نفع ذلك لي بمداومة السير معي في هذا الطريق الحميد وما أرى من بأس في أن تترك هذه العزلة حيناً بعد حين للاجتماع بالناس في مجالس الادب ومجامع الفضل وأندية العلم لتذاكر معهم ما نطالعه ونأخذ عنهم ما يحفظونه . وقد زالت المخاوف واطمأنت الخواطر بزوال الاوبئة والطواعين والحمد لله رب العالمين (عيسى بن هشام) — لا تطمعن أيها الاميرُ — دَفَعَ اللهُ عَنْكَ المكاره — في مثل هذه المجالس فقد طوتها الايام ورمستها الليالي ولم يبق اليومَ من يأنس اليها وينافس فيها

(الباشا) — كيف يكون ذلك وأنا لا أزال أسمع ما ترعّمونه من كثرة المدارس الآن وانتشار العلوم والفنون وتعدد الطالبين وسهولة الحصول على الكتب ووفرة المطابع وإطلاق الافكار من القيود . وأين هذا مما كنا عليه في الزمن الاول من تعسر الوصول

الى الكتب وتعذر استنساخها لضعف أربابها كأنها لديهم خفايا الكنوز حتى لقد كان الجاهلاء الذين لا ينتفعون بها ولا يفقهون منها شيئاً هم أول من يفاخر باقتنائها ويعتبرونها ضرباً من ضروب الزينة والزخرف كأنها اليواقيت والجواهر يعجز عنها من يروم الانتفاع بها إن لم يكن ذا ثروة واسعة تمكنه من استنساخها أو ابتاعها فلا بدع اليوم أن يكون في يد كل مصرى كتابٌ يطالعُه وأن يكون كل واحد منهم قد أصبح في العلوم والفنون أليفَ محاضرة وحليفَ مذاكرة تزدهى به مجالس الفضل وتزهو أندية الأدب وكيف لا يكون ذلك وقد ذقتُ من حلاوة المطالعة والمذاكرة ما أنساني حلاوة كل لذة في العالم

(عيسى بن هشام) - نعم شاعت العلوم في هذا العصر وترقت الفنون وكثرت المطابع وسهل على الناس اقتناء الكتب ومطالعتها ولكن قلَّ بيننا عدد الراغبين فيها والمطالعين لها فكسد سوقها وبارت تجارتها وأغفلها من ينتفع بها للاشغال بسواها من الامور الباطلة والاشياء التافهة ورغب عنها من كان يقتنيها للزينة لكثرة الانتشار والتبذل . والناسُ اليوم في حركةٍ لاشرقية ولاغربية قد اشتغل بعضهم ببعض واكتفوا من دهرهم بمحوادث يومهم فتعطلت

بينهم مجالس العلم واندرست مجامع الأدب واقتصروا على مطالعة
اخبارهم في الجرائد والصحف دون الدفاتر والكتب . وانى يكون
لهم الاستقرار في المجالس وهم لا يستقرون في مكان ولا يهدأون من
حركة ولا ينفكون عن غدو ورواح ولا ينتهون عن نقلة وسفر
واكثر ما يكون جلوسهم في المركبات مركبات الخيول أو البخار
أو الكهرباء . وأهل اليسار منهم يقضون جزءاً من شهور العام
مترجلين في بلاد الاحاب متنقلين في ديار الغربة للتمزّه والتفكّه .
وقصارى العلم عندهم أن تلقى الطالبُ أستاذاً منه في المدرسة
وأطرافاً وهو بالسنّ الذي لم يصل فيه بعدُ الى تمام التعقل وكمال
الادراك فيحفظها ويؤديها كالبيّعاء فان أسعده الحظ في آخر الدراسة
ونجح عند الامتحان تأبط صك الشهادة ونقض يده من تلك العلوم
وطرحها عنه طرح الثوب الخلق ونبذها نبذ القادِم على أهله ما أسنّ
من ماء وما جفّ من زادٍ انتقاماً لنفسه مما عاناه من مشقة وقاساهُ
من تعب في درسها وحفظها من غير أن يفقه لها مزية في ذاتها أو يذوق
لها حلاوة في طعمها فاذا هو بلغ إربته ودخل في خدمة الحكومة
أصبح كالعامل من العمال لا العالم من العلماء وقلّ فيهم بعد ذلك من
يصبو الى العلم وأهله أو يحنّ الى الادب وكتبه ولئن مال بعضهم

للمطالعة فإنها لا تتجاوز حدّ الكتب المتعلقة بأصول وظيفته ولذلك أصبحت كتب العلم والأدب مملولة منبوذة وثقل على الناس مطالعتها لما هم فيه من كثرة الحركة والتنقل وطول الانهماك في الاشغال المتجددة فلا يقوى احدهم على مطالعة صحيفة من كتاب الا وقد بلّله العرق ودهمه الكلال والملال ونزل به الضجر والسأم وإنك لترى مثل هذا بينا في حديثهم فهم لا ينصتون الى قصة متصلة ولا يتبعون في الكلام قضية مرتبة ولا يعجبهم منه الا ما كان متقطعاً مبتوراً أو مقتضباً مجزوماً

(الباشا) - ما اكاد أخليك ايها الصديق من غلو في وصف هذه الحال . وهل خلا أو يخلو زمان في البداوة كان او في الحضارة من مجالس للعلم ومجامع للفضل وأسواقٍ للادب وما كان زماننا الذي كنت فيه ليخلو من آثارها حتى لقد رأينا فيه كثيراً من الكبراء والامراء ممن لا نصيب لهم من العلم والادب لا يغفلون مجالسهم من وجود شاعر مجيد أو فاضل أريب أو نديم اديب او محدث ظريف تفكه به النفوس وتستريح له القلوب هذا والكتب بين الناس قليلة التداول والعلم بعيد تناول فما بالكم اليوم على هذه الحال التي تصف والصحف منشورة والكتب مطبوعة وأسماء العلوم مذكورة

(عيسى بن هشام) - قد استغنى كبراً ونا وأمرنا اليوم عن تزيين مجالسهم بالعلم والادب وقصروا همهم فيها على التفاخر بالمقتنيات المزخرفة والادوات المصنعة من عمل الغربيين فترى الكبير أو العظيم يقلب في يده العصا المضيئة بالكهرباء مثلاً أو الساعة التي ترن بعدد الثواني وهو يعتقد أنها أجل قيمة في العين وأجل أرباً في النفس من جميع العلوم التي تستضيء العقول بممارستها ومن جميع الكتب التي تصفو ساعات الحياة بمطالعها. ولا تتوهمن أنني اجزم لك بخلو هذا الزمن عن مجالس للعلم ومحافل للادب وما كان كلامي إلا على الوجه الأعم وقد آن أن أجيبك الى ما طلبت فأزور بك بعض المجالس والمحافل لينقطع ريبك وليطمئن قلبك

*
**

قال عيسى بن هشام - فتخيرت من مُتَدَيَات اليوم. ومجتمعات القوم. ما يقوم بوفاء العهد. وإنجاز الوعد. ليقف الباشا بنفسه على ما يجري فيها. من ظواهرها وخوافيها. ورأيت ان أبدأ منها بزيارة السادة الاعلام. من علماء الإسلام. مصابيح الدين. ونبارس اليقين. ونجوم الارشاد. ورجوم الإلحاد. ونصراء الحق. وحلفاء الصدق. وهداة كل ضالٍ ومارق. ودعاة الخلق الى معرفة الخالق.

تيمناً بشرف مكانهم . وتبركاً بنور إيمانهم . فقصصنا مجلساً لهم جمع كل أغرّ منهم محجّل . وكل معظم فيهم مبجل . فوجدناهم قدتبوّوا المقاعد . بين المقالم والمحابر . وتوسدوا الوسائد . بين المساعط والمجامر . فسلمنا وجلسنا . وتكلمنا واستأنسنا . ثم أطرقنا نستجمع قوى الإدراك والعقل . لنتلقت ما ينتثر عن أفواههم من درر العلم والفضل . وإذا بهم يخوضون منذ البداية الى النهاية . في حديث غريب الرواية لطيف الحكاية . فسمعنا أحدهم يقول لصاحبه فيما يبسطه ويقرره .
ويعيدده ويكرره :

(احد المشايخ) - لقد وهمت يا مولانا في زعمك ان امتلاك الاطيان والجسور خير من اقتناء الابنية والدور . فقد جربت كلاً الموردين واستقيت من المصدرين فوجدت دخل البناء أعظم ربحاً وأقل خطراً وأثبت حالاً في تعاقب الصعود والهبوط لا سيما اذا كان الصقع جيداً والموقع عامراً وكان الساكن فيه من جماعة الافرنج الذين هم أقل من المسلمين عيالاً وأخف على البناء وطأةً وأهون على الدار ثقلاً فلا يدقون ولا يطحنون ولا يعجنون ولا يخبزون ولا يفسلون ولا يستحمون ولا يقبلون عندهم اقارب او ضيوفاً ولا يملأون البيت خدماً وغلماً وبهذا يلتقي ما ذهبت الى تقريره

آتقاً من أن البناء سريع العطب متطلب لدوام النفقة
(شيخ ثانٍ) - ولكمك ايها الاستاذ حفظت شيئاً وغابت عنك
أشياء وتسرعت بالحكم على المسألة والقطع في القضية فأين انت
من بقية الطوارئ والنوازل في البناء وأين انت من الحريق والزلازل
اللهم الا ان يكون هناك خروجٌ عن رأى الجماعة ودخولٌ في مذهب
الذين يقولون بتحليل التأمين على البناء عند شركات الافرنج وادّخار
العوض فيها لسد الخسارة عند الخطب

(جميع المشايخ) - نعوذ بالله من شر البدع ونبرأ اليه من
تحليل المحارم

(شيخ ثالث) - وأين انت في الاطيان ايضاً من النداة والدودة
ومن الشرَق والغرق

(الشيخ الثانى) - من المسلم ان يصيب الاطيان بعض ما ذكرتنا
اياه ولكنها لا تزال بعينها باقية ويرجى فيها ان تعوض سنة خسارة
أختها اما البناء فانه يزول من اساسه بنكبة من تلك النكبات التى
تأتى بك بغتة وتنزل عليك فجأة وتذهب بالجدار هباء ولا سبيل الى
الانتفاع بأرضه الا بأنشاء البناء وتجديده

(الشيخ الأول) - لكم دينكم ولى دين . فلست أحوّل عن فكرى

ولا انزل عن رايي في فضل البناء على الاطيان وقد عوّلت على بيع
المنزل السكّان بحارة النصارى لأشترى بثمنه بعض الاطيان المجاورة
لاطيانى بناحيتنا لتخلص لى اطيان الناحية كلها

(شيخ رابع) - أيغرب عنكم بارك الله فيكم ان ربح التجارة
خير من هذا وذلك وهو الربح المستتر عن النظر المحتجب عن سوء
العينة المحفوف بالبركة والنمو على الدوام ومَنْ منكم بلغ من الثروة
بأطيانه أو أبنيته ما بلغه مثل الشيخ فلان رحمة الله على الجميع من
التجارة والبيع

(الشيخ الثانى) - نعم ان التجارة لكمّا ذكرت لولا ما فيها
من المشاغل والمتاعب ولولا ما تحدّثه من التلّقى عن العلم والدرس
(الشيخ الثالث) - لقد كان شيخنا المرحوم الذى نحن بصدد
يُعَدُّ من اكابر التجار وأعاضم اهل البيع والشراء فلم تلّه تجارتها عن
التقدم فى مراتب العلم والتعلّق بالمناصب العالية ولم تشغله عن إفادة
الطلبة بدروسه وتقاريره وبشروحه وحواشيه . وهؤلاء تلامذته
ممن تزدان بهم اليوم حلقات الدروس وتفتخر بهم مجالس العلم
يشهدون على ما أقول

(الشيخ الرابع) - متأسفاً متحسراً :

واذا السعادةُ لاحظتْك عيونُها نَمَّ فـالـمـخـاـوـفُ كـلَّـهـنَّ أَمـانُ
(شيخ خامس) - لَكِـمـا الأَـضـمـنُ عُنـدِي والـا وِثـقُ فـي هـذا الشَّـأْنِ أنْ
يُضـعُ المرءُ مـالـيـهٍ مـن فِضَّةٍ و نِضارٍ عـنـد مـن يثِقُ بـه و يَـعـتـمـدُ عَلَـيـهِ مـن خـيـرةِ
التِّجـارِ فـيـسْتَغـلُّ لـهُ فـي التِّجـارَةِ و يِضـاعِفُ لـه الرِّبـحَ و الـكـسـبَ فـيـأْتِـه مـن ذلـك
رِزْقُهُ عَفْوَاً صَفْوَاً بـدُونِ اسْتِغـالٍ فـكـرٍ او تـعـبٍ جِـسـمٍ او إِضـاعَةٍ و قـت
(شيخ سادس) - لَقَدْ فَاتَنِي أنْ اخْبَرَ كَمْ بـمـا سَمِعْتـه مـن فـلانٍ بـاشـا
و هـو أنْ الرِّبـحُ كـلِّ الرِّبـحِ اصْبَحَ اليـومُ فـي مِشْتَرَى أُسْـهـمِ الشَّرْكَاتِ و أَنـه
قَصـر سـعـيـه فـي نَـمـو الثَّرْوَةِ عَلَـيـهِ . و لـسـكـن مـا قـولـكـم دَامَ فَضـلـكـم فـي
هـذِهِ الـاِـسْـهـمِ و هـلْ يَحِلُّ التَّعـامُلُ بِهَا أَمْ يَحْرَمُ
(الجميع) - و هـذِهِ ايضاً بـدْعَةُ البـدْعِ

(شيخ سابع) - نَـمَّ و انْ كَانَتْ المِـسْـأَلَةُ خِـلَافِيَّةً . و لـيـس عـنـدِي
أَوْثَقُ و لا أَضْمَنُ مـن ادَّخـارِ ذَهِبٍ فـي صَنْدُوقٍ تَحْتَ يَدِي و أَمَامَ عَيْنِي
يَصْبَحُ لِي سَـلَـمًا و أَيْـتٌ عَلَـيـهِ آمِنًا . و عَلَيَّ ذِكْرُ فـلانٍ بـاشـا هـلْ عـنـدكـم
مـن خـبـرٍ عـن تـرَويـحِ ابْنَتِهِ مـن فـلانٍ بـك

(الشيخ السادس) - نَـمَّ بَلَّغْنِي أنْ الخِطْبَةُ تَمَّتْ بَيْنَهُمَا

(الشيخ السابع) - و مَتَى يَكُونُ العَقْدُ

(الشيخ السادس) - لا تَطْمَئِنُّ أَيُّهَا الاسْتَاذُ فـي الدَّعْوَةِ لِعَقْدِ الزَّوْاجِ

وتناول الهدية ولا يطمعن فيها أحد منا بعد أن علمتم أن جماعة الكبراء والعلماء قد حكروا عقد العقود على اثنين من أرباب المناصب العالية بيننا حباً في السمعة والرفعة فهم يتباهون يوم العقد مثلاً بوجود الشيخ محمد كما يتباهون ليلة الزفاف بوجود الشيخ يوسف (الشيخ الخامس) - الشئ بالشئ يذكر فهل بلغتم الدعوة الى عرس فلان

(الجميع) - نشهد أن الدعوة بلغت جميعاً

(الشيخ السابع) - نعم ولقد أجت سفرى الى الريف حتى أجيبها معكم

(الجميع) - أحسنت وأصبت فان المجاملة تقضى بذلك

(الشيخ الثالث) - والله لولا أن سعادة فلان باشا دعانى الى العشاء

معه فى هذه الليلة الموعودة وأن فى نفسى فضاء حاجة عنده لـكنت معكم أيضاً ولكنى اخاف ضياع الفرصة فقد روى لى سائق مركبتى ان عنده حصاناً عتيقاً هو فى غنى عنه وأنه مشابه لـحصانى فى الطول والشعرة ولى أمل أن أبتاعه من سعادته بعد العشاء بما طف من القيمة وخف من الثمن

(الشيخ الخامس) - ولكن عسى الله ان يكون مجلسه خالياً فى

هذه المرة من وجود مثل ذلك السفينة الذي شوش علينا مجلسنا حين كنتُ معك بسوء المجادلة فإنه خيبه الله كان يحتج علينا في تحليل التحلي بمصوغات الذهب بأن فلاناً من العلماء يحمل ساعةً من ذهبٍ غير ملفت إلى اختلاف المذاهب في هذا الباب ولو كان الشيخ الذي سماه ممن يهتدى بنور العلم لما جعل لمثل هذا السفينة سبيلاً في الاحتجاج علينا

(الشيخ الرابع) - قلُ ما شئت في هذه الايام التي اجترأ فيها أرباب الطرايدش على أرباب المائمه بمباحثتهم ومجادلتهم ومناقشتهم ومزاحمتهم لهم في علومهم وأين نحن من تلك الايام الماضية وما كان عليه العلم والعلماء من العز ورفعة القدر ووقوف الناس عند حدهم والتزامهم الصمت وحسن الاذعان والتسليم في مجالس العلماء مع التوقير والتعظيم والإجلال والاكرام اسكل من التسم بسمه العلم حتى كأنه قد كُتب على صدر كل واحد منهم نص الحديثين الشريفين : « العلماء ورثة الانبياء » و « علماء أمتي كانبيا بني إسرائيل » . وكيف لا يكون الخطب جليلاً والمصاب عظيماً أم كيف لاتنهل العين بالدم دون الدمع وهؤلاء المتمشدقون لم يكتفوا بالاقدام على مجادلة العلماء بل أقدموا على تجهيلهم في العلم وسعوا في ادخال بعض المعلوم المحدثه المبتدعه في

حلقات دروس العلم الطاهرة ليجعلوا كبار علماء الدين الذين لا يكثر ثون بهذه العلوم الباطلة كالتلامذة لهم فانظروا الى أين وصلت بهم الجراءة والوقاحة . على أن علومهم هذه ليست بنافعة في الواقع ونفس الامر ، وماهى والعياذ بالله الأمدرجة للزيغ ومزلة عن الصراط يستدرجهم الشيطان بها من حيث لا يشعرون وأنتم تعلمون أن في معرفة قواعد الحساب الاربعة مثلاً مايفنى عن التبحر والتعمق كما يفعلون في علم الحساب لتدرجوا بالطالب الى علوم الفلسفة الممقوتة ويبعثوه على الزندقة والاحاد وقانا الله كيد الخائنين ومكر الماكرين

(الشيخ الثالث) - وعندك من هذه العلوم أيضاً علم التاريخ فانه عبارة عن الاشتغال بالاقاصيص والاساطير ولا بد ان يجر صاحبها الى الخوض في سيرة الصحابة رضى الله عنهم وما وقع بينهم من الحروب مما نهى الشرع عنه بنص الحديث : « اذا أفضيتم الى ذكر أصحابي فأمسكوا » ويكفى من هذا العلم كله أن يحيط المرء بما جاء في « السيرة الحلبية » وحدها

(الشيخ الثانى) - خبروني ناشدكم الله ما هو هذا العلم من علومهم الذى يسمونه « الجغرافيا »

(الشيخ الثالث) - هذا هو الذي يقال له عندنا علم تخطيط البلدان ولو كان قاصراً عندهم على ذلك لما كان ضاراً ولا نافعاً ولكن ضرره عظيم ومغبته وخيمته بما امتزج فيه من نسبة الدوران للارض والسكون للشمس وتعليل حوادث السماء بتلك العلل المبتدعة التي يكذبها العيان ولا يقوم عليها البرهان مثل زعمهم ان مطر السماء من جوف البحر وأن السحاب أنجرة متكاثفة وأن الرعد والبرق من احتكاك السحب بضغط الهواء مما ينفي العلل المعروفة المعقولة بيننا ويناقض ما رواه كعب الاحبار من أن السحاب من ورق الجنة وأن الرعد صوت ملك يسوق السحاب وأن البرق لمعان حربية بيده . وأين هم حسبهم الله مما روى عن ثبات الارض وأنها محمولة على قرن ثور والثور محمول على صخرة والصخرة على ظهر حوت ساج في الماء وأن أول ما يأكل أهل الجنة من كبدة ذلك الحوت على أننا لو طالعنا كتبهم التي يرون أنهم فاقوا بها الأوائل والآخر بزعمهم ووصلوا بها في علم تخطيط البلدان الى ما لم يصل اليه سواهم بدعواهم لوجدناها عاجزة في الاحاطة والافادة عما بلغته « خريدة العجائب » وحدها للامام ابن الوردي فاننا لم نسمع أنه ذكر في كتبه من عجائب المخلوقات مثل ما ذكر منها في الخريدة كبلاد

«واق الواق» التي يثمر ثمرها بالسكواب الأتراب معلقة من شعورها في ذوائب الاغصان وكلما أشرقت عليها الشمس صاحت :
واق واق . سبحان الملك الخلاق . ومن مثل ما ذكر في «بدائع الزهور ووقائع الدهور» عن الشيخ حامد أنه بلغ في رحلته منبع النيل بعد أن عبر إليه البحر الاسود على ظهر دابةٍ يعبد الشمس فاذا أشرقت الشمس على أحد شاطئيه أتت الى ذلك الشاطئ ولا تزال دائرة مع الشمس حتى فصل الى الشاطئ الآخر . وقد رأى الشيخ حامد النيل يجري في ذلك البحر كالخيط الأبيض في الثوب الاسود ووجده يخرج من قبه من ياقوتة حمراء وراء جبل قاف وأن ماءه هناك أبيض من الثلج وأحلى من العسل وهذه القبة يخرج منها أيضاً ثلاثة أنهر وهي سيحون وجيحون والفرات . فهل وصل القوم الى معرفة مثل هذه الحقائق في بدائع المخلوقات الى اليوم وهل عندهم من أثر لذلك في كتبهم المحدثه وعلومهم المبتدعه
(الشيخ الرابع) - تالله أنا في زمنٍ أصبح القابضُ فيه على دينه كالقابض على الجمر في جانب هذه البدع الافرنجية «ومن يُضلل الله فما له من هاد»

(الشيخ الاول) - اذكروا الى بالله عليكم ماذا حصل طلاب هذه

العلوم الجديدة منها وماذا أقادوه وهل سمعتم يوماً أن أحدهم نفع
الناس فوضع لهم متناً أو شرحاً على متن أو حاشية على شرح أو تقريراً
على حاشية أو اختصر مطوّلاً أو طوّل مختصراً

(الشيخ الثاني) - ما أعجزهم عن مثل ذلك وأقصرهم وجل ما
في طاعتهم أنهم يكتبون المقالات في تعبيرنا بأبضاعة العمر في هذه
الاعمال النافعة ويسعون جهدهم في إبطال ما ندرسه منها وهل سمعتم
لعمر أبيكم بدين قام أو يقين رسخ أو شرع نفذ إلا بهذه الشروح
والحواشي ولكنهم لما قصرت أفهامهم وضائق قرائحهم عن استيعابها
وحفظها حسدونا عليها فارادوا أن يخطوا من هذه المزية الكبرى
حتى لا يمتاز عليهم بفضل ولله در القائل :

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه فالكل أعداء له وخصوم
(الشيخ الثالث) - صدقت صدقت وما أحكم قول الآخر :

وكم من عائب قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السقيم
(الشيخ السادس) - اطوا عنا هذا الحديث ولا تشغلوا أوقاتكم
بالكلام في أولئك الثرثرين المتفيهقين فلهم كتبهم ومدارسهم ولنا
علومنا ودروسنا والله يحكم بيننا وبينهم يوم القيامة

(الشيخ الخامس) - كان يجوز لنا السكوت عن منكرهم لو لم

يتمرضوا لنا ويمرضوا بنا في ما يسمونه بالجرائد فيملاؤوها بالانتقاد علينا والقدح فينا ويتطفلوا على موائد اللغة الشريفة ويفخروا بأنهم برعوا في فصاحة الوعظ والارشاد ونبغوا في جميع العلوم وسبقونا إليها . وإنما الجرائد أيضاً بدعة من البدع وفتنة من الفتن ولو شئنا لكتبنا وأملينا

(الشيخ الرابع) - ومع ذلك ففي كثيرٍ ممن طلب علينا العلم وسوّلت له نفسه الكتابة في الجرائد من قد فاقهم في طريقتهم وبذلّهم في ميدان فصاحتهم وهذا الشيخ فلان ذلك النابغة الازهرى قدّم الى بالامس مقالة مطبوعة له في الجريدة من أبلغ ما كتب الكتّابون وأفصح ما نشر الناثرون لا يمكن لاحد من أهل الدعوى أن يتعلق بغيرها أو يجري في أثرها والجريدة في محفظتي فإن أردتم ان أتلوها عليكم فعلت لتعلموا أن ليس لأولئك المغترّين من فضل علينا ولا مزيه دوننا

(الجميع) - أسْمِعْنَا أُسْمِعْنَا

(الشيخ الرابع) - يقرأ :

« عوامل الفتح الالهى طرأة التأثير بحكم باعث اعتدال راع في رعيته ومرعى مع راعيه ولما كانت القوانين الطبيعية تدعو الى

حفظ مزاج الجامعة من طوارئ الكوارث الدهرية التي اذا دعاها داعي التفرق والانقسام تلبّيه حيث هي النتيجة من مقدمات الاعتساف الذي هو مهد التخالف وبسط عدم التألف وكان الانسان بحكم نشأته ميالا الى اقرب العوامل تأثيراً فقد وجب أن كل أمة لابدّ لها من أمرين

« فالامة هي منزل الكمال . ومحتد الجمال . ومربع الامارة . ومطمح الاشارة . ومقصد العبارة . ومورد المحافظة . ومسند المحاضرة . وسجل المناظرة . وكال الناقص . ومرتب الشاخص . وهي الرابطة الاقوم . والحفاظ الانظم . فيها كل خير . ولها كل نفع وعليها كل ضير . ذات الحق . وحليفة الصدق

« وإني ليدهشني وقعاً وبدهاني صدعاً اصل جامع واثراً نافع ما نطقت به ألسن الحكمة من سواف العقلاء المفكرين وذوى الدراية المتوغلين وهو : « ان مبادئ التلاشي الاعم تحاذل عقلاؤها » أجل . إن هذا الامر ادعى الى ملح السوانح الفكرية والمسابقة في مضارها حتى يتبين طريق التلافي لاضرار التلاشي وذلك أن تحاذل العقلاء يفضي الى انقسام الوجهة وبانقسام وجهتهم تنقسم امة البساطة فيسود الإيفار وتحفّ مراكز العمران بالاطار ويتنفس فيها

مصدور الا كدار بزفرات هى . بدأ كل دمار وتولد الضغائن بين
الحميم والخليل والوكيل والاصيل فيمسى الحال بخيبة المآل إن لم
توفر شرائط الاعتدال ثم والعقلاء فى كل أمة هم اركان مجدها
وأعمدة قوامها وسراج سبجها ومفتاح أقفالها ومعمار أقدارها
ومصفة ادرانها ومشكاة أفرأحها فالأتحاد بينهم اقرب منه فيما بين
غيرهم على بصيرة من صيرورة التساهل فيه الى حد النخاذل الذى
هو أس المبادئ العقيمة . والمواجيد السقيمة . والعوامل السقيمة .
والضرورات الالئمة والبسطاء تباع فيما يسنونه لهم من قوائن
التزلف والاذلال والخرف إن كانوا متخاذلين وقوائن الحكمة
والمدينة إن كانوا متعاقدين متحدين وللناس قلوب يفعلون بها سوامح
الفكر . فى سُبُحات الذكر . وشطط النظر . ونوال الوطر . ولهم
آذان يسمعون بها منادى الحق . فى نادى الخلق . بنشر الرق .
الذى هو لوح الإِعتبار . ونظرة النظار . وصفوة الأخبار .
ومرتعب السباق . ومصطبر الأشواق . وبرنامج الما جريات .
وممثل الاحقاب للاعقاب وحافظ مامضى لما هو ات

« بنى وطنى من الاسف والاستغراب ان الاجانب أصبحت
وأُمسّت تدعى أنها متأسية بجميع السلف من مراعاة الشريعة فى جميع

الاطوار وأن بيننا وبين التأسى بها بونا بعيداً وأمداً مديداً . نعم هذا الادعاء وإن كان ليس بواقعي إلا أنه أجدى ثمرة وأمرأً يجب علينا أن نتنحى عنه وإن كان ليس مقصوداً للآجني وحققاً له أن يدعى لاننا معاشر الوطنيين لو لم نتصف بهذا الوصف حقيقة لما تفرقت كلمتنا وضعفت قوانا وساءت حالنا وأصبحنا في حالة يرثيها الراثون فلا حول ولا قوة إلا بالله . أين المتمسكون بالشرعية أين الغائرون أين الوطنيون المحبون لبلادهم الذين تربوا من خيرها وجعلوها مرتعاً ومحطاً لرجال الاجنبيين . أى فرق بيننا والحالة هذه وبين المعجم اذا لم تتأثر من هذه الاحوال والدواعى التى تصادمنا كل حين وأى داع يدعوننا للانتقاد على الاجنبيين فى أعمالهم التى يحددونها لغرض سياسي من الاغراض

« كلاً . ثم كلا إننا منذ تناءينا عن الجرى على النمط الشرعي أُلْمِت بنا الشوائب الأواء من كل صوب وفج وصرنا كمن بسط كفيه الى الماء ليلبغ فاه وما هو ببالغه أو كرجل أعمى أُلْقِيَ به فى الفلوات فأمتّه الأسود . فهذه حالتنا المأثورة التى بها تقاعدنا وتقدم الاجانب إبنى بهذا الصدد أقول إن الاتحاد هو حفظ الامة من أيدي الغير عند ما يريد المساس بها والدخول فى أحوالها الشخصية التى لا تعلق

له بها بأى حال من الاحوال واليكم البيان المسألتان اللتان مَضَتَا
ورُفِتَ بسببهما أستاذنا المفضل حين ما قام يساعد صاحب السماحة
لخدمة الوطن الحقّة فاتحدا ولولا ذلك لحل ما حل بأهل الاندلس
وزاد الطنبور نعمة فسبحان مدبر الاحوال « انتهى والله أعلم
(الشيخ الاول) - ماشاء الله لا قوة الا بالله لقد أحسن وأجاد.
وأدّى عبون الحساد

(الشيخ الثانى) - صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان
من البيان لسحرا »

(الشيخ الثالث) - نعم ان هذا هو السحر الحلال . والعذب الزلال

(الشيخ السابع) - تبارك الله ما أبلغَ وأفصح . وأبينَ وأوضح

(الشيخ الخامس) - بارك الله فيه . فلقد نثر الدرّ من فيه

(الشيخ الرابع) - ألم أقل لكم إننا لو أردنا لكتبنا ولو عمدنا الى

الكشف عما تكنه الصدور من أنوار العلوم لأخرسنا كل ناطق

وأزينا بكل كاتب وناثر ولكن ليس من الحكمة أن نبذل الجوهر

لمن لا يعرف قيمته ولا الوعظ لمن لا يراعى حرمة

قال عيسى بن هشام - وما وصلنا من المجلس الى هذا الحد . حتى

قام الباشا يُزجر كالأسد الورد . وجذبني بيده للقيام . من غير

إذن أو سلام . فخرجت معه وهو يوا الى الحسرات . ويتابع الزفرات
وينشد معي في أهل هذا المجلس الأول . قول الأول :
ما فيهم بُرٌّ ولا ناسِكُ إلا الى نفع له يَجْذِبُ
أَفْضَلُ مَنْ أَفْضَلِهِمْ صَخْرَةٌ لا تَظْلِمُ النَّاسَ وَلَا تَكْذِبُ

* *

قال عيسى بن هشام - واستنهضت الباشا أزور به مجلساً من تلك
المجالس المكدودة . والأندية المكدودة . مجلس الوجهاء والتجار .
بعد مجلس العلماء والأخبار . فشهدتُ منه أزوراراً وانقباضاً .
ووجدت فيه انحرافاً وإعراضاً . ثم التفت الى يعاتبنى عتاباً شديداً .
ويوسعني عدلاً وتفنيداً . ويقول لي ما عهدت منك منذ صاحبتك
الا خير لي تريده . والنفع نبذوه وتعيده . وما زلت اشكر لك
تلك اليد البيضاء . في العزلة عن الناس والتخلص من مواقف القضاء
دفعاً لما كنت تحذر وتحشى . من شر الخاتمة وسوء العقبى . بزاحم
الاحزان . وتراكم الاشجان . وما تعقبه من السقم والاعتلال .
وسوء النكسة بعد النقه والإبلال . فما بالك تستهضني الى مثل
هذه المجمع والمجالس . بعد الذي رأيناه في مجلس اصحاب القلائس
والطياس . ذوى العلم والتقى . وأهل الرشد والنهى . مما تذوب

له العيون الجوامد . وتتفجر عنده صمُّ الجلامد . ويفضُّ له
 اهلُ الاسلام من المشرق الى المغرب . ولا يرضى به صاحبُ
 العرش في السماء ولا صاحب المقام يثرب . وقد شاهدتني يكاد
 يصيني الماء . من شدة الحزن والاسف . فقلت أشهد الله ما
 أبغى لك الاخير والنوفيق . في كل مذهب وطريق . وقد رأيت
 التجارب أو سعتك كرمًا وحلما . وصرّوف الدهر اكسبتك معرفةً
 وعلمًا . بعد قلة الاختبار . وكثرة الاغترار . وسوء الابتدار . في
 الايراد والإصدار . وما كان فيك من خشونة الملمس وشموخ
 الأنف وضيق العطن وصلف الرأي . وما أحب لك بعد ذلك أن
 ترى في أمور الناس الا مشهداً يسلى عن الكرب . وملعباً يفرّج
 عن القلب . فلا يكن نظرك الى أعمالهم في غدوهم ورواحهم . وفي
 أفراحهم وأتراحهم . وبعيمهم وبؤسهم . ورجائهم ويأسهم . مثل
 نظر الحكيم «هيراقلط» . بل مثل نظر الحكيم «ديموقريط» .
 كان الاول يشاهد أمور الناس فيبكي ويتحسر . وكان الثاني يراها
 فيضحك ويسخر . فاذا أنشد أحدهما في بصرة مدهبه :
 الناسُ من دنياهمُ في مآتمٍ فالسُحْبُ تبكي والرواعدُ تنذبُ
 أنشد الثاني في تأييد مشربه :

هذه الحياة رواية لمشخصٍ فالليلُ سِتْرٌ والنهارُ الملعبُ
ومن صواب الرأي ان لا تذهب نفسك عليهم حسرات ولا
تذرف عينك من أجلم العبرات . وهلمَّ معي أمتعك بزيارة مجلس
يؤنس من وحشك . ويكشف من غمّتك . فأسلس مطاوعمًا
في القياد . ووافقتني على ما تمنّ له من الرشد والسداد . فيممتُّ
به داراً عالية الجدران . واسعة الأركان . شائفة البنيان .
لأحد التجار الاعيان . فراحمنا عند الباب سائس يسحب فرساً صعباً
مطيعاً . ويحمل على كنفه طفلاً رضيعاً يقول وقد أظهر الغيظُ
بواطنه الكامنة : لست أدري والله أسائس أنا أم حاضنة . ومن
ورائه آخر يحمل صفحةً متدفقة بالخلل . يقول وقد تلوث بمائها
وتبلل : على ما أُنعب في هذه الدار وأشقى . والى ما يدوم هذا الشقاء
ويبقى . ولست أدري والله أسائق أنا أم سقّا . ولما ولجنا الباب .
إذا بالبوّاب . يقول وفي يده صُرّة ثياب : لا مردّ للمقدور والمقضي .
ولا رجاء في العيش الرخي . والله ما أدري أبوّاب أنا أم خصي .
ولما جاوَزنا دهليز المكان . الى باب الإيوان . وجدنا عنده غلاماً
فتي السن . يتهد ويئن . وبين يديه دخان وورق . وبجانبه كتاب
مطبوع . وهو يقول : عجباً والله للوالد يشغل ابنه بسجاراتٍ

يحشوها . فيلبيه بها عن دروس له يتلوها . لا غرو إن فاضت العيون
بسوا كبها . واحتترقت القلوب بلواهبها . فما أدرى والله أفرأش
الدار أنا أم ابن صاحبها . فما أحسن بنا حتى انتفض قائماً . وتقدم
مساماً . ثم ذهب أمامنا . ليذكر قدومنا . وإذا بالوالد مقبلاً علينا
يتكفأ في مشيته . ويتعثر في جبينه . فسهل بنا ورحب . وبالغ في
التحية وأسهب . ودخل بنا على اهل مجلس مختلفى الازياء والهيئات .
متباينى الأشكال والسمات . فمن صاحب عمامة يتعهد بيده رصفها .
وآخر يحدد لفها . ويحبك بالابر طرفها . ومن صاحب طربوش
قدأماله على جبينه . فاذا تحرك أسنده بيمينه . فترى يده أبداً لا تسكن
ولا تستقر . كأنما هو في تأدية سلام مستمر . ووجدناهم جميعاً قد كثر
بينهم اللغو واللفظ . وسمعناهم يتحاورون على هذا النحو والنمط :

(أحدهم) - نعم لا بد من ذلك اذا يسر الله وتم الاتفاق مع الخواجة
فلان فان إقامه عمارة أخرى بجانب تلك العماره مما يأتى بأرباح
لا يمكن أن تأتى بها الاشغال التجارية وأنا أنصحك يا أبا هاشم أن
ترك التجارة جانباً فقد أصبحت الآن ولا نفع يُرحم منها وتوكل
على الله في الاشتغال معنا بالابنيه فهي أنجح وأربح

(الثانى) - ومن أين لى زادك الله من النعمة والبركة ما يساعدى

على هذا التوسع والحالُ على ما تعلم ضعيفة والحمد لله على نعمة الستر
فهى الغنى الكامل

(الاول) - لا تقل هذا أيها السيد « وأما بنعمة ربك فحدث » .
ودعواك ضعف الحال إن هى إلا تواضع منك والله يُزيدك فضلاً
على فضل

(الثانى) - أستغفر الله يساعد البك هذا حسن ظن منك والآن
فالحقيقة غير ما ظننت وقد قلت لك إن الستر هو الغنى الكامل وعلى
كل حال فالبركة فى التجارة فمنها كان رزق الآباء والأجداد. وريح
مستور أبرك من ربح مشهور

(ثالث) - تالله إنكم لفي ضلالكم القديم وهل بقى فى التجارة التى
زاحمكم عليها الأجانب ربح يذكر أو رزق يُطلب فاتركوا هذه
السفاسف وعليكم بأشغال الاقطان فى البورصة فهى الربح المضاعف
والرزق الحاضر يأتىك رغداً بلا كد ولا تعب وكم رأينا من فقير
ولج البورصة فخرج بفضل المضاربات غنياً كبيراً وهذا صاحبنا
الخواجه فلان اليهودى وفيكم من أدرك والدته تبع الخبز بالحارة قد
مارس تلك الاشغال فاصبح أكثر الناس مالا وارفعهم حالا ونحن
لا نزال على ما تركه لنا الآباء والاعمام رحمة الله عليهم

(رابع) - ولكن فاتك أيها السيد أن صاحبنا هذا الذي تعنيه لم يصل الى ذلك الا بأشغال السمسرة وفيها من الحطّة ما لا يخفى عليكم . وهل تريدون ان ينزل احدٌ منا بنفسه الى هذه الاشغال بعد أن عشنا مثل هذا العمر

(الثالث) - حاشا لله أيها السيد وليس هذا من قصدى وانما أردت أن ابين لكم أن هذا اليهودي دخل البورصة سمساراً لا يملك مالاً فأصبح من كبار الاغنياء فما بالك بمن يدخلها وهو صاحب ثروة . لا شك أنه يُخرج منها بعد مدة قصيرة قارون زمانه

(خامس) - ما وراء الربح الكثير الا الخسران الكبير وقد شاهدنا بأعيننا ما أنتجتُه اشغال البورصة من تخريب البيوت العامرة وتبديد الغنى الواسع وانحطاط العماد الرفيع وأرى أن الإقدام على هذه المهالك من الجنون المحض « فالله خير حافظاً »

(سادس) - اما أنا فلا يُلدغ المؤمن من جحر مرتين وكفاني تأديباً ما تكبدته من الخسائر في تلك المضاربات على الاقطان ولولا فضل الله وبركة دعاء الوالدين لما نجوتُ من الخراب

(الثالث) - لاحول ولا قوة الا بالله إنك لاتهدى من أحيت كيف تخشون الخسارة في أشغال الأقطان وتوقعونها والربح فيها

مضمون مع بعض الانتباه لمجرى الاخبار وحسن التخمين في الاحصاء
وتقدير المحصول والمطلوب للتسليم ومع القليل من الممارسة والجراء
في العمل

(سابع) - كيف تدعى ذلك حفظك الله وهذا فلان المشهور
قد انقطع لهذا العمل واجتمعت فيه معداته فما زال يهوى في بحر
البورصة حتى وصل في الخسارة الى القرار وإن كان لا يزال ظاهراً
في أعيننا بمظهر الغنى الواسع والمال الجم

(ثامن) - سبحان الله ألا تعجبون معى من اتساع الشهرة بيننا
بالغنى والثروة ثم لا يلبث أن ينكشف الحال عن القلة والضعف فكم
سمعنا بأن فلاناً صاحب ثروة تقدّر بألوف الألوف ثم يظهر الخفي
ويتضح الباطن فلا تبلغ الحقيقة معشار تلك الشهرة الكاذبة

(الخامس) - نعم صدقت ألم تروا الى المرحوم فلان كيف كان
يفخرنى في كل مجلس عند ما أخذت الرتبة بأنه اكثر منى مالاً وأعظم
ثروة وأن مقامه بذلك رفيع ومرتبته سامية فلما توفاه الله انكشفت
الحال ولم يرث عنه اولاده ما يكفي لبقاء بيته مفتوحاً وبقاء اسمه
مذكوراً وقس على ذلك أمثاله من هذا القبيل فسبحان الغنى الدائم
(الرابع) - دَعُونَا بِاللّٰهِ مِنْ ذِكْرِ الْاَوْلَادِ وَالْمَوَارِثِ فَانِّىْ كَلِمَا

تذكرت اخلاق أبنائنا في هذا الزمن ورأينا ماوصلت اليه ثروة فلان وما انتهى اليه حال أولاده من الفقر والضعف بعد أن بددوا تلك الاموال الطائلة واصبح ذكر أبيهم بينهم نسياً منسياً فلايزورون له قبراً ولا يطلبون له رحمة - هان على أن أنفق ما في حوزتي في حياتي وان أتمتع بأموالي في مدة عمرى

(الخامس) - معاذ الله ان نفعل ذلك بأبنائنا وما فائدتنا في هذه الدنيا اذ لم نجمع الاموال ونذكر الثروة لآعقابنا ونترك لهم ما يغيثهم عن سؤال اللئيم بعدنا . ولا تجعل الذنب كله على الاولاد في تبديد الموارد بل الذنب كل الذنب على الآباء الذين يتركون اموالهم هملاً بعد موتهم ويغفلون عن تقييدها بالوقف فينتفع الاولاد بالريع وتبقى العين قائمة والبيت مفتوحاً والاسم مذكوراً ولا يحتاج أحد من الذرية وذرية الذرية مع وجودها الى

(السادس) - لا مؤاخذه يا سعادة البك في مقاطعة الحديث ألم تسمع بما حصل في وقف فلان وفلان وغيرها وكيف اغتال النظار حقوق المستحقين وذهب الوقف ضياعاً بين القضايا والدعاوى والديون حتى آل النظر والاستحقاق فيها لليهود واندثرت البيوت وعفت الآثار وذهبت أسماء اصحابها كما ذهب أمس قبل اليوم

(السابع) - نعم ينفع الوقف ويبقى الميراث على شرط ان يكون بمثل الشروط التي وقف بها المرحوم فلان . فانه خصص جانباً من الربيع لذريته واشترط أن يحفظ الباقي ويدخر وكلما تكوّن منه مبلغ عظيم يُشترى به عقار ثم يوقف ويضاف الى الوقف الاصلى ليكون في نموٍّ متواصل على توالى الايام وصروف الحدّثان وبذلك يصير البيت في درجة عالية من الغنى بعد وفاة صاحبه فوق ما كان عليه في ايام حياته فأنعم بها من طريقة وأحسن بها من وسيلة

(الثالث) - ايس ذلك من الحزم في شيء ولكنه التغالى في البخل والشح ومحبة الادّخار بعد مفارقة الحياة ولقد حرّم المرحوم نفسه من التمتع بماله في حياته وحرّم اولاده منه بعد موته بابتداع هذه الطريقة الغريبة في شروط الوقف

(الاول) - أطلب منك العفو والسماح وعدم المؤاخذة فَمَنْ يقول ان المرحوم كان شحيحاً مقترراً قد والله عاشرتهُ الزمن الطويل فما رأيته يحرم نفسه أو يقتّر عليها . وما كانت مائدته لتخلو من الضأن او الحمام أو الدجاج وحقّ جدك وانما كان الرجل حازماً لا ينفق ماله الاّ في الوجوه النافعة

(الثاني) - لا اعتماد عندى في هذا الباب على الوقف أو الملك

خير ما يدخر الوالد لأبنائه وأفضل ميراث لهم أن يحسن تعليمهم
وتهذيبهم في المدارس وان لا يعودهم في حياته الانفاق والتبذير
بل يروضهم على التوفير والتدبير ومعرفة قدر الدرهم والدينار

(الاول) - وهل جاءتنا المصائب في أولادنا الا من هذه المدارس
وتعليمها وهل زادهم ذلك التهذيبُ الاماشئت من الفظاظه والوقاحة
والكبرياء والمكابرة ولقد أدهشني فلان بالامس واضحكني في شكواه
مُرّ الشكوى من حال ابنه المتهذب المتعلم في المدارس والمجالس إذ
قال لي في حديثه : ما زال هذا الولد يزيد في تعذبي وتكديري
منذ خروجه من المدرسه فأصبح لا يكلم أهله الا بالرطانه ولا يعرب
عن غرضه الا بالتعنيف والتأيب ولا يرضى عن شئ في البيت . فاذا
جاؤا له بالماء قال فيه المكروب واذا أتوه بالخبز والجن قال على
بالمكرسكوب ثم ترى الشقي يقسم الأ طعمة أقساماً فيقول البيض
واللبن غذاء كامل والخضر غذاء ناقص لا ينفع ولا يمرى وان الأرض
وما شابهه من « المواد النشائية » لا فائدة منها سوى انها تحترق
كالوقيد في الجسم وما زاد منه عن الحاجة فهو شحم يغلظ به الجسد
وتورم به الاعضاء وأن الفواكه لا بد أن تؤكل من ساعتها اذا
تشقت وخصوصاً البطيخ لأنه أسرع قبولاً لتولد الحيوانات السامة

وهلم جراً حتى حُرّ الخبيثُ أهلَ البيتِ في طعامه وشرابه فوق ما حَبَّرني في اختلافِ ملبسه وتعدّدِ أزيائه وكلما عارضتهُ في شيءٍ شمعُ بأنفه استكباراً وآوى عنقه استحقاراً وسخرَ بي لجهلي ونخرَ عليّ بعلمه . هذا هو منتهى التأدب الذي يكتسبه أبناؤنا من علوم المدارس يتعالون على آبائهم ويعبّرونهم بجهلهم بعد أن كان الولد كالبنْتِ البكر في الزمن الماضي لا يرفع طرفه في وجه والده حياءً ووجلاً وكان لا يجرأُ على مكالمته الا محيياً عن سؤال من صغره الى كبره (الثاني) - ولكن فأتك ان تعليم أبنائنا في المدارس يفيدنا فائدة عظيمة يُغتفر لها كل ذنب وهي دخولهم في سلك الموظفين في الحكومة وارتقاؤهم المراتب والمناصب وياليت آباءنا كانوا التفتوا في أيامهم الى تعليمنا في المدارس فكنا استغنيانا عن ممارسة التجارة وذل البيع والشراء وكساد السوق وترويج السلعة بالاقسام والأيامان فما العيش الا عيش الموظفين الذين يأخذون مرتبتهم في آخر كل شهر نقداً عيناً وذهباً خالصاً دفعة واحدة سالمة لا أيديهم بلا مظل ولا تسويق في مقابل جلوسهم بالديوان ثلاث ساعات من كل يوم يقضون الجزء الاعظم منها في المسامرات والمفاكهات ثم ناهيك عما لهم بين الناس من التوقير والتعظيم وما في قدرتهم من مساعدة

لأصحاب ونكايه الأعداء . ورأس المال في ذلك كله الإحاطة
بضعة كتب في المدرسة . فأخبرني حينئذ أيّ ربح في التجارة وأيّ
أن لها يوازي هذا الربح وهذا الشأن في خدمة الحكومة وسبجان
ن قسم الحظوظ فلا عتاب ولا ملامة

(الرابع) - كل هذا معلوم ومسلم به ولكن من أين لك أن ينال
بنك الشهادة وانت تعلم حال القابضين على زمام المعارف فقد خرج
كثير أبنائنا من المدارس بلا شهادة وخسرنا عليهم الأموال في
نفقاتها ومن صادفته العناية منهم ونال الشهادة مثل ابني فانه لم يزل
مردد على أبواب الحكومة في تطالب الوظيفة والوظائف مشحونة
بنظار الحكومة على ما نعهدهم من ضعف الهمة

(السادس) - عسى الله أن تبدل الأحوال وتسقط هذه الوزارة
يعنّ علينا برجوع أو تلك النظار الذين يهتمون بمصالح أهل البلد
وأبناء الوطن فترى حينئذ كيف يكون تقدم أبنائنا في المناصب

(الخامس) - حقا إذا ذهب هؤلاء النظار وعاد صاحبك الى
لوزارة فقد أقبل علينا السعد وانجلت الكروب وصفت الاوقات
وأنا أرجو أن لا تنسى ابني عند السعي لانجالك فقد كان معهم في
مدرسة واحدة وهو دائما يطالع الجرائد ويتقرب الحوادث التي

يكون من ورائها سقوط هذه الوزارة

(الثامن) - أراكم تخبطون في أمر أولادكم على غير هدى .
والأصوب عندي أن نعلمهم العلوم ليكونوا أسوة أهل زمانهم معرفة
واطلاعاً لا لأجل التوظيف في الحكومة والخروج عن طبقاتهم .
وأما من جهة حفظ الموارث في أيديهم بعد مماتنا فأحسن الطرق
أن لا نقر عليهم في النفقة أثناء حياتنا وأن لا نتركهم بمعزل عن
أشغالنا بل نخصص لهم قسماً من المال يشتغلون به على حدتهم تحت
أعيننا ليعلموا على العمل ويدركوا لذة المكسب بأنفسهم فتربى
لهم ملكة الحرص على المنافع وينتفعوا بعلومهم في اتساع تجارتهم
والتفنن في أبواب المراجعة . وقد جربت ذلك في أولادى وأنا
أرجو فيهم الخلف الصالح ان شاء الله

(السادس) - هل جاءت جريدة اليوم

(صاحب البيت) منادياً لابنه - إئتنا بالجريدة واقراها علينا

(يخضر الغلام وفي يده الجريدة ناشرها)

(الاول) - اقرا لنا من الاول

(الغلام) قارئاً - « الحرب »

(السادس) - هل وقعت الحرب

(الغلام) - ليس يتبين ذلك من أول المقالة

(السادس) - اقرأها من آخرها

(الخامس) - أتركها من أولها الى آخرها واقرأ في « المحليات »

فلا فائدة لنا في وقوع الحرب أو اجتنابها

(الغلام) قارئاً - « تأليف الشركات »

(الرابع) للسادس - لا يذهب عن فكرك مشروع الشركة

الوطنية التي كنا تكلمنا في تأليفها من المشتري الاطيان المعلومه من الحكومة

(الخامس) - ان شاء الله يكون لنا نصيب معكم في هذه الشركة

(الثالث) - من أعضاؤها ومن الرئيس

(السادس) - أعضاؤها فلان وفلان وفلان ورئيسها فلان

(الثالث) - معاذ الله ان أقبل الدخول مع فلان في شركة وهل

نسينا ما وقع منه

(الثاني) - وأنا لا أقبل الدخول في شركة بعد تلك الشركة المشهورة

بخبية المسعى ما لم اكن أنا الواسطة في مقابلة الحكام والمداولة معهم

(السابع) - وأنا لا أقبل الدخول فيها الا اذا كانت أسهمى

في التأسيس أكثر من فلان

(الاول) - وأنا لأقبل ان يكون فلان رئيساً على في شركة ابدًا
قال عيسى بن هشام - واشتدَّ بينهم الجدال والخصام فحملت
العيونُ وعبست الوجوهُ وتحركت الضغائن وثارت الاحقاد. ورأينا
كل واحد منهم يضمراً لآخيه من الشر والأذى . ما لا يضره القرن
لقرنه في ساحة الوغى . فانصرفنا عنهم وتركناهم يمحج بعضهم في
بعض . كأنهم في موقف الحشر ويوم العرض .



قال عيسى بن هشام - وسرنا الى زيارة مجلس من أرباب الحكم
والولاية . وذوى السياسة والدراية . ممن بيدهم حلُّ الامور
وعقدُها . وبمَلِكِهِمْ شقاء الامة وسعدُها . الناشئين في مهد المعارف
والعلوم . والنابعين في أشتات المنطوق والمفهوم . والموصوفين بدقة
النظر وبُعد الهمم . والواقفين على اخلاق الخلق وعادات الامم . الذين
تنكشف لضوء آرائهم غياهبُ الخطوب الداجية . وتقاد لطف سياستهم
أزْمَةُ القلوب الآبية . فوصلنا الى دار يزهر بياضُها . ويبهر إيماضُها . قد
ضربت عليها المحاسنُ أطنابها . وخلعت عليها الزخارفُ جلبابها . فسار
بنا الخدم الى حجرة في جانب الساحة . أعدت للانتظار والاستراحة .
واذا برجلٍ جالسٍ فيها يتمايل بين يقظان ووسنان . فرأسه ككرة

والكَرَى صولجان . فلما أَحَسَّ بِقَدُومِنا ودخولنا عليه . انْتَبَهَ . يَزِيحُ النعاسَ
باصبعه عن عينيه . فَسَلَّمْنَا فَسَلَّمَ . وَهُوَ يَتَثَاءبُ وَيَتَلَعَّمُ . فَخَلِيلُنَاهُ مِنْ
ظَاهِرِ جَمَلَتِهِ . وَبَسَاطَةِ هَيْئَتِهِ . أَنَّهُ صَانِعٌ مِنَ الصَّنَاعِ . أَوْ تَبَعٌ مِنَ
الْأَتْبَاعِ . وَلَكِنْ مَالِثٌ أَنْ ظَهَرَ لَنَا مِنْ مَخَاطِبَتِهِ لِلْغَلَامِ . أَنَّهُ ذُو رَحِمٍ
فِي الْبَيْتِ وَذُو مَقَامٍ . ثُمَّ التَفَتَ إِلَيْنَا يَخَاطِبُنَا وَيَقُولُ . بَعْدَ أَنْ ذَهَبَ
الْخَادِمُ مُسْتَأْذِنًا فِي الدُّخُولِ : « قَبِّحَ اللَّهُ الْخِدْمَ . فَهِيَ تَقْمَةُ مِنَ النِّفَمِ .
شَرُّهُمْ حَاضِرٌ . وَخَيْرُهُمْ نَادِرٌ . وَالْعَنَاءُ بِهِمْ لِبَسِّ لَهُ آخِرٌ . فَكُمُ اغْضَبُوا
حَلِيمًا . وَأَذُوا كَرِيمًا . وَكُمُ كَسَرُوا الصَّحِيحَ . وَخَلَطُوا الصَّرِيحَ .
وَكُمُ ارْتَكَبُوا جُرْمًا وَإِثْمًا . وَجَاؤُوا إِفْكًا وَظُلْمًا . وَكُمُ فَتَحُوا الْأَغْلَاقَ .
وَاخْتَلَسُوا الْأَعْلَاقَ . وَكُمُ أَحْدَثُوا الشَّقَاقَ . وَأَذْهَبُوا الْوَفَاقَ . وَكُمُ
فَرَّقُوا بَيْنَ الْمَرْءِ وَأَهْلِهِ . وَحَالُوا بَيْنَ الْفَرْعِ وَأَصْلِهِ . وَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ
فِي الدَّارَيْنِ . فَقَدْ ذُقْتُ مِنْهُمْ الْأَمْرَيْنِ . وَكَادَتْ يَصِلُ بِنَا أِفْعَالُهُمْ
الشَّنِيعَةُ . إِلَى مَا لَا يُحْمَدُ مِنَ الْخِفَاءِ وَالْقَطِيعَةِ . وَإِنِّي حَرَسَهُ اللَّهُ يَنْظُرُ
وَيَفْضِي . وَيَتَحَمَّلُ مِنْهُمْ مَا لَا يُرْضَى . وَهُمْ يَتَجَنَّبُونَ عَلَيْنَا وَيَنْتَصِرُونَ .
وَإِذَا أَمَرْتَهُمْ بِأَمْرٍ لَا يَأْتُرُونَ . وَيَشْهَدُ اللَّهُ أَنِّي كَلِمَا رَأَيْتُ مَالَ ابْنِي
فِي أَيْدِيهِمْ يَتَبَعَثُ وَيَتَبَدَّدُ . وَثِقَتُهُ بِهِمْ تَتَضَاعَفُ وَتَتَجَدَّدُ . ذَابَ الْفُؤَادُ
فَسَالَ مِنَ الْعَمُونَ . مَشُوبًا بِمَاءِ الشَّوْءُونَ . وَأَمَّا وَكِيلُ الْبَيْتِ وَمَا أُدْرَاكَ

ما الوكيل . فحسبنا الله ونعم الوكيل . فتى لا تخطىء في النفاق مخيلته .
ولا تطيش في البيت حيلته . دأبه المكر والخداع . وديدنه الشقاق
والنزاع . يرضى طفلاً . ليسخط كهلاً . ويتملق للجارية في الحرم .
وللو صيف من بين الخدم »

هذا وما زال الرجل يشكو ويتضجر . ويتأفف ويتحسر . فلم
ينقذنا من هذه الشكوى التي تُصم الآذان . إلا رجوع الغلام بجواب
الاستئذان . فاتهينام من شقشقة لسانه . وحمدنا الله على كرمه وإحسانه .
ثم اقتفينا أثر الغلام الى حجرة بادية الرؤاء . مضيئة بالكهرباء .
مفروشة بأثمن فراش . وأبدع ريش . على اختلاف في الاجناس
والانواع . وتباين في الاشكال والاوزاع . فالتحفة الشرقية
تقابلها الطرفة الغربية . وآنية الذهب . يضارعها آنية الخشب .
فوجدنا المجلس حافلاً بأهل الولاية والقضاء . من الرؤساء والوكلاء .
فأخذنا مجلسنا نستمع ما يدور من السمر . ونجنى من أدبهم ما يحلو
من الثمر . ودونك بمض ما اقتطفنا وجنيننا . وسمعنا ووعينا :

(أحدهم) - نعم حبذا نصره حزب الجيش على بقية الاحزاب في
فرنسا فان في ذلك لو تعلمون تحرير رقبتنا وانقضاء محنتنا
(ثانيهم) - ما أبعد ما ترمى وما أسرع ما تحكم فهل نبأتنا لله أبوك

كيف ترتيدك لهذه القضية واستقرارك لهذه النتيجة وما نحن وخذلان
 الاحزاب الفرنسية ونصرة حزب الجيش عليها
 (الاول) - أراك استبعويص الرأي في السياسة ولا ببعيد الغور
 في استخراج النتائج ألا تعلم لازلت مسدداً ان في انتصار حزب
 الجيش قلباً لهيئة الجمهورية ورجوعاً فرنسا الى الملكية والامبراطورية
 او القنصلية فنأيننا بمثل أولئك الملوك والقواد الذين دوخوا الشرق
 والغرب وقهروا الممالك وأخضعوا الدول واصبحت لهم الكلمة
 العليا على اهل البسيطة فلا يماهم في اغراضهم ممانع ولا يعارضهم في
 مطالبهم معارض . وإني لأعلم علم اليقين ممن عاشرت من كبار
 الفرنسيين وصاحبت أنه لولا هذه الجمهورية لَمَا وصلنا نحن الى
 هذه الحال وما نحتمله فيها من الهوان والصغار واستئثار أولئك
 القابضين على زمام حكومتنا بالامر والنهي دوننا مع المرتبات
 الجسيمة والسلطة الواسعة ولَمَّا أُغْلِقَتْ أَمَامَنَا أَبْوَابُ الترقى واتقطعت
 بنا اسباب التقدم فلو عادت فرنسا الى مجدها السابق وعزها القديم
 لنحزحهم بأشارة وأزاحتهم عنا بكلمة ولا صبحنا نتصرف في
 حكومتنا بأيدينا

(ثالثهم) -- دعنا بالله من هذه الخيالات واتركنا من هذا اللغو

ومثلك لا يحق له الشكوى من هذه الحال فانك متين العلاقة بالمستشار وما بينك وبين الوصول الى المنصب الذى تتطلع اليه الا قيدشبرٍ وانت مع ذلك فى غنى عن خدمة الحكومة بمالك من الغنى واليسر ولكن ماذا تقول فى من هو فى حاجة دأمة الى البقاء فى أسر الحكومة وذل الخدمة مع سخط الناظر وغضب المستشار واستشعار المرؤوسين بذلك فلا توقير عندهم ولا احترام ولا أدب فيهم ولا حياة ولولا الاحتياج الى المرتب والاضطرار الى الرزق لَمَا أَقَمْتُ فى الخدمة يوماً واحداً

(رابعهم) - وأنا والله لا انتظر الا ان يتم لى نصف معاش فأهجر خدمة الحكومة وانجو بنفسى من أسر الرق وذل العبودية ثم أعتمد بعد ذلك على الاشتغال بالتجارة فهى أهناً عيشاً وأعظم ربحاً وأبعد بصاحبها عن موافق الذل والهوان

(خامسهم) - ما أسخف رأى وأضعف الفكر . ومن ينكر ان خدمة الحكومة على كل حال هى أعلى قدراً وأرفع شأنًا من بقية الحرف والصناعات . وكل اسباب المعاش لا تخلو فى هذه الدنيا من المتاعب والاكدار ولكن خدمة الحكومة أهونها حالاً وأقلها عناء ولا يفضل عليها الاشتغال بالتجارة الا من كان قليل التبصر فى

الامور ويكفيك برهاننا على ما اقول انك تستخدم التاجر وتسخره مادام درهمك في يدك ولكن التاجر في حاجة ابدأ الى اصغر موظف في الحكومة وإن كان من اغنى الاغنياء ولوتراهم اذ يفتخرون بينهم بزيارة الكانك ومجالسة المعاون وتحمية القاضي ومخاطبة المدير لعلمت ان خدمة الحكومة بلغت في أعينهم وأعين بقية الطبقات مبلغا عظيما من الشرف والرفعة بحيث لو خبرت أحدهم بين الخروج عن ماله وعقاره وتجارته واطيانه وبين الدخول في صف الموظفين بالحكومة لخرج من كل ذلك خروج السهم من قوسه والأرقم من جلده ولحكيم بأن السعادة كل السعادة في ما تعدّه انت شقاء وبلاء وتعتبره ذلاً وهواناً

(سادسهم) — على رسلك ايها القاضي لانعكس القضية ولا تقب الحقيقة ولا تحمل ما تراه في اخلاق اهل التجارة والصناعة والزراعة من الاستهانة بحرفتهم والاستعظام لأهل الحكومة على ان حرفتهم خسيصة في ذاتها بل ذلك حادث فيهم من جهلهم وضعف إدراكهم والافلو تخلّى احدهم عن طبقته ودخل في طبقتنا يوما لأدرك في الحال ما كان فيه من نعمة الاستقلال في العمل والحرية في الرأي ولعلم ان الموظف قد باع للحكومة حريته

ووهب لها نفسه تتصرف فيها تصرف المالك في ملكه مقابل مقدار من المال يعدّ لأجله ساعات اليوم وأيام الشهر ويربحه الواحد من أولئك الجاهلين بأحوالنا في يوم واحد وهو أمر نفسه وسيد أهله وياليت آباءنا كانوا انتبهوا إلى تعليمنا الصنعة وتمرننا على التجارة ولكن بئس ما صنعوا وبئس ما خلفونا له ولوائهم كانوا ادركوا ما انتهت إليه حال الخدمة في الحكومة اليوم ولم يغتروا بما كان للحكام في الأزمان السالفة من الصول والطول والقوة والحول واكتساب المال من الجاه - وعلموا أنه سيأتي زمان على هذه الحكومة التي كانوا في أيديها كالإيتام في يد الوصي يكون أرباب المناصب فيه كالأطفال في حجر الموضع - لعضوا الأنامل ندما ولأرسلوا بدل الدمع دما على ما فرطوا في أمرنا وأهملوا في شأننا

(الخامس) - انك لتتكلم بكلام العجائز اللائي يقنعن من دهرهنّ بالخصيس من الملبس والمطعم . وأين انت هداك الله من طلب المعالي وابتناء المفاخر وتشبيد المجد وخدمة الوطن وارتقاء المناصب للقدرة على النفع والضرر . وأين انت من قول الشاعر الحكيم :

ولو أن ما أَسْعَى لأدنى معيشة كفاني ولم اطلب قليل من المال
ولكنما أَسْعَى لمجد مؤئل وقد يدرك المجد المؤئل أمثالي

والى الله المشتكى من زمن صغرت فيه النفوس وضعفت الهمم وماتت
 العزائم ورضى الناس فيه بالجهول والسكون وبالعيش الدون
 (السادس) - انى لأعجب منك ايها الفاضل كيف يغيب عنك
 الصواب الى هذا الحد فترى ان فى خدمة الحكومة - مؤدداً وعلاء
 ومجداً وسناء وماهى الا الدل والشقاء والبلاء فى أثر البلاء . وانا
 أفصل لك الحال تفصيلاً لتعلم ان بقاء أمثالك فى خدمة الحكومة
 مع القدرة على التنجى عنها عجزٌ وضعف وجهل براحة الحياة وأى
 جهل فاقول :

تنقسم الرغبة فى خدمة الحكومة الى اربعة اقسام . القسم الاول
 الرغبة فيها للمال أعنى لسدّ العوز وكفاف العيش . وصاحب هذا
 القسم يكون فى حال المضطر الذى حكم عليه الدهر باحتمال الهوان
 لضروره الرزق فهو فى رق العبد وذل الأجير لا مناص له من الصبر
 على المضض حتى يجدله مخلصاً منه ومنصرفاً عنه وهو مثلى يغبط حال
 كل صانع وتاجر وزارع ويتمنى على الدوام أن يخرج من خدمة الحكومة
 الى صف اهل الصناعات الحرة

والقسم الثانى الرغبة فيها للجاه أعنى عزة المنصب ونفوذ الكلمة
 ومضاء الحكم . وهو ميدان بعيد الشأو واسع الاطراف ليس

لشوطه نهاية ولا لحدوده غاية ولا بدّ فيه للجواد من كِبوةٍ وللسيف من نبوةٍ وطالما كان اعتلاء المناصب وارتقاء المراتب داعية للرزايا والمصائب ومجلبة للبلايا والنوائب :

والشرّ يجلبه العلاء وكم شكّا نَبَأاً عَلَى مَا شَكَاهُ قَبْرُ
ولو سلّمنا ان صاحب المنصب سلّم من المعاطب ونجا من الخطوب
فهو لا يزال طول حياته في همٍّ ونَصَبٍ كلما ارتقى في المنصب درجة
وجد فوقها درجة أخرى يحسد من يليها ويحقد على من يعتلّيها ولا
يفتأ مستعظماً لِمَا فوقه طامعاً فيه مستصغراً لِمَا في يده راغباً عنه فهو
في ذهول دائم عن التمتع بلذة الحياة التي يجري وراءها غير راضٍ عن
نفسه ولا عن الناس ولا الناس عنه راضون . وهذا هو منتهى
الشقاء والبلاء . وملتقى الكمد والكدر :

ذلك الخائبُ الشقيُّ وإنْ كان يرى أَنَّهُ من السُّعَدَاءِ
يحسبُ الخطُّ كُلَّهُ في يديه وهو منه على مَدَى الجَوَازِ
وأَخْلَقَ بَيْنَ كَانِ هُمٍّ أَبَدًا التطلع الى غير ما في يده ان يكون انْحَسَ
البرية حالاً وأَمْضَهُمْ عِيشاً ولذلك زهد الراسخون في العلم من الفلاسفة
والحكّماء في اعتلاء المناصب ورغبوا عن اغتراب غاربها وحذّروا
العقلاء من السعي وراءها وشغل النفس بها . هذا كُلُّهُ إذا كان

لنصب عظيم الجاه نافذ الأمر وكان الوصول اليه من طريق
لفضيلة والشرف والحصول عليه من باب الجدارة والاستحقاق .
نأماً والطريق إلى المناصب كما نراه اليوم قاصرٌ على التوسل والتوسط
وإهراق ماء الحياء والمنصب على ما تعلم وضع الكلمة ساقط القدر
خسيس المنزلة لا أمر فيه ولا نهى ولا حل ولا عقد فالفرار منه
جدرٌ بطالب الجاه وأحرى والتباعد عنه أشرف بذى الفضل
وأسنى والنزول عنه نعم المنصب العالى لطالب المعالى

والقسم الثالث الرغبة فى المنصب لشغل النفس دون سواء دفعا
للسأم والملل وتضييعاً لأوقات الحياة وساعات العمر فى الاشتغال
بمحاجات الناس والتلهى بها عن تهذيب النفس . ولا يدخل فى هذا
القسم إلا من كان فارغ الفؤاد خاوى الصدر خالياً من كل أدب
وفضل مشغول الضمير بالسواس والهواجس فأكره شئ لديه
نفسه وأثقل حمل عليه حياته ولا بد له من مشاغل متجددة ومسائل
متعددة تشغله عن الخلوة بنفسه التى صارت عنده اذا هو خلا بها
لحظة كأنها خلية من خلايا الزناير أو وكر من وكور الأفاعى
وهيات أن يبلغ المسكين غرضه يوماً لأن من ضاقت عليه نفسه
كان العالم عليه أضيق ومن ثقلت عليه أخلاقه فالخلقة عليه أثقل

والقسم الرابع الرغبة في خدمة الحكومة لخدمة الوطن ونفع
الأمة . وهذا مطلب عقيم النتيجة أيضا لأنه لا يتفق لنا الجمع بين
المحافظة على البقاء في المنصب وبين الاستقلال في الرأي الذي تقتضيه
مصلحة الوطن لما بينهما اليوم من التخالف والتناقض . ومن أراد
أن يخدم وطنه فليخلص من قيود الحكومة ويخدمه وهو مطلق
اليدين واسع التصرف

ولا تنسَ فوق هذا كله ما يعقب حلاوة الولاية من مرارة
العزل خصوصا في بلد ينسبون فيه الى صاحب المنصب كل فضيلة
وينزعونها عنه اذا سقط منه فالرجال عندنا بالمناصب لا المناصب
بالرجال على عكس ما قد قيل :

إنَّ الأميرَ هو الذي يُضحى أميراً يومَ عزله
إنَّ زال سلطانُ الولايةِ لم يزل سلطانَ فضيلةِ

فمن ذا الذي يقبل الدخول في خدمة الحكومة وهو يجد عنها
محيصاً إلا من أضلَّهُ اللهُ على علم . ولذلك فاني عهدت على نفسي
أن اتخير لأولادي في تعلمهم صناعة يتعيشون بها أحراراً وتكون
معهم أينما حلوا وساروا لا يسلبها منهم قلب السياسة وتغير الحوادث
ولا يؤثر عليهم فيها غضبُ زيدٍ أو رضى عمرو

(سابعهم) - لله أنت ما أحلى بيانك وأجلى برهانك وأنا معك
في هذا الحكم وعلى هذا العزم

(الثاني) - أتركونا من هذه الخطب المكدرّة والافكار
المحزنة وخذوا بنا في حديث غير هذا يفرّج عنا ويروّح ولا تجمعوا
علينا بين ذل النهار وهمّ الليل . وهل لك يا فلان أن تقوم معي
للمسابقة والرياضة بالبسكليت

(الاول) - الأحسن من هذا أن تأتونا بالقونوغراف نستمع اليه
(ثامنهم) - أو قوموا بنا الى عرس فلان فقد بلغنى ان فيه
« بوفيه » لم يُسمع بمثله حسنا ووضعنا
(الاول) - أنا معك

(الثامن) - لكن على شرط أن تقيم معي هناك نستمع الغناء
(الاول) - لست معك في هذا بل نخرج من البوفيه الى الازبكية
لسماع الموسيقى الانجليزية أو الاوبرا التليانية

(الرابع) - أنا لا أتوجه معك لأنني ذاهب الى « الكلوب »
(السابع) - انتظروا قليلاً حتى نقرأ جرائد المساء

(الخامس) - على بالجرائد الفرنسية منها فهي أصحّ من العربية
أخباراً وأغزر مادة

(الثالث) — اقرؤوا الجرائد العربية أولاً واحدة بعد أخرى
أو مع بعضها

(الثاني) قارئاً — « آسيا في أوروبا وأمريكا في أفريقيا »

(الرابع) — ماذا جرى لصوابك يا عزيزي اقلب الصحيفة
الأولى فالناولهذه المقالات الافتتاحية وما لنا ولهذه الافكار الصبائية

(الثاني) قارئاً في الصحيفة الثانية — « الاسكندرية لمكاتبنا » :
« الأمة برجالها والمناصب بأربابها والمعارف هي التي تخرج لنا رجال
المستقبل ومن أين لنا بالرجال اذا كانت المعارف تبخل بالمال فالمستقبل
حينئذ مظلم والوطن آسف ولا نهضة للأمة ان لم تنهض العواطف
لانشاء مدرسة كلية أو معارف أهلية وبخلاف ذلك فان . . .

(الرابع) — حسبك أيها القارئ حسبك أما قلنا لك لا تقرأ
هذه المقالات المملومة

(السابع) — اترك « الاسكندرية » الى غيرها

(القارئ) — « الزقازيق لمكاتبنا » : يثنى العموم بلسان واحد
على حضرة مأمور البندر لاهتمامه بالكس والرش . . .

(الثامن) — أنعم به وأكرم وأكثر الله من أمثاله في خدمة
الوطن . عليك يا صاحبي بالحوادث الداخلية

(القارئ) -- « يسافر سعادة العضو الوطنى فى السكة الحديد الى الاسكندرية فى هذا المساء . ويحضر سعادة مدير البوستة الى العاصمة على اكسبريس الصباح »

(الثامن) - اترك قراءة هذا المانيفستو أيضاً

(القارئ) - « سبقنا فذكرنا أن مجلس النظار بحث فى الجبانات والآن نذكر نص القرار . . . »

(الثامن) - جعل الله اللجنة قراره ومثواه . فدعوه واقرأ الناسواه

(القارئ) - « وصل سعادة السردار الى أم درمان وقد بلغنا

عن ثقة ان أهم ما يشتغل به الآن هو السؤال عن أحوال السودان

(الثامن) - سبحان الله كنت أظن أنه سيشتغل هناك بالسؤال

عن أخبار اليابان وحوادث اليونان

(القارئ) - « يسم البوليس الكلاب الضالة . . . »

(الثامن) - نسأل الله السلامة للخلق والهداية للجميع

(القارئ) - « كتب الينا أحد أفاضل الاطباء بأنه اكتشف

علاجاً يشفى من كل داء مزمن ومرض عضال ويقول حفظه الله

فى آخر رسالته انه من غرامه بصدق لهجة جريدتنا صار لا يفارقها

حتى ولا فى منامه على فراشه . . . »

(الثامن) - لانزاع في هذه الكفاءة وسبحان الموفق
(القارئ) - « رزق عظيم : قد جفع الاسلام وانهدم ركن الدين
وأظلم الكون إذ قصفت المنون غصن نقيب الاشراف بالدير
الطويل عن ست وتسعين سنة قضاها في عمل البر والاحسان
فكان لنباؤه موتة أسف وحزن في قلوب أهل بلده خصوصاً والقطر
المصرى عموماً »

(الثامن) - لاحول ولا قوة الا بالله لا بد أن تكون أسعار
البورصة هبطت لهذا النبا هبوطاً فاحشاً في القطر المصرى
خصوصاً وفي الولايات المتحدة عموماً

(القارئ) - « نفيد حضرات القراء أنه لا يزال التحقيق جارياً
في قضية التزييف ولم يتم فيها شئ إلا الآن ومتى تم نبادر الى نشره
افادة لحضراتهم كما هي عادتنا في نشر الاخبار بأوقاتها »

(الثامن) - أفادكم الله ونفعنا بهذه الاخبار

(القارئ) - « فأتانا أن نذكر أن حصرة وكيل دائرة الهياتم
كان في مقدمة المشيعين لجنازة المأسوف عليها وردة جملان في
الاسبوع الماضى . وكذلك فأتانا أن نهى حضرة مكاتبنا الفاضل
بنزلة واكد حيث رزقه الله بولادة مولود جعله الله من أولاد السعادة »

(الثامن) - جلّ من لا يفضل ولا ينسى . ولكن فاته أن يذكر إن كان ذكراً أو أنثى

(القارىء) - « لدغت عقرب ابنة فى قسم الوايلى »

(الثامن) - نعوذ بالله هذا كله ناشئ من إهمال الحكومة فى الاحتياطات الصحية ومن غفلة البوليس عن ضبط الوقائع الجنائية

(القارىء) - للثامن - يكفيك يا حضرة القاضى من السخرية والاستهزاء واسمع لهذا النبأ العظيم

(الثامن) - سمعاً وطاعة

(القارىء) - « بلغنا اليوم أن الحكومة تبحث الآن فى مشروع فتح شارع المرور ونحن بلسان العموم وبالتيابة عن الامة المصرية الاسيفة نحذرها من عواقب هذا المشروع الوخيمة الذى يكون من ورائه رسوخ قدم الاجنبى فى البلاد وسنشبح لحضرات القراء مضار هذا المشروع فى مقالة افتتاحية

(الاول) - ان هذا الخبر لا يعلم به أحد سوى فكيف وصل الى الجرائد

(الثامن) - إني لأخشى إن دام إفشاء الأسرار على هذا الحال أن يستبدلنا أرباب الحل والعقد باستخدام الخرس فى مجالس

الحكومة رجوعاً الى العادة القديمة في مجالس الوكلاء بالدولة العثمانية

(الرابع) - للثاني - اقرأ بقية الأخبار المحلية

(الثاني) - لم يبق في الجرائد الثلاث الا التلغرافات والاعلانات

(الرابع) - أراك لم تقرأ الا جريدة واحدة فاقولك الجرائد

الثلاث

(الثاني) - هي كما تعلم نسخة واحدة في الاخبار وان كانت

مختلفة في الأسماء

(الرابع) - اقرأ لنا التلغرافات

(الثاني) قارئاً - « ديروط الساعة ٨ والدقيقة ٣٧ - كان الاحتفال

بتوديع حضرة النشيط معاون بوليس المركز هائلاً وتليت الخطب

وأنشدت القصائد والتفصيل بالبوستة »

(الرابع) - ما هذه البسافس

(الثاني) - هي التلغرافات الخصوصية

(الرابع) - علينا بالعمومية

قال عيسى بن هشام - وما قرأ القارئ التلغرافات السياسية حتى

استدار أهل المجلس حلقةً يكثررون اللفظ في شرحها ويرجمون

الظنون في تأويلها وما فهم الا مَنْ هو على خلاف لرأى صاحبه وإذا هم

قد عادوا الى مثل ما كانوا فيه وقت دخولنا عليهم . ولما وجدنا
الجدال يحدث بينهم اشتعالا . خرجنا من بينهم انسلا . وتركناهم في
سياستهم يتهمون . وفي ضلالهم يعمهون



قال عيسى بن هشام - وأحييتُ أن أختِمُ هدى المجالس والمجامع .
بزيارة المجلس الرابع . مجلس الطبقة العليا . من الأمراء وأبناء
الامراء . أهل السدة السنية . والعتبة الملوكة . وأولى الفخر
والسناء . وبنى المجد والعلاء . وأصحاب العز والشرف . وأرباب
الرفّة والتّرف . وذوى الفروسية والكرم . ومصدر القواضل والنعيم .
سادة المحافل . وقادة الجحافل . ومطمح الحاشية . ومطمع الفاشية .
ومهيّج القُصّاد . ومُنْتَجِعِ الرُّوَاد . ومرجع السفراء . ومطلب الشعراء .
ومحطّ الرحال . لذوى الآمال . مَنْ يتألق بهم بيت الملك والسلطان .
وتفخر بوجودهم البلدان والاطنان . ويحقق على رؤوسهم اللوا
والعلم . ويُنتَضَى في خدمتهم السيفُ والقلم . وتَعْنُو لقدرتهم النفوس .
وتنكس لعزتهم الرؤوس . وتُغَضُّ من مهابتهم الأبصار . وتُتَلاشَى

دون رتبتهـم الرتبـ والأقدار . ويرتفعون عن الناس ارتفاع الكواكب في الأبراج . ويمتازون عن سائر الخلق بِسِمَةِ العرش والتاج . معدن المسكارم والمآثر . وبدور القصور والمنابر . فأمننا قصورهم قصرًا قصرًا . وأحطنا بها عدًّا وحصرًا . فلم نجد فيها من سكانها . غير خصيانها وغلماها . ووجدنا أصحابها لا يرضونها مسكنًا ومقامًا . ولا يأتونها إلا لِمَا . وعلمنا أن « الكلوب » يعنى النادى . هو مأوى الراح منهم والغادى . فهناك موضع جلوسهم واجتماعهم . وحل أنسهم واستمتاعهم . فقصدناه مع أحد أصحابنا من أعضائه وجملته . لبتسنى لنا الدخول فى صحبته . فاتهينا من السلم الى قاعةٍ فسيحة الجوانب . مزينة بمصاييح كالشواكب . تدخل منها الى عدة غرف . مزخرفة بأبهى التحف والطرف . فرأيناها مزدهجة بأجناس من الناس . يروقون النظر بحسن الزي واللباس . ويبهرون العيون بحلى الياقوت والألماس . وهم كلهم فى لغط وضوضاء . كأنهم فى سوق يبيع وشراء . فأخذ صاحبنا يرشدنا عن أجراء المكان . ويعرّفنا بفلان وفلان . ويخبرنا عن الغرفة الأولى أنها للمنادمة والمعاقرة . والثانية للمراهنة والمقامرة . والثالثة للمحاضرة والمسامرة فبدأنا بالدخول فى الغرفة الأخيرة . فوجدنا فى وسطها منضدة كبيرة عليها

كتبٌ منشُرة . وجرائدٌ مصوَّرة . تعبتُ بها أُبدى جماعة من الامراء .
دون انتباه أو اعتناء . وأعينُهُم شاخصة نحو المرأة . للتمتع بالمنظر والمرآة
وَأَسْتَتُّهُمْ مِنْطَلَقَةً بِالْأَعْجَمِيَّةِ . دون اللغة العربية . فأخذنا مجلسنا منهم
ناحية . وأعرناهم أدناً واعية . وإذا أحدهم يقول لكبيرٍ من كبراء
أسرته . والغضب بادٍ في تقطيب أسرته :

(أحدهم) - أنا لا أبالي بهذا اللوم والتفنيد ولا أقبل منك مشورة
ولا نصيحة واللهُ يعلم بما وراء هذه النصيحة مما تكنه الضمائر
وتخفيه السرائر فإن كنت تريد بي خيراً كما تزعم وتدعى فاتركنى
وشأنى فأنا أدرى بوجوه المصلحة لنفسى ولا عليك من ذلك الدين
الذى تُعبرنى به فعندى من المتاع والعقار ما يسدده ويوفيه . وكما
أننى لا أتناه عن شؤوك فلبس لك أن تشاركنى فى أمرى
وتكدر على عيشى والأولى لك أن تصرف جملة عنايتك الى تدبير
ثروتك فإنك أحوج الى ذلك منى حتى لا يأتى عليها أمناؤك ووكلاؤك
نهباً وسلباً وأنت مقيم فى غفلة عنهم . وأقسم لك بقبر والدى أننى
لا أفضل حالتى عن حالتك فإن تبديد ثروتى وتبذيرها فى سبيل
ما تشبهه نفسى وتلذه عيني خير من أن أعيش محروماً وغيرى
يحتلس ثروتى ويتمتع بأموالى

(ثانيهم) - وأنا لا ألتفت الى هذا الكلام الفارغ بل أنذك منذ اليوم أنك اذا لم ترجع عن سوء سيرتك وتبديد أموالك وتسلم الى ادارة ثروتك لتسديد ديونك وترتيب امورك طلبت في الحال توقيع الحजर عليك

(الاول) - مثلي لا يؤثر عليه هذا الوعيد ولا يعمل فيه التهديد ولا يمكن لك أن تجد في أعمالى ما يوجب توقيع الحजर غير الدين والدَّينُ أمرٌ مسفيض بين الناس لا يكاد يخلو منه ذو ثروة والحكومة نفسها من أكثر الناس ديناً ولا يوجد فيها من يعتبر الدين حجةً مقبولة لتوقيع الحजर ومع ذلك فأنا أقسم لك بكل شيء أحبه وأعزه أنكم ان لم تنتهوا عن السعى وراء الحजर على تنازلت في الحال عن جميع أموالى الى أحد الاجانب ليستثمرها لى فى حياتى ولا ينالكم منها شيء بعد مماتى

(الثانى) - سترى من يكون الغالب منا والفائز فينا

(ثالثهم) - والله يا اخوانى لقد كرهت الثروة وأبغضت الغنى من طمع الاهل وفضول الاقارب وقد آليت على نفسى أن لا أبقي منها درهما واحداً لأحد من بعدى

(رابعهم) - الحمد لله على ضياع الثروة وانقضاء مشاغلي وأنا اليوم

أبيع ما بقى من الاطيان لأتمتع بها فى معرض باريس قبل أن يتمتع بها سوى

(خامسهم) - وانا أسأل الله أن يعجل بريح القضية التى رفعتها على والدتى قبل حلول أيام المعرض لأكون معك
(الرابع) - وما يدريك انها تبقى معلقة فى المحاكم زمنا طويلا ينتهى فيه معرض بعد معرض

(الخامس) - أنا لا بدلى من زيارة المعرض على كل حال فان لم تنتهِ القضية فى يدي رسائل وأوراق صادرة عن أختى وعثرت عليها بكيفية غريبة وقد قدرتُ لها قيمة تكفى لسفرى وأخبرتها أنها إذا لم تسرع بالنقد والدفع طبعتُ تلك الرسائل ونشرتها على الناس . ولا شك أن نعلقها بزوجها لطمعها فى أمواله يدفعها لتدارك الفضيحة بشراء تلك الاوراق فى الحال

(سادسهم) - انى لأغبطك على هذه اللقطة النفيسة وأسأل الله أن يوفقنى الى مثلها مع عمى

(سابعهم) - دَعُونَا من هذه الوسائل الضعيفة ونعالوا نجهد فى السعى لزيادة المرتبات التى نستحقها فى قائمة العائلة الخديوية
(السادس) - ماذا يجدى السعى فى زيادة هذه المرتبات وهى لا

تزيد لواحدٍ إلا بموت آخر والامواتُ منا قليل ولئن سهل الله
فعاية ما يزيد المرتب خمسمائة أو ألف جنيه في السنة تكون من
نصيب خياط أو تاجر مركبات . ولكن علينا بالسعى ان أمكن
السعى في اكتساب ثروة تقوم لكل واحدٍ منا بما يليق برفعة
مقامه وعلو درجته بين الناس

(الثاني) - لا تشغلوا أفكاركم بهذه الاوهام والاحلام فقد
نضبت الموارد وجفت الضروع ومضت تلك الاوقات التي كانت
تتجمع فيها الاموال العظيمة وتتكون الثروة الجسيمة وفاز بها
الآباء والاجداد ثم خلفوها لنا فلم نعرف قدرها ولم نحسن تدبيرها
(الاول) - لاتذكرونا ناشدتك الرحم بسيرة الآباء والاجداد
ولا تقل انهم فازوا بجمع الأموال وحياسة الغنى فلقد قنعوا بالقليل
ورضوا بالتافه وظنوا انهم جمعوا الكثير ونالوا العظيم فما أصغر
همتهم وأكبر غفلتهم ولو كنا مكانهم في تلك الازمان لأريناهم
كيف تجمع الاموال وتكتنز الكنوز . وماذا تقول في عقول
قوم كانت رقاب المصريين وأموالهم بين أيديهم طوع اشارة من
اشاراتهم ولفتة من لفتاتهم ثم يكتفون منها بالخسيس الضعيف
ويتركون لهم هذه الملايين من الافدنة يتمتعون بها اليوم دوننا .

ومن كان يتصور من آبائنا وأجدادنا أن عمد الفلاحين الذين كانوا في أيامهم كالأنعام لا يعرفون ماهي الحياة وماهي الدنيا قد أصبحوا يتمتعون دوننا بالاموال ويزاحموننا في المجالس . أليس ذلك من تقريظ السلف وبؤس الخلف

(ثامنهم) - إياك أن يجرى لسانك بسوء في ذكر المصريين والفلاحين واحذر أن تعود نفسك فانه غير لائق بنا على ما يظهر لي الآن

(الاول) - ولمَ ذلك حرسك الله ومتى سمعنا بهذا . وماذا لقينا من الجميل عند المصريين حتى نذكره لهم بغير القبح والذم وماذا رأينا من حسناتهم حتى يقتضى علينا الاغضاء عن سيئاتهم ولكن لعلك تريد لأختك أنت أيضاً مصرياً أو فلاحاً للتشرف بمصاهرته

(الثامن) - لا وانما سمعت غير مرة من أحد المشتغلين منا بالسياسة ان مصلحتنا تقضى علينا الآن بالالتجاء الى التودد والانعطاف نحو المصريين ليتعلقوا بأذيالنا وتنطلق ألسنتهم بشكرنا وحمدنا فاذا تسامع الاجانب بذلك اضطروا الى احترام مقامنا وإجلال قدرنا ليقودوا المصريين بقيادنا وأنتم تعلمون ماوراء انتفاع الاجانب بنا

من انتفاعنا بجاههم في هذه الايام التي لا تتبع موارد الحكومة إلا
من بين أصابهم

(الرابع) - أنا لا يتسع عقلي لمثل هذه السياسة العقيمة ولا ينشرح
صدرى لأظهار التودد والتعطف لهؤلاء المصريين ولو كان للاحتيال
والخداع وما أخالف طبعي ولا أكاف نفسي في هذا الباب غير
مألفت والأصوب أن تقصر التودد والتعطف على الجانب أنفسهم
فهم أحق بالمحبة والولاء، وأولى بالمدح والثناء . ولا لزوم لأن تتوسط
لهم بالمصريين فنذل للأذلاء، ونخضع لأهل الخضوع . ولولا المنافسة
بين آبائنا واجتهادهم في سلب بعضهم لَمَا كُنَّا وصلنا الى هذه الحال
ولا احتجنا الى طلب المال

(الخامس) - أنا لأحب ان يتشعب بنا الكلام الى ذكر
ما كان بين الآباء من المنافسات خشية تحريك ما في القلوب من
الضغائن والاحقاد وليس منا من يكاد يملك نفسه عند ذكر أفعالهم
خصوصا ما فعله والدك بوالدى وما انتزعه من أموالنا بالظلم والعدوان
ولا يغيب عنكم ما عسى أن يجره اتساع الحديث في هذا الباب
من المكروه

(أحد الاجاب) داخلا يقول للاول - لقد جئت لمولاي الامير

بأنفس اختراع في نهاية القرن ودونك الرسم فانظره وتأمله
 بامعان فانك لا تجد مثله في الابداع والاتقان وهذا رسمها على
 الورق فما بالك بهيئتها وهي تجرى في الطرق وقد شهد كل من رآها
 بأنه لم يشاهد مركبة كهربائية على مثل هذا الطرز الى اليوم وحسبك
 أن المعمل لم يصنع من جنسها الا اثنتين أخذ البرنس « هو هلو هنستين »
 من أمراء ألمانيا واحدة وهذه هي الثانية جئت لك برسمها يا مولاي
 لتأمر بأمرك . وقد سعى دولة أخيك ورأى سعيًا طويلًا ليلحظ
 هذا الرسم بعينه ويعلم باسم المعمل فلم أمكنه من ذلك وضنت عليه
 به لعلنى أنه يريد أن يسبقك الى اقتنائها ويفخر عليك بها وأنا أفضلك
 عليه تفضيلاً عظيماً

(الاول) - انى أعلم حسن عنايتك بى وأشكرك عليها انما أرجوك
 التعجيل باحضار هذه المركبة فقد أعجبنى رسمها جدًا واخبرنى فى
 أى ميعاد يكون حضورها

(الاجنبى) - مسافة الطريق يادولة الامير

(الاول) - الاحسن أن تقصر المسافة بارسال تلغراف مكان

الخطاب فى طلبها من المعمل

(الاجنبى) - سمعاً وطاعة . وهذا بيان الثمن ألتمس منك

تكليف الخاطر والتوقيع عليه

(الاول) - ها هو التوقيع وقل لى عن مقدار الثمن بالتحقيق
 (الاجنبى) - مقدار الثمن شىء ضعيف بالنسبة الى هذه المركبة
 الثمينة وهو على التحقيق تسعة آلاف وخمسمائة وستة وثلاثون فرنكا
 (الاول) - لا بأس وانما لى عندك رجاء وهو أن تزيد فى مقدار
 الثمن اذا سألك أخى عنه وقل له اننى اشتريتها بخمسة عشر ألف فرنك
 (الاجنبى) - على العين والرأس ولقد كنت منصرفا على هذه
 النية من غير أن تكاشفنى بذلك ولكننى سأقول له انك اشتريتها
 بأربعة عشر ألف وسبعمائة واثنين وأربعين فرنكا على التحقيق
 (الاول) ملتفتاً لقرنائه - أنا على يقين من أن أخى يُجنّ جنونه
 حين يبلغه هذا الخبر فلا يهدأ له بال حتى يقترض مبلغاً جديداً من
 المال ليشتري منه مثل هذه المركبة . وذلك ديدنه كما تعلمون من
 قديم كلما رآنى استحدثت شيئاً من مقتنيات الزينة جرى على أثرى
 فيه وتشبه بى وكلف نفسه ما ليس فى قدرته ليلحق بى فى ميدان
 المنافسة والمباهاة حتى وصلت به الحال الى الخروج عن الثروة
 والدخول فى الدعاوى وما أظن ان يبقى عنده أثر من جميع ملكه
 وعقاره بعد شهر أو شهرين

(الثالث) - وماذا يصنع المسكين بعد ذلك

(الرابع) - مابقى له الا ان يعيش من مال المرتب وحده

(الثالث) - ألم أقل لكم أن ليس لنا في آخر أمرنا الا هذا

المرتب فهو وحده المال المصون لنا وهو الكفيل بسد حاجتنا وقوام معيشتنا ولا رأى غندى أصوب من السعى لطلب الزيادة فيه فہلموا نعقد بيننا اتفاقاً على المطالبة بحقوقنا في هذا الباب

(الخامس) - أما سمعت ان الاعتماد على المرتب وحده من ضعف

الحيلة ووهن الرأى

(الثالث) - وما لك لا ترشدنا الى طريق آخر بقوة حيلتك وحسن

رأيتك تقوم بأود معيشتنا في الحال ولا نعدم نفعه في الاستقبال

(الاول) - أنا أراه في المضاربات

(الرابع) - وأنا أراه في تأجير أسماننا للشركات

(الخامس) - وأنا أراه في خدمة السفارات

(السابع) - وأنا أراه في الزواج باليهوديات

(السادس) - أو المصريات

(الثامن) - لا بل أراه في ان تقوم الساعة الى غرفة المقامرة

(الجميع) - أحسنت أحسنت بعد أن نزود من غرفة المعاقرة .

قال عيسى بن هشام - فقاموا وقننا على آثارهم نشاهد ما يجري من بقية أفعالهم فدخلوا الى غرفة المدام فتعاطوا من أقداح الراح ماشاؤوا ولم يتعدّ حديث المنادمة بينهم حد المناضلة والمفاخرة او المراهنة والمسابقة هذا يراهن صاحبه أن يشرب من الخمر زجاجة بأكلها . وذلك يفاخر بقوة أعضائه فيدّعي انه يرفع المائدة بيد واحدة . والآخر يزعم انه يضغط على قطعة الريال فتلين بين أصابعه . والثالث يقسم انه ركب الناقة يوماً فوثب من فوق ظهرها فنزل عنها الى الارض واقفاً على رجل واحدة . والرابع يحلف انه يكلم حصانه فيفهم عنه كلامه . والخامس يكرر القول بأن خليلته أعلنت له بأنها لم تر في باريس راقصاً يحسن الرقص مثله . الى غير ذلك من هذا القبيل ولما انتهى أربهم من غرفة الشراب انصرفوا منها الى غرفة القمار فاستداروا بمائدة اللعب وأغرقوا فيه ثم لم تمض ساعة من الزمن الا وقد جرى لهم في هذا المجلس ما يجري من فراغ الجيوب واقتراض القروض ورهن الحلي وطلب الاسعاف من اللاعبين أولاً ومن الخدم ثانياً ثم لم يلبثوا أن تولد بينهم من الشقاق والنزاع ما خشينا معه سوء العاقبة وقبح الخاتمة . فأسرعت بالخروج أطلب النجاء . والباشا في أثرى يضحك القهقهاء . فقلت له وأين تسكاب الدمع

وتنفسُ الصُعْدَاءُ . قالَ جَلَّ الخُطْبُ عن الحزن والبكاء . ووجب
الأخذُ بطريقة « ديموقريط » من بين الحكماء . ورؤيةُ الدنيا بعين
ذلك القائل من الشعراء :

هذه الحياةُ روايةٌ لمشخصٍ فالليلُ سِتْرٌ والنهارُ الملمبُ

*
* *

قال عيسى بن هشام - ولما فرغنا من زيارة تلك المحافل المشهودة .
والمجالس المعدودة . قلت للبasha قد آن ان نعود الى ما كنا فيه من
الانفراد والاعتزال . ونبتعد عن مثل هذا الاختلاط والابتذال .
فأجبنى وهو يظهر التوقف . ويبدى التأفف : ما بالك تقطع على
الطريق . فى البحث والتحقيق . ومالك تحرمنى من السعى والاجتماع .
للاطلاع على العادات والطباع . ولم تختار أن تقتصر على ما فى الكتب
والاوراق . لمعرفة الآداب والاخلاق . فترك النظر . للخبر .
واللمس . للبس . والممارسة . للمقايسة . وأى الطبيبين أدقُّ صنعا .
واكثر نفعا . الطيبُ الذى يقتصر على الكتب فى درس الاعضاء
والاحشاء . أم الطيبُ الذى يدرسها فى تشريح الجثث وهى تسيل
بالدماء . لاسيما وقد زال غنى فى هذه المدّة . ما كان يعترضنى من الغضب
والحدّة . وانقلب العسر من امرى يسرا . وغدا التقطيب بمحمد

الله بشرا . وصرت لا اقابل عيوب الخلق . بغير الحلم والرفق .
وتعلّمت ان اتحلّم . ولا اتألم . واتبصّر . ولا اتحسّر . واتدبّر . ولا
اتضجر . فأنا اليوم اتفكّه بمخالطتهم . واثروّح بمباسطتهم . فلم يبق لك
من عذر وجه . ترتضيه بعد ذلك وترتجيه . « . وما زال الباشا يجرى
على هذا النمط فى الشرح والبيان . ويأخذنى بالبرهان فى اثرا البرهان .
حتى ملكنى بسلطان حجته . وأنزلنى على حكم رغبته . وكنت دُعيتُ
فيمن دُعى من الناس . الى وليمة عُرسٍ من اكبر الاعراس .
فقلت له عندى اليوم حدّ الكفاية . فى بلوغ الغاية . فهلم الى المحفل
الذى تحتشد فيه المحافل . والمنهل الذى تتفرع عنه المناهل . وسرتُ
به منذ أرخى الظلام من سجوفه وأستاره . وبدأ فى الدور الاول
من أدواره . فاقْرُبنا من قصدنا حتى وجدنا الليل هناك نهْاراً
يتألق . وخمّة الدجى جمرّة تتحرّق . فدخلنا الى ساحة كأنها
مدينة . تبرجت فى يوم الزينة . فوقفنا هُنيئةً فى وسط المزدحم .
لانجد موضعاً للقدم . حتى أخذ بيدنا أحد المستقبلين بالباب . من
ذوى العلامات فى الثياب . فدَسَّنا بين جماعة لم نعرف منهم أحداً .
ولم يحسنوا التحيتاردا . فجزيناهم على ذلك بغض الطرف . وأقمنا بينهم
لا نطق بحرف . ثم أخذنا نلمس بأعيننا صاحب الدار . فلا نهتدى

له على قرار . كأنما صنعت الوليمة في غيته . وأقيم الاحتفال انتظاراً
لاوبته . أو أننا أخطأنا العرس الى سواه . واشتبه علينا مقررّه ومشواه .
فهممنا بالقيام والمسير . لولا ان اشار لنا بالسلام مشير . فتبيناه صديقاً
لنا من الخُلصاء . في جمعٍ من الفضلاء والادباء . فقصدناهم فأفسحوا
لنا بينهم مكاناً رحباً . وجلسنا معهم نجتني ثمر الحديث يانعاً ورطباً .
وعلمنا منهم ان رب البيت في ذهول لا يدرك ما يذرّه وما يأتيه .
وصاحب الدار لا يدري الليلة بالذي فيه . وأنه لا يثريب عليه ولا لوم .
فهو مشغول بتحية كبار القوم . ممن لم يخاطبهم قبل اليوم
(الباشا) - وهل يدعوا الناس الى أعراسهم من لم يعرفوه
أو يخاطبوه من قبل

(احد الاصدقاء) - نعم يدعوا الناس الى أعراسهم كل من علا له
صيتٌ واشتهر له اسم من الامراء والكبراء والعلماء فمنهم من يجيب
الدعوة ومنهم من لا يجيبها لعدم معرفته بصاحب العرس . وبين الكبراء
جماعة اشتهروا بأنهم لا يخيفون للداعي رجاء ولا يتخلفون مرة عن
إجابة الدعوة حتى صاروا من عمدة الزينة وأساطين الاعراس
(الباشا) - وما الغرض لصاحب العرس من هذا كله

(الصديق) - الغرض منه أن يذاع بين الناس تشريف هؤلاء

الكبراء والعلماء لبيته . وأكثر الذين نراهم يقيمون ولائم الاعراس وينفقون عليها جانباً عظيماً من ثروتهم لا غرض لهم منها سوى ذلك وحده وفيهم من وصل به حب الشهرة والفخفة ان أنفق في إقامة العرس جميع ماله ثم بقي عليه من الدين ما أخل بنظام معاشه . وأعرف تاجراً من التجار أنفق الجانب الأعظم من رأس ماله في إقامة عرس كبير ثم قسم دفاتر تجارته الى شطرين شطر يحتوي على بيان ما بقي لديه من اصناف التجارة وأجناسها وشرط يتضمن أسماء من حضر العرس من الامراء والكبراء وقل ان تشتري منه صنفاً الا ويذكر لك منهم اسماً يُقسم بحياته ورأسه ان الصنف جيد والتمن في جنبه هين (الباشا) - ما كنت أعهد ان الاعراس تكون على هذه الحال من استخدامها للشهرة والصيت بل كنت أعهدا انها تقام لا تناس صاحب العرس بأصحابه واصدقائه ومشاركتهم له في صفوه وهنائه ولا طعام المساكين ومساعدة الفقراء

(الصديق) - ليس للفقراء اليوم ولا للمساكين نصيب في طعام الاعراس بل هو من نصيب مثل هذا الوفد الخارج أملك وأضربهم (الباشا) - انى اعرف من هؤلاء الخارجين ثلاثة اشخاص اجتمعت بهم في مجلس للعلماء

(الصديق) - نعم هذا الوفد كله من كبار العلماء وحملة الشريعة وأئمة الدين

(الباشا) - ومالى أراهم يسرعون ويهرولون فى خروجهم وما الذى وقع لهم حتى يتركوا العرس منذ أول الليل وليت شعرى ما الذى أزعجهم وأخرجهم . أنزل بالدين مكروهه أحل بالاسلام خطبة أحدث بين الناس حادث بدعى يستدعى قياهم للامر بالمعروف والنهي عن المنكر

(الصديق) - لم يحدث من كل ذلك شىء ولم يعرض لهم عارض وإنما هى عادة لهم ألفوها فى الولايم والمآدب اذا انتهوا من غسل ايديهم بعد تناول الطعام بادروا الى الخروج من العرس فتراهم عند قول احد الظرفاء « يد فى الكباب . ورجل فى الركاب » والذين يعتذرون لهم يقولون انهم علماء عاملون بقوله تعالى : « فاذا طعتم فانتشروا » وانهم يرون سماع الغناء مكروها فى الدين فلا يجلسون فى العرس بعد الطعام خشية ان يتبدى الغناء فيحل بهم المكروه

(الباشا) - ومن هذا الشيخ المنخلف عنهم القادم علينا

(الصديق) - هذا الشيخ المتخلف عالم من افاضل العلماء ونبائهم هو قادم علينا للجلوس معنا فان فينا من يأتس به ويصبو الى مجالسته

(الباشا) للشيخ بعد جلوسه - أرجوك ان تسامحنى فى فضول القول فلا صبر لى عن الاستعلام والاستفهام خصوصاً إن كان فى الأمر ما يخص الدين فقد قيل لى ان السبب فى مغادرة وفد العلماء للعرس فى عقب الطعام هو كراهتهم لحضور مجلس الغناء فهل لك ان ترشدنى الى القول الأصح فى هذا الباب وما الذى يجب ان يؤخذ به وكيف انفردت أنت عنهم بالبقاء والجلوس ورضيت سماع الغناء ان كان مكروهاً

(الشيخ المتخلف) - الكلام فى هذا الباب طويل . وما أظن السبب الأعظم فى المبادرة بالخروج الا طلب الجسم للراحة بعد الإمتلاء (الباشا) - انى أريد أن أهتدى بهديك فى باب سماع الغناء وتقرير كراهته أو بإباحته فلا تبخل علينا بفضلك وعلمك . والوقت وقت مسامرة فان أردت ان نقضى جانباً منه فى ما ينفع ويفيد فقد أدت عليك واجباً فى الدين وجعلتنا لك من الشاكرين

(الشيخ المتخلف) - اعلم ان طرب الغناء أمر طبيعى راسخ فى طبيعة الحيوان . ومن الحيوانات العجم وضوارى الوحوش ما تسمع الغناء فتحنّ اليه وتسكن به فيضعف من قسوتها ويكسر من حدتها وربما دلت به رقابها وأمكن قيادها . وهذه الفيلة وهى من أكبر

الحيوان أجساماً وأشدّها بطشاً اذا سمعت صوتاً مرئماً أو كلاماً
منعماً لم يلبث هذا الجسم العظيم ان يتمايل ترنُّجاً ويهتز طرباً - ولو
كان في مواقف النيران - اهتزاز الحمامة المطوقة على قن من
الأفنان . وهذه الأبلُ المعروفة بأنها أغلظ الحيوانات اكباداً
تراها اذا برأها السرى ونكزها التعبُ وأهلكها الظمأ فتغنى لها
الحادى ذهلت في الحال عما أصابها وتعلت بالغناء عن مناهل الماء
وهى على الخمس في ظمئها أو العشر ونشطت به تستعيد القوى
لاستئناف السرى . وطالما شاهد المشاهدون هوامَّ الارض
ودوابها تخرج من كهوف الجبال وبطون الرمال فتجتمع جيوشاً
تتبع جيوش الحرب في مسيرها وقد ظهر لأحد الباحثين من علماء
الطبيعة عن علة ذلك الاتباع أن صوت الموسيقى أمام الجيوش هو
الجاذب لها والدافع بها للخروج من أوكارها وأججارها للمسير
خلف الجيش . ومن الروايات العتيقة أن أحد الموسيقيين من
الفلاسفة كان عند شاطئ بحر يبنى الشاطئ الآخر ولا يجد ما يحمله
إليه فجلس يلهى نفسه بالغناء واذا بدّر فيل قد شقّ امواج البحر
يتدنّى من صاحب الصوت فلم يزل في تدنيه والفيلسوف في تغنيه
حتى حاذى الشاطئ وسكن يستمع فأيقن الفيلسوف انه استهواه

بتأثير الغناء وذلك بقوة الطرب فاه تطاهُ يسخره كيف شاء . فوق
عباب الماء . كأنه مطية وجنّاء . تسير في عرض اليبداء . على
توقيع الحداء . وحكاية إبراهيم بن المهدي في اقتياده الوحوش
الضارية بسحر غنائه مشهورة مذكورة

هذا بعض ما يقال عن تأثير الغناء في الحيوانات العجماء مع
ضعف إدراكها وكشفة احساسها ونقص خلقها فما بالك بتأثيره في
الانسان وهو أسمى الحيوان رتبةً واكملهُ خلقةً وأعظمهُ إدراكاً
وأصفاهُ جوهرًا وأطفهُ روحاً

والغناء في تعريف قومٍ من الفلاسفة فنٌ يُقصد به تحريك
النفس بتنسيق الصوت وتأليفه على طريقة ترتاح لها الأذن فهتز
له نفوس ارباب المدارك العالية والامزجة الصافية وهو القوة المساعدة
لقوة النطق في التأثير على السامع . وكان القدماء يعتبرونه لغة عامة
لسائر الناس يفهمونها على اختلاف لغاتهم وألسنتهم . وكان لابد
لطالِب الفلسفة عندهم من الاحاطة بفن الموسيقى مع الرياضيات . وقد
عبّر عنه الحكماء الكبيران فيثاغورس وهرمز أنه علم التنسيق
لكل شيء ولذلك أطلقوا عليه لفظة « أرْمُونيا » ومعناها النظم
والتنسيق ومنه الترتيل وكلهم مجمعون على ان لا شيء في

العالم يعادل تأثير الغناء في تهيشة النفوس وتوطئة القلوب لقبول الفضائل والكمالات . وعندهم أن الذي لا يتأثر منه لا بد أن يكون به نقص في الخلقة . والغناء مغروس في طبنة الانسان منذ نشأ في حجر الطبيعة ومنذ استهل في المهد باكياً فلا يسكن إلا به ولا يُراح عنه الا بتطريبه . وفضل تأثير الغناء في النفوس على تأثير الكلام كفضل الشعر البليغ في لغته على ترجمته كلاماً غير موزون الى لغة أخرى

والوقائع كثيرة حجة في التاريخ تشهد بقوة تأثير الغناء . منها ان أهل مدينة اسبرطة كانوا في فتنة اشتد لهيبها وعظم شرها فعمد جماعة من الموسيقيين الى مكان الزعماء القائمين بأمرها فما زالوا يغنونهم حتى طربوا فصفت أرواحهم وورقت نفوسهم ولانت عريكتهم فانتهوا من أنفسهم عن إشعال نار الثورة فحمدت . وقام صياح الطرب . مقام صياح الشغب . ومنها أن أهل سويسرا كانوا ينزلون عن رؤوس الجبال للاحتشاد في الجند فاذا انعقد جمعهم أغرى العدو بهم من يغني فيهم بلحن لهم معروف يتغنى به الرعاة في قُلل الجبال فيشتعل في نفوسهم لهبُ الوجد وتهيج فيهم نائرة الحنين وينزع بهم الشوق الى منازلهم فيلقى أسلحتهم عن أيديهم ويذهب بهم على وجوههم

وقد تكرر وقوع ذلك فيهم حتى قرر رؤسائهم الحكم بالاعدام على كل من تغنى بينهم بذلك الغناء . ومنها حكاية الحكيم أبي نصر الفارابي مع سيف الدولة بن حمدان حيث أضحك أهل مجلسه وأبكاهم ثم أنامهم وتركهم . وقد كان خطباء الدولة الرومانية يتسابقون إلى تنسيق اصواتهم في الخطابة وتتبع النغم لتأثير القول في النفوس . وربما استصحب بعضهم معه احد الموسيقيين بآلة من آلات الطرب فيجعله بجانب المنبر حتى اذا واجده خرج عن النغم أو شذّ به بصوت الآلة فيرجع الى الأصل . ولسنا نجد بين الأمم في بداوتها وحضارتها وماضيها وحاضرها الا وعندها الغناء في الجيش آلة من آلات الحرب تعين على ممارسة الاهوال وتثير الى منازل الخوف . وكان القدماء منذ عهد داود عليه السلام يعتقدون ان الغناء يشفي من الامراض والاسقام وكان « ايسمين » في مدينة تيب يزعم أنه يشفي من عرق النساء بصوت الناي وكان « هوميروس » و « جالينوس » و « بلوتارك » من بعدهما يؤكّدون ان الغناء يشفي من الطاعون . ومن داء المفاسل ومن نهش الافاعي . وقام اليوم جماعة من كبراء الأطباء في اوربا يقررون بعد كثرة التجارب ان الغناء دواء نافع لكثير من الامراض وأطلقوا عليه لفظة « ملوترايا » يعني العلاج

بالطرب كما قرروا من قبل « الهيدر وترايا » وهى المعالجة بالماء و « الإليكترو ترايا » وهى المعالجة بالكهرباء وقد جرب أطباء فرنسا تأثير الغناء على وظائف الاعضاء بآلة حاسبة فوجدوا أنه يزيد فى دورة الدم وفى حركة التنفس سرعة مقبولة . وذهب بعضهم أن للاخشاب التى تتخذ منها آلات الطرب تأثيراً آخر على المريض مثل اتخاذ الناي من خشب الكينا فان سماعه يشفى من الحمى . وبلغت العناية بهذا الفن فى المانيا انهم جعلوه درساً من الدروس الاساسية يبتدىء به التلامذة ابتداءهم بدروس الهجاء وينتهون منه انتهاءهم من دروس الفلسفة

وجماع القول فى هذا الباب من جهة البحث والنظر ان الخالق جلت عظمته قد جعل من فضله ونعمته على الانسان لكل حاسة لذة . فلذة النظر فى تناسق المراتب وترتيب أجزائها وذلك هو الجمال . ولذة الذوق فى ائتلاف الطعوم وذلك هو العذوبة . ولذة الشم فى لطف الرائحة وذلك هو الطيب . ولذة اللمس فى تناسب أجزاء الملموس وذلك هو النعومة . ولذة السمع فى اتساق الصوت وحركة توقيعه وذلك هو الغناء

واما القول فيه من جهة الدين فقل ان تجد ديناً من الاديان فى

إنحاء العالم إلا ويستعان فيه على العبادات بالترتيل والترنيم والتغنيم
لما ينشأ عن ذلك من صفاء النفوس وانتعاش الأرواح للتجرد
والاتصال بالعالم الروحاني . وما كان الدين الاسلامي وهو دين
الأذان لينكر سماع الغناء ويحكم بكراهته وشأنه في فطرة الانسان
على ما بينته لك . وناهيك بما ورد في الخبر الصحيح ان النبي صلى الله
عليه وسلم سمع نسوة يتغنن في وليمة عرس فلم ينكر ذلك عليهن .
وقد استقبله عليه السلام نسوة من الانصار عند مقدمه من احدى
الغزوات بالدفوف والمزاهر وهن يتغنن على الإيقاع بقولهن :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

فلم ينكر ذلك عليهن أيضا . وهذا عمر بن الخطاب على المعروف من
غلظته وشدة في الدين قد سمع الغناء فلم ينكره ولم يكرهه بل
استعاد ومزح : روى عن أسلم مولاة قال . ربّ بي عمر رضى الله عنه
وأنا وعاصم نغني فوقف وقال أعيداً على فأعدنا عليه وقلنا أينما
أحسن صنعة يا أمير المؤمنين فقال مثلكما كماري العبادي قيل له
أي حماريك شر قال هذا ثم هذا فقلت له أنا الأول من الحمارين
قال أنت الثاني منهما . وكان عبد الله بن جعفر على قرابته من رسول

الله وصحبته له كثير الجلوس لسماع الغناء عظيم الاحتفال به
وروى ان معاوية قال لعمر بن العاص امض بنا الى هذا الذي
قد تشاغل باللهو وسعى في هدم مروءته حتى نعيب عليه فعله يريد
عبد الله بن جعفر بن أبي طالب فدخل اليه وعنده من المغنين
سائب خاثر وهو يلقي الغناء على جوار لعبد الله فأمر عبد الله
بتحية الجوارى لدخول معاوية وثبت سائب مكانه وتنجى عبد الله
عن سيره لمعاوية فرفع معاوية عمراً فأجلسه الى جانبه ثم قال لعبد
الله أعد ما كنت فيه فأمر بالكراسى فألقيت واخرج الجوارى
فتغنى سائب بقول قيس بن الخطيم:

ديارُ التي كادت ونحن على منى تحل بنا لولا نجا الركب
ومثلك قد أصيبت ليست بكينة ولا جارة ولا حليلة صاحب
وردده الجوارى عليه فحرك معاوية يديه وتحرك في مجلسه ثم
مدّ رجله فجعل يضرب بهما وجه السرير فقال له عمرو اتّذيا أمير
المؤمنين فان الذى جئت لنلحاه أحسن منك حالا وأقل حركة
فقال معاوية اسكت لا أبالك فان كل كريم طروب

ودخل المغنون منزل سكينه بنت الحسين سبط رسول الله
فأذنت للناس إذنا عاماً فغصت الدار بهم وصعدوا فوق السطح

وأمرت لهم بالأطعمة فاكلوا منها ثم انهم سألوا حُنبلاً ان يغنيهم
صوته الذي أوله : هلاً بكيت على الشباب الذاهب . فقال لهم
ابدؤا أتم فقالوا ما كنا لنتقدمك ولا نغنى قبلك حتى نسمع هذا
الصوت فغناهم إياه وكان من أحسن الناس صوتاً فازدحم الناس
على السطح وكثروا ليسمعوه فسقط الرواق على من تحته فسلموا
جميعاً وأخرجوا أصحاء ومات حنينٌ تحت الهدم فقالت سكينه
عليها السلام لقد كدر علينا حنين سرورنا

وذكر الدلال المغنى عند عبد الله بن أبي عتيق بن عبد الرحمن بن
أبي بكر الصديق رضى الله عنهم فقال انه كان يحسن :

لِمَنْ رُبْعٌ بذات الجيد ش أمسى دارساً خلقاً

ثم استقبل ابنُ أبي عتيق القبلة يصلى فلما كبر سلم ثم التفت الى
أصحابه فقال اللهم انه كان يحسن خفيته فأما ثقبه فلا - الله اكبر
ولقى ابنُ أنجر عطاء بن أبي رباح وهو يطوف بالبيت الحرام
فقال اسمع صوتاً للغريص فقال له عطاء ياخيث أفي هذا الموضع
فقال ابنُ أنجر ورب هذه البنية لتسمعنه خفية أولاً شيدن به
فوقف له فتغنى :

عُوجى علينا ربّة المودج إنك إن لا تفعل تخرجى

أَنْتَى أَتَيْتِ لى يَمَانِيَةِ اِحدى بنى الحرث من مَذْحِجٍ
نَلَبْتُ حَوْلًا كَامِلًا كُلَّهُ لَا نَلْتَقى اِلَّا عَلَى مَنْهَجِ
فِى الْحِجِ اِنْ حَجَّتْ وَمَا ذَا مَنَى وَأَهْلُهُ اِنْ هِىَ لَمْ تَخْجُبِ
فَقَالَ لَهُ عَطَاءُ الْكَثِيرِ الطَّبُّ يَا خَيْثُ

وَوَلَّى قِضَاءَ مَكَّةَ الْاَوْقَصُ الْخَزُومى فَمَارَأى النَّاسُ مِثْلَهُ فِى عَفَافِهِ
وَنَبْلِهِ فَانَّهُ لِنَائِمٍ لَيْلِهِ فِى جَنَاحٍ لَهُ اِذَا مَرَّ بِهِ سَكْرَانٌ يَتَغَنَّى بِصَوْتِ
لِلْغَرِيضِ فَأَشْرَفَ عَلَيْهِ فَقَالَ يَا هَذَا شَرِبْتَ حَرَامًا وَأَيْقَظْتَ نِيَامًا
وَعَنَيْتَ خَطَاً خُذْهُ عَنَى فَأَصْلَحَهُ لَهُ وَانْصَرَفَ

وَكَانَ لِأَبِى حَنِيفَةَ رَحْمَةُ اللَّهِ جَارٌ بِالْكُوفَةِ يَغْنَى فَكَانَ اِذَا انْصَرَفَ
وَقَدْ سَكِرَ يَغْنَى فِى غُرْفَتِهِ فَيَسْمَعُ أَبُو حَنِيفَةَ غِنَاءَهُ فَيَعِجِبُهُ وَكَانَ كَثِيرًا
مَا يَغْنَى :

أَضَاعُونِى وَأَيَّ فَتًى أَضَاعُوا لِيَوْمِ كَرِيهَةٍ وَسِدَادِ ثَغْرِ
فَلَقِيَهُ الْعَسَسُ لَيْلَةً فَأَخَذُوهُ وَحُبِسَ فَقَقْدَأُ أَبُو حَنِيفَةَ صَوَاتُهُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ
فَسَأَلَ عَنْهُ مِنْ غَدٍ فَأَخْبَرَ فِدَاعًا بِسَوَادِهِ وَطَوْبِلَتِهِ فَلَبَسَهُمَا وَرَكِبَ اِلَى
عِيسَى بْنِ مُوسَى فَقَالَ لَهُ اِنْ لى جَارًا أَخَذَهُ عَسَسُكَ الْبَارِحَةَ فَحُبِسَ
وَمَا عَلِمْتُ مِنْهُ اِلَّا خَيْرًا . فَقَالَ عِيسَى سَلِّمُوا اِلَى أَبِي حَنِيفَةَ كُلِّ مَنْ
أَخَذَهُ الْعَسَسُ الْبَارِحَةَ فَأُطْلِقُوا جَمِيعًا فَلَمَّا خَرَجَ الْفَتَى دَعَا بِهِ

أبو حنيفة وقال له سرّاً أأست كنت تغنى كل ليلة :
أضاعوني وأى فتى أضاعوا . فهل أضعناك . قال لا والله ولكن
أحسنت وتكرمت أحسن الله جزاءك قال فعدالى ما كنت
تغنيه فانى كنت آنس به ولم أربّه بأساً قال أفعلى ان شاء الله
هذا جملة ما يذكر فى طرب الغناء طوّات فيه وأسبغت ليتبين لك
منه القول الراجع والوجه الصالح
(الباشا) -

نعالى الله ماشاء وزاد الله إيمانى

ما هذا الذى أراه من بحر العلم المتدفق والفكر المنعمق وما هذا
الإبداع والنفن فى أطراف المعقول والمنقول وما هذا النضج فى علوم
الاولين والآخرين . وما عهدت قبل اليوم فى العلماء من اجتماع
له مثل ما اجتمع للشيخ من دقة النظر وصحة القياس وسعة الاطلاع فى
تواريخ الأمم على اختلاف ألسنتها وأجناسها يتنقل فى تقرير البرهان
وشواهد البيان تنقل النحل على جنى الازهار فيخرج بنا من التاريخ
اليونانى الى الرومانى الى الاوربى الى الاسلامى . فمجباً له أن أعجبني
وعربي . وشرقي وغربي . وكيف انفردت أيها الشيخ عن بقية
اخوانك المشايخ ولم تأخذ بنهجهم فى طريقهم فتقف عند حد العلوم

الشرعية والأقوال الفقهية ثم خالفتهم الى التوسع في العلوم الدنيوية والمباحث العقلية

(الشيخ المتخلف) - لم أخالفهم الا لأن العلم حق شائع في بني الانسان ونور ساطع يستضي به جميع الأنام فلا يختص به أهل إقليم دون إقليم ولا أهل ملة دون ملة ولا يقف الانسان منه عند حد . ومن طلب العلم وارتاحت له نفسه لم يمنعه تخالف اللغات وتفرق الاجناس عن اجتناء ثمره من أى لسان كان وفي أى أمة كانت وفي أى عصر من العصور وما في الأديان دين يبعث أهله ويحض بنيه على طلب العلم والتقاط الحكمة بأى وجه من الوجوه مثل الدين الاسلامى ولكن قد فشا في علمائه داء الكسل فاقصروا في طلبهم للعلم على نيل رتبة العلماء دون العلم في ذاته واعتقدوا أنهم على الهدى ومن سواهم في ضلال (الباشا) - قل ماشئت في نكاسل علماء الدين الاسلامى وسوء تراخيهم واشتغالهم عن العلم لا بالعلم . ولقد بلوت مجلساً لهم من مجالسهم ضاق منه صدرى وعيل صبرى ولا ازال كلما تذكرته جاش بى الهم والغم وتملكنى الاسف والحزن . وأراك أيها الشيخ الفاضل أحسنت كل الاحسان بتوسيعك في الاطلاع وتجرّك في طلب العلم وتعليقك بأسباب العلوم الاوربية . ولكنتى مع ذلك

لا أتمنى لجميع علماء الدين مثل ما أنت فيه خشية أن تلهيهم هذه العلوم
عن علوم الشرع وتستدرجهم الى الخلط والخبط وقل في الناس من
يحكم نفسه للنوسط في الامور والاعتدال في المطالب والوقوف عند
الحد ولست أدرى الى اليوم يعلم الله أى العالمين أضل سبيلاً
وأسوأ مصيراً العالم الذى يتخبط في ظلمات الخرافات ويضرب
في تيه الترهات ويفوص في لجج الباطيل بلباس الدين أم العالم
الذى يُوغل في علوم الاوربيين ويأتم بسنة المخالفين للدين ويفتر
بتمويه الموهبين فيضله الله على علم

(الصديق) - ليس هذا وقت الجدل في تلك المباحث الدقيقة
والنقوتوا بنا الى سماع الغناء قليلاً فقد احتشد له المغنون

(الباشا) ملتفتاً - نعم أصبت . وهل لك ان توفق لى بين حالة
المغنين التى أراهم عليها الآن فى احتشادهم على منصة الغناء وبين ماسمعه
آنفاً عن هذا الفن من الجلال والكمال فانظر اليهم تجد أحدهم يزح
ويققهه والآخر يتشاءب ويمطى وهذا يبصق مينا ويمخط شمالاً وذاك
يصيح بأعلى صوته القهوة القهوة وتأمل في هذا الواقف منهم فوق
المنصة على رجل واحدة وبيده الرجل الأخرى يخلع منها نعله في
وجوه الحاضرين . وأين ما ينبغي أن يكون عليه المغنى من سكون

النفس واجتماع الخاطر وانسراح الصدر وصفاء الروح لحسن تأدية
الغناء واستهواء النفوس اليه

(الصديق) - لا تؤاخذهم بما هم فيه فانهم نشأوا في أمة يرى
السواد الأعظم فيها ان صناعة الغناء من سافل الصناعات وأن في
ممارستها حطه وتقصاً فصغرت لذلك نفوس المغنين وهانت عليهم
صنائعهم ولم يروا فيها سوى انها أداة للكسب والارتزاق على مثال
بقية الصناعات فهم والحدادون أوهم البنائون سواء بسواء وذهلوا
كل الذهول عن جمال الصنعة وجلالها وغفلوا كل الغفلة عن لذة الفن
وأدبه وصاروا يؤدونه كما يتفق لا كما ينبغي وكما يحى لا كما يرضى .
ولا يغيب عن فطنتك انه لا بد للمغنى من أن يشق في نفسه بتأثير
غناؤه في نفوس السامعين حتى ثور فيه نشوة الطرب ويتبادل معهم
لطف الانفعال فتتصل القلوب وتجاذب الارواح وتصعده نفسه
في مراقى الفن ونسمو به في صناعته الى مدارج السكال والا كان
المغنى اذا غنى في غفلة السامع واشغاله عنه كمن يقرأ للنائم كتاباً
أو يسرج للأعمى سراجاً فيحل به من التواني والفتور ويعتريه من
الانتقاض والضيق ما يذهب بروق الصنعة ويعجوه بهجة الفن . وانك
لتحقق صدق ما اقول اذا نظرت الى نظرة الى هيئة السامعين في هذا

المكان . فمن يمينك جماعة من الاعيان والتجار تراهم مشغولين بمراقبة كل داخل وخارج عساهم يحظون بإشارة تحية او ايماءة تعطف فهم لا ينفكون طول ليلهم في قيام وسلام للزلف الى الكبرآء والحكام وحديثهم لا ينقطع عن التفاخر بمعرفتهم والتباهى بأقدارهم . وعن شمالك خليط من القضاة والمحامين لا ينتهون ابداً من المناقشة في صنوف الدعاوى والقضايا ولا يستريحون برهة من تفسير المواد وشرح البنود واستنتاج الاحكام ولا ينرك المحامون القضاة الا بعد أن يحتالوا على استنفاد ما عندهم من الافكار والآراء في الوقائع المختلفة والنقط المشبهة لينتفعوا بها ويستندوا عليها في مرافعتهم أمامهم ويتأكدوا بها ربح مالدتهم من المشاكل والدعاوى . ومن قدأملك طائفة من الامراء والحكام لا هم لهم الا أن يجتلبوا توقيير الحاضرين واحترامهم بالتأنف في الجلوس والتكلف في الشمائل والاتفاخ في الشياب والقتل في الشوارب أجسامهم حاضرة وقلوبهم غائبة وأبصارهم شاخصة وألبابهم ذاهلة فهم على هيئة النماثيل والاصنام - فأسألوهم ان كانوا ينطقون - ولئن نطقوا بكلام فانما يدور على ان اليوم كان شديد الحر وأن أو ان الرحيل عن مصر قد حل . ومن خلفك ثلثة من الاحداث . لم تهذبهم الاحداث . وشبان لم يُربهم الزمان . مرمي الغاية عندهم ان

تكون ملابسهم على الزى الجديد . وأن تُفرَغ اجسادهم منها في قالب من حديد . فهم لا يتحركون حركة الا بألف حساب . خشية ان ينفرط نظام الثياب . فان قعدوا فكالمقاعدين للمصور في حفظ الاشكال والاضاع . وإن هم وقفوا فكالمصلوبين على الاجذاع . ولئن تجاوز حديثهم حديث الملابس والازياء . اشتغلت ألسنتهم بذكر الغلمان والنساء . ورووا عن ابن فلان أو بنت فلان . ما تنقبض منه النفوس وتقشعر الابدان . ولم يبق غير هؤلاء من طبقات الحاضرين من يلتفت الى سماع الغناء ويتفرغ له الا طبقة الغوغاء من الخدم وغيرهم . فكيف يتيسر للمغنين في هذا المقام ان يتقنوا في عملهم أو يتقنوا في صناعتهم أو يحافظوا على أدب المجلس ويراعوا حرمة الفن قال عيسى بن هشام - واتقطع الحديث بمرور صاصب العرس أمامنا مر السحاب . فانقضَّ على الواقفين عند الباب . كأنه بارقة شهاب . أو نازلة عذاب . يدفع بيديه عن الشمال وعن اليمين . في صدور القاعدين والقائمين . لا يشك من رآه أنه أسيرٌ حلَّ عنه الوثاق . أو عبدٌ من العبيد يطلب الإبقاء . فالنفت الباشا يسأل الصديق : أجدارٌ هوى في البيت أم حريق

(الصدق) . - لا هذا ولا ذاك وإنما جاء الخبر لصاحب البيت

بقدم جماعة من رجال الافرنج ونسائهم
(الباشا) - أترام يريدون إقامة ألعاب افرنجية مع الاغانى العربية
(الصدىق) - ولا هذا أيضاً بل هم قوم من السائحين الاوربيين
في البلاد الشرقية يتشوفون في مطالعتهم الآثار المصرية الى رؤية
المحافل والاسواق فاذا سمعوا بحفلة عرس هرعوا اليها بنسائهم
واولادهم لتسلية خاطر بدرس العادات والاخلاق

(الباشا) - قد تين لي آناً ان صاحب العرس من أهل الصعيد
فأى صلة بينه وبين سيّاح الافرنج تدعوه الى دعوتهم في عرسه أم
من عاداتهم أن يهجموا على بيوت الناس بغير دعوة ولا استئذان
كالطفيلين

(الصدىق) - هم من المدعويين لا من المتطفلين . ولا يلزم لدعوتهم
ان يكون لصاحب العرس أدنى صلة بهم أو أن يعرف أشخاصهم
ويفقه لسانهم ولكن حضورهم في حفلة العرس أمر مرغوب فيه
عند صاحبه ينشرح به صدره ويزهو به عنده قدره ويراه نخرآله
يعلمو به ذكره ومجداً للبيت يرتفع به عماده . وهو في دعوتهم
بالخيار إمان يرسل الى بعض تراجمة الفنادق فيعطيهم عدداً من
تذاكر الدعوة بغير أسماء معينة ليوزعوها على من يكونون في

خدمتهم من السياح فيبيعها التراجمة اليهم بقيمة معلومة من الدراهم كأنها تذاكر الملاحى العامة ويعتقد الاجانب ان تلك عادة من عادات الشرقيين أن يدخل الناس إلى أعراسهم بأثمان معينة وإما أن يترقى صاحب العرس فيخاطب أصحاب الفنادق الكبيرة بأن لديه حفلة عرس في الليلة القلانية ويرغب أن يحضرها كذا عدداً من السياح فيتحف صاحب الفندق نزلاءه فيما يتحفهم به بالدعوة الى العرس فاذا شرّفوا صاحب العرس بحضورهم هرع الى حسن استقبالهم وبالغ في التلطف والترحيب بهم وأنزلهم فوق منازل الامراء والكبراء ونسى كل من فى العرس سواهم وتفرغ طول ليلته لخدمتهم كما تراه من صاحب هذا العرس . وانظر اليه كيف يتيه عجباً ويشمخ كبراً وهو يتقدم نساءهم ليدخل بهم الى بيت الحرم لمشاهدة زفاف العروسين بعد أن أجلس رجالهم على رؤوس العظماء والامراء فى صدر المكان

(الباشا) - وما هذا الذي أراه فى أيدي النساء يحملنه معهن كأنه الاسفاط فيها الحلى لهدية العروس فهل بلغ بهن الكرم الى تكليف أنفسهن تقديم الهدايا لعروس لا يعرفنها ولا يعرفن أهلها من قبل (الصدوق) - هذه آلات الرسم والتصوير يحملنها ليأخذن بها

مناظر الحرم وصور النساء في زينتهنّ وتبرّجهنّ وما تكون عليه هيئة الزفاف ليتهادّين بها اذا رجعن الى ديارهنّ . وربما أنسخت منها ألوف النسخ اتباع في الاسواق الاوربية وتنتشر هناك للاستهزاء والسخرية

قال عيسى بن هشام - ومنذ عاد صاحب العرس من تشيع السائحات الى الحرم . كالصاعدات الى الهرم . تقدّم الى صدر المكان . ونظر في الوجوه باعمان . ثمّ دنا من طائفة الكبراء والأمرء . وقصد الأمير المقدّم فيهم بلامرء . فوقف أمامه وقفة الإجلال والإعظام . ودعاه لافتتاح قاعة الشراب والطعام . فقام الأمير يمشى أمام الصفوف في خيلائه . مشية القانديوم بلائه . وفتح له الباب ففتح المائدة ولافتح سعد للقادسية . والمعتم لمعمورية . ومحمد للقسطنطينية . نعم ولافتح جدّه الأعلى للأقطار الحجازية . ودخلت في أثر صفوف الجموع . وهم في سكون وخشوع . دخول التقاة . للصلاة . والعفاة . للصلّات . ثمّ ما لبثوا أن هجموا على المائدة هجوم الفوارس البواسل . على الحصون والمعقل . لا بل هجوم الأسود الضارية . على الاشلاء الدامية . والذئاب الخاوية . على الشياه الراعية . والذسور . على القبور . والذباب . على الشراب .

واشتدَّ الزحام . وزلت الأقدام . وضلت المذاهب . واصطكت
 المناكب . وشخصت الأحداق . وامتدت الأعناق . وتهذلت
 الشفاه . وتحلبت الأفواه . وتحركت الأشداق . وتقارعت
 الأُطباء . وتصاروت الأيدي بالمدى . كالظمى . في الوغى . والتفت
 الساق بالساق . واشتدَّ الهولُ وضاق الخناق . ثمَّ انجلت الممعة
 عن شهداء النخَم . وأسراء البشَم . وقتلى الطعام . وصرعى المدام :
 بأجسامٍ يحُرُّ الفتلُ فيها . وما أقرانها إلاَّ الطعامُ
 ولعبت الكؤوس . بالرؤوس . والشمول . بالعقول . والراح .
 بالارواح . وذهبت العقار . بالوقار . والبطنة . بالفطنة . فاخلط
 الحابل بالنابل . والعلى بالسافل . والرفيع . بالوضع . والامير .
 بالحقير . هذا يمزح ويقهقه . وذلك يتمتم ويتهته . والآخريُّ
 طعاما . وسواد يقيُّ كلاما . ولم نسمع بينهم من قولٍ يفهم ويعقل .
 أو حديثٍ يؤثّر ويُنقل . إلاَّ ماسمعناه يدور بين الشاب متكلف
 متصنع . وكهلٍ مجرَّب متضلع :

(الكهل) - أليس من أسوأ الأسواء وشر البلاء ما نراه من
 حال هذا الصعيديِّ صاحب العرس كيف اعتزل سنة آبائه واجداده
 وانسلخ عن مألوف العادة في قومه ودياره وطرطرة واحدة الى

العمل بعادات الغربيين والتقليد لبدع الافرنج جحرى فى الاحتفال بالعرس على نمطهم وأسلوبهم مع جهله بها وعدم ملاءمتها لطبعه وكيف لا يُرثى لحال هذا المسكين وقد أنفق جانباً عظيماً من أمواله لاقامة المهرجان على هذا الطراز الغريب عن ذوقه فهو فى حيرة وذهول لا يدرى ما يصنع ولا يعلم ما يفعل فى وسط هذا السوق القائم والزحام الهائل وانظر الى مقدار السخط النازل فوقه والاعتراض المصوب عليه من أغلب الذين دعاهم ليرضيهم بعمله ويكرمهم بحسن صنعه بعد أن تكلف لهم ما يفوق الطاقة وارتكب ما يخالف العادة ثم اشهد معى بأنه أساء الى نفسه وجنى على أهله

(الشاب) - ما أراه الاّ أنه أحسن صنعاً وأجاد عملاً وأخذ بالسنن الأرشد فى التحلى بشعار المدينة والتعلق بأسباب الترقى فى الحضارة وقد آن أن يستوى أهل الارياف بأهل المدن فى السير على النهج الغربى لهواً كان ذلك أوجداً وأن يخلعوا عن رقابهم أغلال العادات العتيقة وربقة الافكار القديمة فترفع الامة وتنفع البلاد

(الكهل) - أى نفع يُرتجى لأهل البلاد بخراب البيوت ودمار الدور . ولئن امتد الزمن قليلاً على عمد الارياف وأعيانها وهم يرسلون بأبنائهم الى البلاد الاوربية ثم يهجرون مساكنهم ومساكن

آبائهم ويتركون مزارعهم ومرافقهم ليسكنوا معهم عاصمة البلاد
بعد عودتهم ويتخلفوا بأخلاق الغربيين ويترأوا من كل ما كانوا فيه
من قديم وعتيق - لم تلبث الاموال أن تذهب ضياعاً والدُّورُ أن
تمسى خراباً وأن نصبح المزارع بأيدي الاجانب الذين يقدونهم في
امتلاك الاطيان وزراعة الاراضى كما يقدونهم هم في باطل المدينة
وزخرف معيشتها

(الشاب) - أظنك كنت تريد ان يقام الاحتفال بزواج هذا
الشاب المتمدن بين الاحواض والمستنقعات في قرية أبيه . وبين
الاباش والهمج من فلاحيه ومزارعيه . فيستبدل المفاصير بالخيام .
والكهرباء بالمشاعل . و « البوفيه » بالسماط . والصحاف بالقصاع .
والأباريق بالجرار . و « الديند » بالدفين . و « المايونيز » بالعصيدة .
والهليون بالفول . وعش الغراب بالحلبة . و « المستاردا » بالمش .
و « المربى » بالرطب . و « المانجو » بالدوم . و « الكريز » بالحميز .
و « الشمبانيا » بالزهر . و « الكاب » بالحليب . و « الكنيك »
بعرق البلح . والموسيقى بالزمار . والوتار بالاذكار . و « البيلنو »
بالأرغول . و « الأروكستيز » بالرباب . و « الباللو » بالسحجة .
و « مسن أوستين » بنت أم شنب . وموكب الزفاف بلب

الهواة . ثم يدعو مشايخ العربان بدل القناصل العظام . ونظار
الزراعة بدل نظار الحكومة . وكتبة المراكز والسياف . بدل
أمراء البورصة والمصارف . ويضع على رؤوسهم سعف النخيل
والعراجين . بدل أكاليل الازهار والرياحين

(الكهل) - يكفئك فقد أسهيت في الشرح والوصف . وأنا
أقول لك: نعم يعجبني ان يكون الامر على مثل ما تسخر منه ما دام
من عاقبه عمران البيوت وحفظ الاموال وبقاء الأُحساب وإطعام
المساكين وبرُّ الأقارب وإسداء الخير للأصحاب والجيران وإدخال
السُرور على النفوس بما يرضيها ويلائم أذواقها . بهذا ينتفع أهل البلاد
ويرضى الناس بعضهم عن بعض . ولا ارضى ابداً ان ينقلب الحال
كما أراه مادام من ورائه عواقب الخراب وسخط الناس وعقوق
الاهل ولصوق العار ووقوع الفضيحة وسوء المصير . ومن الذي
يعارض فيما أقول من أهل العقول الصائبة وهو يرى هذا الرجل
العريق النسب في أهل الصعيد أهل الشهامة والحمية وذوى الغيرة
والأنفة ومن حوله الخصيان على ما شاهدته الآن يطالبونه أن
يأمر الخدم بحمل صناديق الخمر لشرب النساء في الحرم . وهو يعرف
حكاية الأعرابي الذي سقوه الخمر في احد الاعراس ولم يكن ذاقها

من قبل فلما نارت سوزتها قال لمن حوله « من أهل البيت » ان كان
 ساؤكم يشربنها فقد زنين ورب الكعبة . ولست أدري على كل
 حال ماهو الغرض الدافع لصاحب هذا العرس الى احتمال كل هذه
 الفضائح والمعائب . فان كان غرضه إرضاء أهل العاصمة بتبذير تلك
 الاموال الطائلة في إقامة الاحفال فقد أغضبهم وأسخطهم جميعاً على
 مانسمعه ونراه وليس فيهم الا كل منتقد لعمله معترض على فعله
 يرميه بعضهم بالتقصير ويرميه بعضهم بالتبذير . وان كان الغرض
 من هذا التوسع في الإنفاق إذاعة الشهرة بعظم الثروة والغنى بين
 الناس وانتشار ذكره بالكرم والجود فلهذه الشهرة وجوه أخرى
 تفيده وتفيد الناس ولا ابتناء المحامد سبل شتى تُرضى النفوس وتسر
 القلوب . ولو كان اقتصر في إقامة الوليمة على نصف ما أنفقه فيها
 وبذل النصف الآخر في باب من أبواب البر والاحسان مثل
 مساعدة الفقراء وإنشاء الملاجئ وإقامة المستشفيات وإعانة ذوى
 الصناعات لخلد ذكره بين قومه بالعمل الصالح ولا قاموا لمجده
 صروحاً من طيب الأحدثة وجميل الشناء

قال عيسى بن هشام - وما نشعر الا وقد انقطع علينا سماع بقية
 الحديث بصياح جماعة من خدم المائدة يدعون المدعوين للخروج

من القاعة حيث لم يبق على المائدة من طعام ولا شراب ويعُدّونهم بالعودة إليها بعد غسل الآنية وتجديد الألوان. فلم يسمع لهم أحد ولم يلتفت إلى صياحهم فأخذوا بالتصفيق بالأكف تنفيراً لهم كتنفير الدجاج فلم ينتقلوا ولم يتحركوا فعمد الخدم إلى آخر حيلة يضطرونهم بها للخروج فأطفأوا الاضواء وتركوهم يتخبطون في الظلمات ويتساندون على الجدران يطلبون الابواب فسبقناهم إلى الخروج والتقينا في خروجنا عند الباب بصاحيين يتنازعان في هذه الحال ويتخاصمان في شدة السكر فلطم أحدهما صاحبه فسقط على الارض يتخبط في قيئه . وينشد هذه الايات في هذره وهزئه :

شربتُ الخمرَ حتى قال صحبي أَلستَ عن السّفاهِ مُستَفقٍ
وحتى ما أُوسدَ في مَبيتٍ أنام به سوي الثّربِ السّحيقِ
وحتى أغلَقَ « البوفيه » دوني وآنستُ الهوانَ من الصديقِ

وسمعنا الآخر ينشد وهو يذفخ تيهاً وعجبا ويصرّخ دّه صلفاً وكبرا :

شربتُ الخمرَ حتى خلتُ أني أبو قابوسَ أو عبدُ المَدانِ

وسمعنا في الخارج عزف الموسيقى تقدم العروس لزفافه عند دخوله الحرم فسكت الغنّون وضج السكان واضطرب الحاضرون ووقف الجالسون وصعد بعضهم فوق الكراسي يتناولون لمشاهدة

العروس وهو في زمرة من اخوانه وأترابه يخطر بينهم ويرفل حتى اذا توسطوا ساحة الدار وقفوا به وقفةً فقام احد الحاضرين فصعد على منصّة المغنّين صعود الخطيب على المنبر فشخصت نحوه الابصار ومالت اليه الاسماع واذا هو يخطب بخطبه هذه نسختها: « أيها الحاضرون والغائبون . هذه ليلة قامت فيها أعواد السرور . على منابر الجبور . وأشرقت فيها أهلة المسرة والبدور . من سماء القلوب وأرض الصدور : وطلعت فيها كواكب السعود من أفق العيون . فاجلجت عن بصائرنا غمام الأحزان ووبل الشجون . ولو أنى لست من فرسان هذا الميدان . الراكبين فيه لحيازة قصب الرهان . ولا من المجردين لسيوف الخطب وخطب السيوف . بحروف الرماح ورماح الحروف . ولا من الممتطين في شروح البلاغة متون الضوامر . ولا من السابحين في بحور النظم والنثر على كل كامل ووافر . ولا من الساحيين حلة سحبان . ولا من المتدربين في حصون المعاني والبيان . وقد حيل بين العير والنزوان . إلا أن ما عرفه في هذا العروس من العلم والإقدام . وما له في مستعمرات التربية من وطأة الاحتلال ورسوخ الافدام . وما أعتقده فيه من محبة الأوطان . ومصادقة الاخوان . كما ان ما أعلمه وأتحققه في العروس التي تزف اليه هذه الليلة .

من علمها بتدبير المنزل وفروض العيلة . وما هو مشهور عنها لدى كل
 قاص ودان . مما يوجب حسن القبول والامتنان . وما شهد لها
 به معلمو المكاتب ومدرسو المدارس . بأنها أنس المحافل وبهجة
 المجالس . وما أراه على وجوه الحاضرين من الكرم والسماح .
 وأتوسمه في جباههم من الفرح والانشراح . كل ذلك هو الذى
 جرأتى على الوقوف فى هذا الموقف الحرج . وسط بحر هذا العرس
 المتموج . وانى أتوجه اليكم بوجهى لتضربوا عن تقصيرى صفحا .
 وأتقدم لكم بنفسى لتطووا عن هفواتها كشحا . وأطلب منكم أن
 تشربوا معى نخب الكؤوس . فى نخب العروس . وتقولوا معى
 فليحى هذا الشاب فى هناء وسرور . ورخاء وحبور . ممتعا بنشأة
 الرفاء والبنين . وناشئة الاولاد الناجحين . ماناح القمرى فى رياض
 البساتين . وصاح الاخدرى بين الاعشاب آمين آمين »

ثم نزل الخطيب . فقابلنه الاكف بالتصفيق والافواه بالتهليل
 والصدور بالتبجيل وصدحت له الموسيقى ثلاثا بالسلام . ثم اعقبه
 على المنبر شاعر من المشهورين بين الخاص والعام . فأنشد هذه
 القصيدة النادرة . والمدحة الباهرة :

بأوقات الهناء الصافيات تجلّى الاس من كل الجهات

على أهل العروسين الهداة	لقد قام البشير بها ينادى
كما تجرى خيول الصافنات	وفي تلك الصدور الفرح تجرى
بخير الغانيات الآنسات	فبشرى أيها الشهم المفدى
من المتأربات الراقيات	ظفرت بدرة في عقد ماسٍ
الى شمس الهدى والمكرمات	وقد زفوا بهذا الأفق بذرا
خازت زينة المتعلمات	تغذت بالمعارف والمعالي
لدى أيماننا المستقبلات	يرجى أن يكون كذا بنوها
وتغد وللحمى أقوى الحماة	بهم تزهو الشبيبة في المرامي
وتصبح قدوة المتربيات	بهم ترقى المواطن مرتقاها
وجند في الحروب مبرزات	كجيش في البلاد عمر مرمى
وترفل منه في حلل الثبات	وتمشى إليه في أوج المراقى
وتصبح تلك خير الامهات	فتصبح أنت خير أب كريم
ونعمى بالبنين وبالبنات	ودتم بعد ذاك بألف خير
لجئت بألف بيت شاهقات	ولولا الاختصار وضيق وقت

ثم انتهينا بحمد الله من الشاعر بعد الخطيب . وعاد المغنون الى
 اللحن والتطريب . فأخذت أجيل النظر وأقلب الطرف . من ركن الى
 ركن ومن صف الى صف . فلم أجد في الحاضرين بلا استثناء . من

هو ملتفت الى سماع الغناء . بل رأيتم يوجهون النظر الى السماء .
ويكثرون من الاشارة والايحاء . كمن يتضرع بالدعاء . لكشف
الحنّة والبلاء . فرفعت مثلهم نحو السماء بصرى . ودُهِيتُ من حيث
أدرى ولا أدرى . إذ رأيت نوافذ الدار . مهتوكة الاستار . وفي
كل نافذة هيفاء ، سفرة النقاب . كالدُّمَيّة في المحراب . أو كالصورة
تتألق في إطارها كالشهاب . أو كالبدربداً مسفراً من خلل السحاب .
تُنفذ منها مثلَ خيوط الغزلة للمغازلة . وتجرّد من اللحظات
مثل سيوف الكُماة للمنازلة . فتصيد طيور القلوب الحوائم وتفتك
بمهج النفوس الروائم . ثم تراها تُوى بكأس الصبهاء . الى شفقها الحمراء .
وتلمس واسطة العقد . بزهرة من الورد . فيشتبه على الرائي وجه
الأمر . باختلاط اليواقيت كالجرم . ياقوتة الجمر . ياقوتة الثغر .
ويافوتة الزهر . ياقوتة النحر . ثم لا تفتأ ترسل الاشارة تلوي الاشارة .
تارة بالمروحة وأخرى با « لسجارة » . مع ابتسامات توضح عن
مكنون الصدور . وتفصح إفصاح المعاني في السطور . والرجال
من تحتهم يجابونهم على أعين النظار . طوراً بإشارات الأيدي
وطوراً بلفظ الأزهار . وكل مُغازل فيهم يمتقد أنه امتاز على سواه .
وتغلب على أهل النوافذ بهواه . وأضرَم فيهنّ نار المشق وجواه .

رخلع قلوبهنّ بدعواه . وما بالنوافذ سوى أزواجهنّ وبناتهنّ . أو
 أخواتهنّ وبنات أخواتهنّ . والمغنى يستقبل وجوههنّ في هذه الاثناء .
 بوجه ليس فيه أدنى حياة . فيفتنّهنّ من الأصوات والألحان . ماثير
 من الغرام ويهيج من الأشجان . والخصيان يصعدون الى الحرم
 بأوراق وينزلون اليه بأوراق . يتخبّرنَ فيها الادوار الساثرّة على السنة
 المشاق . في وصف حرارة الاشواق . ومرارة البعد والفراق .
 وما زالت الحال تترايد قحّةً ووقاحة . وتتضاعف هتكاً وفضاحة .
 حتى قام في وسط المكان جماعةٌ من الاصحاب . يتقاذفون بالفاظ
 القذف والسباب . ثمّ انهم انتقلوا من اتلاعن والتشائم . الى
 التضارب والتلاكم . فقام الحاضرون على الاقدام لمشاهدة ميدان
 النزال والخصام . ثمّ تداخل رجال الشرطة بيدهم لفضّ المخاصمة .
 وسوّقهم الى المحاكمة . بعد أن تمزقت الثياب تمزّق الأوراق .
 وتخصّبت الوجوه بالدم المهرق . فصارت الافراح أتراحاً . وانقلب
 الغناء نواحاً . وقلتُ لصاحبي هلمّ بنا الى الفرار . من مواقف التهمة
 والعار . وخرجت به أسوقه أُمّامى . واقول له في بعض كلامى :
 لقد حق لك بعد الذى رأينا ونظرنا . وبلّونا وخبرنا . ان تلتهب
 بالغضب والحنق التهاّباً . او يذهلك الدهشُ والمجب فلا تعي

جواباً . وهل بقي بعد ذلك فرقٌ بين سرور الدنيا وحزنها . أو
فضلُ لظهِر الأرض على بطنها . فأجابني بلسان الحكيم المدرّب .
والحليم المهذب . وهو يتبسم استهزاءً . ويهزّ كتفيه ازدراءً : لم يبق
فيّ بفضل الحكمة فضلٌ للسخط والغضب . وعجّبي اليوم مما
أرى يكون من العجب



قال عيسى بن هشام - وتمكّن من الباشا حبُّ الاستكشاف
والاستطلاع . لدرس الاخلاق وسبّر الطباع . وتبدلت الوحشةُ
عنده بالاثتناس . في مخالطة الناس . فصار يُلحّ على وَيَلجّ في الطلب .
أن أذهب به في هذا السبيل كلّ مذهب . وأنا أداوره وأحاوله .
وأماطله وأطاوله . وهو لا ينفكّ يستنجزني ويسنقضيّني . وإذا
استعفيته لا يعفني . فقلت له لم يبق أماننا من المجالس والمنتديات .
الآ ما اشتملت عليه الازبكية من المخجلات المُنديات . وماضمتهُ
من صنوف الرجس والنكر . وفنون الفسق والسكر : وأنا أهلك أن
أسلك بك مسالك الظّمة والتهمة . وأن أهلك محالّ الرية والشبهة .
وأربأُ بسنّك وقدرك أن تختلط بتلك الزمر . وتدخل معهم في تلك
الغمر . وتقسر نفسك الشريفة على ما لم تألفه من مثل ما يعملون . وشرّوى

ما يفعلون فلا تأمن حينئذٍ تعد الناقدين . وطعن الطاعنين . وقاسمتُهُ اُنِي
لَكَ لَمِنَ النَّاصِحِينَ . فقال اِلَى تَقُولُ ذَلِكَ وَقَدْ آتَيْتَنِي مِنْ دُرُوسِ الْحِكْمَةِ
الْعَالِيَةِ . وضروب الفلسفة السامية . ما أزدري معه عدلَ العاذلين .
وأحتقر به لومَ الجاهلين . وَلَنْ يَضِيرَ النَّفْسَ الشَّرِيفَةَ الطَّاهِرَةَ . أَنْ
تَجَاوِرَ النَّفْسَ الْخَبِيثَةَ الْفَاجِرَةَ . وَقُلْ أَنْ يُعْدَى الْمَرْبُضُ الطَّيِّبُ .
وَتَذْهَبَ رَائِحَةُ الدَّفْرِ بِرَائِحَةِ الطَّيِّبِ . وَالْأَمْعَانُ فِي رُؤْيَا النَّقِيصَةِ
وَالرَّذِيلَةِ . يَزِيدُ النَّفْسَ الْفَاضِلَةَ تَمَسُّكًا بِالْفَضِيلَةِ . وَلَا يَعْرِفُ قَدْرَ
الرُّشْدِ وَالْمُهْدَايَةِ . الْأَمَّنُ نَظَرٌ فِي أَعْقَابِ الضَّلَالَةِ وَالْغَوَايَةِ . وَبِالظُّلْمَةِ
يُعْرِفُ فَضْلَ الضِّيَاءِ . وَبِضِدِّهَا تَتَبَّنِ الْأَشْيَاءُ . — ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ
مَا عَلَّمْتَنِي مِمَّا عَلِمْتَ رُشْدًا . وَلَقَدْ كَانَ مِنْ أَدَبِ الْحُكَّامِ فِي أَيَّامِ
دَوْلَتِنَا . وَزَمَنِ صَوْلَتِنَا أَنْ يَغْيُرُوا مِنْ هَيْئَتِهِمْ . وَيَسْنُرُوا مِنْ
سَمَاتِهِمْ وَيَبْدُلُوا مِنْ أَزْيَائِهِمُ الْمَعْرُوفَةَ . بِأَزْيَاءٍ غَيْرِ الْمَأْلُوفَةِ . لِيَتِمَّ كُنُوزُ
مِنْ مَخَالِطَةِ النَّاسِ عَلَى اخْتِلَافِ أَشْكَالِهِمْ . وَيَقِفُوا عَلَى حَلِيَةِ أَمْرِهِمْ
وَحَقِيقَةِ أَحْوَالِهِمْ . فَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ مِمَّا يَضُرُّ بِسَمْعِهِمْ . أَوْ يَحْطُ مِنْ رَتَبَتِهِمْ .
عِنْدَ ظُهُورِ أَمْرِهِمْ . وَوُضُوحِ سِرِّهِمْ . فَلَا عَلَيْكَ إِذَا أَنْ تَسْلُكَ بِي
مَا شِئْتَ مِنَ الْمَسَالِكِ . وَلَا تَخْشَ عَلَى شَيْئٍ مِنْ تِلْكَ الْمَعَاطِبِ وَالْمَهَالِكِ .
قَالَ عَيْسَى بْنُ هِشَامٍ — وَلَمَّا لَمْ يَبْقَ لِي بَدٌّ مِنْ امْتِثَالِ حُكْمِهِ . وَتَنْفِيزِ

عزمه . قصدت به من الازبكية روضتها الغناء . وحديقتها الفيحاء .
فلما وصلنا الى بابها . ووقفنا عند دُولاها . وضعت فيه أجرة العبور .
كما توضع النذور في صندوق النذور . ودرت فيه دورني ودار الباشا
دورته . فقال لي وهو يدافع الغضب وسورته . هل كُتب على
الداخلين في هذه الجنة الزاهية . ان يدور الاسان دورة الثور في
الساقية . فقلت له نعم شاع التخوين بين الناس في جميع الاشياء .
فاخترعوا لهم مثل هذه الآلة الصماء . لتكون عليهم رقيقاً عتيداً .
لا يستطيعون معها اختلاصاً ولا تبديداً . فهي ترقم من الداخل عند
كل دورة . - ما ينفذه الداخل فيها من الاجره . فلا يضع منه مثقال
ذرة . ولما جاوزنا الباب اعجب الباشا حسن المنظر وازدهاه . وراقه
بهام المكان واستهواه . وتملكه الابتهاج وتولاه . فقال ماشاء الله
لا قوة الا بالله لمن هذه الجنة من كبراء البلد . قلت هي ملك كل
واحد وليست بملك أحد . انشأتها الحكومة من « المنافع العامة » .
لنزهة الخاصة والعامة . ثم سرنا نطوف في انحاء الحديقة . بين اشجارها
الوريقة . واغصانها الرشيقة . وازهارها الأنيفة . والباشا يهتز طرباً .
ويميل عجباً . لحسن هذا المنظر العجيب . والمنبت الخصب . ثم
وقف بنا وقفة بين برد الظلال وخرير الماء . ورفَعَ بصره يقدس

باسط الأرض ورافع السماء . ثم رأيتُه يُنحني للركوع انحناء القوس .
بعد أن أنشد قولَ حبيب بن أوس :

أَرْضٌ إِذَا جَرَّدَتْ فِي حُسْنِهَا فَكَّرَكَ دَاتَكَ عَلَى الصَّانِعِ
وسمعتُه يتلو في الركوع والسجود . قولَ صانع الوجود : « لِّلّهِ
يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ
وَالْآصَالِ » وقوله أيضًا عزّ من قائل : « يُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ
السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ
لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ »

ثم التفتُ به في طلب الراحة . فجلسنا على أريكة من أرائك تلك
الساحة . ودارت بيننا هذه المخاطبة . بما اقنضته المناسبة :

(الباشا) - كيف لا يكون هذا المكان بالناس غاصاً بالمتنزهين
مزدحمًا يشاهدون جماله ويتفابؤن ظلاله ما دامت الحكومة قد أباحت
لكل رائحٍ وغادٍ كما تزعمه ومالي لا أرى فيه غير هؤلاء الأجانب
في أزيائهم بأبنائهم وسائهم مهمل وقفته الحكومة على الغربيين وحرّمته
على المصريين فأننى لم أجد فيه أحدًا منهم منذ دخولنا إلى هذه الساعة
(عيسى بن هشام) - لم تُؤثر به الحكومة قومًا دون قوم ولكن
المصريين كأنهم ألقوا التهاون بالذات الروحية وتغافلو عنها وأخصها

معرفة ما حسن في الاشياء وتمييز الجمال والكمال ومواضع الاحسان والاتقان في صنعة الوجود ورياضة الفكر والنظر في مطالعة كتاب الكائنات ونظام المخلوقات التي تسبح بحمد خالقها أي تدل عليه بصنفته فيها: وكان الواحد منهم قد حبس نفسه وقيد فكره في الوجود على الماديات فلا يكاد ينظر في دهره نظرة المشاهدة والامعان في خلق السموات وما يتألق فيها من الشموس والاقمار والنجوم والكواكب ولا في خلق الارض وما ينبت فيها من النباتات ويدب من الحيوان ويجري من البحار ويرسو من الجبال وهي بجمال صنعها وبكمال وضعها:

تَصِيحُ بَمَنْ يَمُرُّ أَلَا تَرَانِي فَفَهِمَ حِكْمَةَ الْخَلْقِ الْمَجِيبُ
(الباشا) - جلّ الخالق الصانع . ولكن لا شيء سبب الفـ
المصريون غفلتُهم عن التمتع بهذه النعمة نعمة المشاهدة ولذة المطالعة
وصار الاجانب يتعلقون بها دونهم ويمارزون بها عليهم

(عيسى بن هشام) - لا سبب فيما اعلم الا التماذى فى التهاون
والتراخى عن ايقاظ هذا الشعور الغريزى للكائن فى النفس وتنميته
بالرياضة والتفكير ومعاودة الامعان والتدقيق . وقد اعتنى الاجانب
به عناية خاصة فاجتهدوا فى تنميته وترقيته حتى صار لديهم المسكة

من الملكات وفناً جيلاً من أرقى الفنون فدرّبوا عليه ومرتّبوا فيه
وسرّى في دمائهم يتوارثه الابناء عن الآباء فترى الطفل فيهم اذا
شبّ ودرج واراد أن يتحف اهله يوماً بادر الى الروض فاقتطف
منه اول زهرة من الربيع وتسابق بها اليهم كأنما عثر لهم على كنز
لحسن الوقع عندهم . ولقد برعوا في الصناعة بفضل هذا الشعور
ودوام غموّه ولم يقتصر الحال فيه عندهم على المراثيات الطبيعية
بل تجاوزوه الى المراثيات الصناعية ففيهم من يبذل الالوف من الدنانير
والملايين من الدراهم لاقتناء صورة من الصور ورسم من الرسوم يحسن
تمثيل زهرة من الزهور أو دائرة من الشفق أو راعٍ من الرعاة أو حيوان
من الحيوانات بما لا مناسبة بين قيمته في الاصل الطبيعي وبين قيمته
في الشكل الصناعي وقلّ أن تدخل دار ميسور منهم الا وتجداً محام
الجدران مزدانة بالأواح التصوير والتهاويل مما يحاكي المناظر الطبيعية
فلا يفوت صاحب الدار أن يتمتع بحسن المنظر في داخلها إن حجبته
عن مشاهدة جمال الطبيعة في خارجها . ولقد جرّهم ذلك الى شدة
الولوع بمشاهدة الآثار القديمة والتنافس في اقتنائها والتغالى في
التحفظ عليها والضمنّ بها فكّم رأينا من قطعة من الحجر أو غيره
تزدريها الأعين بينا ولا يعابها المصري فيطرحها في كناسة منزله

فلا تزال كذلك حتى يلتقطها الاجنبيُّ في بحثه وتنقيه فتصير عنده في قيمة فريدة التاج أو يتيمة المقدس . وكم رأينا من السيَّاح مَنْ يتكبدون مشاق الاسفار وتحملون أهوال البحار وأخطار القفار مع إنفاق الالوف المؤلفة من الذهب والفضة لمشاهدة آثار الدِّين وما عفا من الرسوم في هذه الديار وربما رأينا المصريَّ ساكنَ القاهرة يشبَّ ويشيب ويكتهل ويشيخ ويعمر ويهرم ولم يرَ من الاهرام القائمة في جواره غيرَ صورتها المرسومة على ورق البريد وربما لم يلفت الى رؤية ذلك أيضاً حتى يدركه الموت

(الباشا) - تالله إن ذا لمن العجب . ولو كان الامر يجري على القياس لكان المصريون في مقدمة الامم التي ينمو فيها الشعور بلذة التأمل في بدائع الكائنات ومحاسن الموجودات لركة طباعهم ولطافة شيمهم وسرعة التأثر والانفعال في نفوسهم ولما ميزهم الله به من حسن الاقليم واعتدال الجوِّ وفيض الماء وخصب الارض ولا انحصار موارد أرزاقهم ومعايشهم على استنبات الارض وطول ممارستهم للفلاح والحراث والزرع والحصد وكلُّ من رأى الاقليم المصريَّ كالزبرجدة الخضراء في وسط رمال الصحراء لابد أن يحسد أهله على التحلى بهذه الفريدة من عقد الطبيعة وينبسطهم على دوام تمتعهم باجتلاء هذا

المنظر الذى يجلو البصر ويثلج الفؤاد وينعش القلب ويلطف من
هو اجس النفس وبلا بل الصدر فتصفو الروح فتخف من قيود العالم
السفلى الى الانصال بمعارج العالم العاوى فتراح هناك هنيهة مما
تقاسيه فى مصارعة العيش من ضروب الاكدار والآلام وتفر من
وجهها برهة الى وجه ربك ذى الجلال والاكرام . واعلم - وهذه
لفظة طالما افادنى تكريرها على لسانك فاسمح لى بها مرة من
لسانى وما أعلمك الا عن خبرة وتجريب - أن الفرق بين الانسان
والحيوان لا ينحصر فى الخلقة فى الخلقة ما يشبهه . ولا فى النطق فى
الحيوان ما ينطق . ولا فى الذكاء فى هوام الارض ما يفوقه ذكاء
وانما المزية التى تميزه عن سائر الحيوانات والخصلة التى يفضلها بها
هى إدراك حقيقة الوجود بالامعان والمشاهدة وطول الفكر والنظر
فى خلق السموات والارض للاهتمام الى معرفة خالقها وعبادة
صانعها قال جلّ وعزّ فى محكم بيانه : « أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ
خُيِّقَتْ إِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ إِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ إِلَى
الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ » . هذه هى
اللذة الروحانية التى أسعد الله بها الانسان دون سائر المخلوقات
وهى أشرف اللذات وأصفها وأفضلها وأبقاها . وما يتقرب العبد الى

الله زلّنى فى عبادته بأجلّ من النظر والتفكير فى حسن صنعه وكمال خلقه قال وهو أحكم القائلين : « إنَّ فى خَلْقِ السمواتِ والارضِ واختلافِ الليل والنهارِ لآياتٍ لأولىّ الالبابِ الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خَلْقِ السمواتِ والأرضِ ربّنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنّا عذاب النار . » ولا يقف على مقدار هذه اللذة الروحية تمام الوقوف إلاّ من تجرّد مثلى يوماً من عالم الاجسام والفناء الى عالم الارواح والبقاء ولا ينبئك مثل خبير

ولو كانت الامور تجرى على القياس أيضاً لاشتغل المصريون بلذة هذه المشاهدة وسعوا فى نموّها فيهم إن لم يكن من جهة لطف الاحساس والشعور فمن جهة انصرافهم الى تقليد الغربيين والعمل على نمطهم فى مختلف أحوالهم كما شاهدته منهم عياناً فى جميع حركاتهم وسكناتهم . ولكن لعل هناك من خفىّ الاسباب ما حرّمهم من اطراد التقليد فى هذا الباب

(عيسى بن هشام) - لم يكن هناك من سبب يمنعهم غير ميلهم الى الفتور والانكماش سواء كان فى الماديات أو الادبيات . وهم على شدة ولعهم بتقليد الاجانب لا يقلدونهم الا فى ما خفّ وهان من الزخرف

المموه والبهرج الكاذب والملاذ السرواية مما لا ينتج عنه الا سقم
الاجسام ونفاد الاموال وما عدا ذلك من أمور المدنية النافعة فجهول
عندهم بل مرذول لديهم . وإجمال القول في هذا الباب ان مثل
المصري في أخذه بالمدينة الغربية كمثل المنخل يحفظ الغث التافه
ويفرط في التمييز النافع

(الباشا) - يا أسفا عليهم كأنهم تخلّوا عن فضائل مدنيّتهم القديمة
ولم يتخلّوا بفضائل المدنية الحديثة فأصبحوا كالتي تقضت غزلها من
بعد قوة أنكاثا

قال عيسى بن هشام - وما زال الحديث يجري بنا على هذا النحو
حتى وصلنا الى المغارة المصنوعة في بعض أنحاء الحديقة فرأينا صنعا
جميلا وشكلا بديعا وأعجبنا تدفق الماء من ثنايا الاحجار فجلسنا على
سرر هناك أعدت للزائرين . واذا بجانبنا ثلاثة أشخاص من
المصريين شغلهم اتصال الحديث بينهم عن الالتفات اليها فأقننا
نسترق السمع ونلتقط اللفظ فتبين لنا من سياق كلامهم ان أحدهم
عمدة من عمد الارياف وثانيهم تاجر من تجار الثغور وثالثهم فتى من
أهل البطالة والخلاعة . ومما التقطناه من قول العمدة للخليع في

(العمدة) - وأين الآن ما دخلنا الحديقة من أجله فقد طال بنا الجلوس ولم نر شيئاً . وهل كان جلّ القصد ومنتهى الجهد أن نجلس هنا في وخامة الاشجار ورطوبة الهواء وعفونة الماء . وتالله ما أجد فرقاً بين هذا المنظر وبين منظر ذلك المستنقع الذي خلّقه خلف بلدنا ولعمري إن الأوز الذي يسبح فيه هناك أكثر عدداً وأَعْظَم سِمناً من الأوز الذي يسبح أمامنا . وما الفائدة في طول جلوسنا أمام هذه الاشجار العقيمة التي لا تثمر ولا تغنى من جوع . وأين نحن من ذلك الثمر الشهى والصيد الطرى الذي وعدتنا به وأطمعنا فيه

(الخليع) - مهلاً فلن يفوتك من هذا شيء وإن كنّا أخطأنا الغرض هنا لأننى كنت أظن الحديقة على عهدى القديم بها وما كنت أتخيل أن الامر وصل بها الى مثل هذا الخراب من الظباء والغزلان الآن منذ أخبرنى أحد الاصحاب بعد دخولنا بأن الحكومة اشتغلت بأمر هذه الحديقة خلّو يدها من الاشغال فباشرت الاصلاح فيها بمنع ذوات البراقع والمآزر من دخولها والتجول فى انحاءها . ولا أقول فى هذه النازلة الا قول الجرائد فى التأفف من أعمال الحكومة :

« حسبنا الله ونعم الوكيل »

(التاجر) - وعلى هذا فقد ذهبت تلك الليالى والايام التى كانت

فيها الحديقة مرتعاً للحسان وملعباً للقيان ولطالما دخلتُ هنا وحيداً
فريداً فما اكاد أنصب الجباله وأضع الحب حتى أقتنص من آرامها
مثنى وثلاث ورباع

(العمدة) - يعلم الله ان العاصمة أصبحت على حال لا تصح معها
الاقامة الامسافة قضاء الحاجة والرجوع الى البلد فوراً والآن فقد
عرّض الواحد منادراً همّة للضياع وصدره للانقباض . والى الآن
ترانى فى غاية الاسف والحزن على ماجرى لى أمس فى سهرتى مع فلان
الموظف اذ جرّنى للنزهة معه فطاوعته على هواه أملاً فى إنجاز حاجتى
عنده فسحبني من مكان الى مكان ومن حان الى حان يشرب هو
وأصحابه على حسابى وكأنما أجوافهم دنانٌ متخرقة فلا تمتلئ ابداً من
الخمر وكأنما كيسى كنز لا يفنى بالانفاق . وما كدنا ننتهى من حانات
الخمر حتى اندفعوا بى الى بيوت القمار فأصبحتُ مصدّع الرأس من
الخمر فارغ الكيس من القمّر

(التاجر) - ولِمَ لطاوعه على أغراضه وتنقاد اليه مع أصحابه
وتنفق مثل هذا الانفاق من غير حظ ولا لذة . وان كانت لك
حاجة ترجو قضاءها منه كما تزعم فيكفى فى ذلك أن تضع المبلغ المناسب
فى يده وتخلص منه ومن أصحابه فلا تسايروهم ولا تعرّض نفسك

للتورط معهم كما فعلت

(العمدة) - يحق لك ان تعترض وتلوم فقد أراحكم الله معاشر
التجار في المدن من متاعبنا ومصائبنا مع الحكام فان أشغالكم لاتتعلق
بهم كما تتعلق أشغال الفلاحة في الارياض فنحن في اضطرار دائم الى
استرضائهم «والمبلغ المناسب» الذي تقول عنه لا يكفي وحده في قضاء
الحاجة بل يلزم من الاتفاق عليهم في كل زمان ومكان علاوة على تلك
المبالغ وان لم يكن لك عندهم حاجة في الحال. وكمن كلمة واحدة من
موظف صغير كانت سبباً في تعطيل عمل كبير وما يدريك أن الذي
تغضى عنه الليلة ولاتلنت بنظرك اليه في حانات الازبكية يصبح
غداً قاضياً في المحكمة أو حاكماً في المديرية

(الخليع) مقاطعاً - اذا كانت الليلة الماضية قد انقضت على غير
هواك فلنا عنها عِوَض من ليلتنا هذه ان شاء الله

(العمدة) - أنصديقك في وجود العوض وقد أخلفت وعدك
معنا في هذه الحديقة وأذن الليل بالدخول وليس في اليد شي من الصيد
(الخليع) - صدقني بالله فاني ما كنت أعلم بما اصاب الحديقة
من أمر الحكومة لانني كنت مقيماً بحلولاً مدة طويلة وجئت وأنا
أحسبها على حالها الاول . ولكنني قد رتبت لك الآن سهرة في

فكرى تفوق فى حسنها كل سهرة مضت فانى أعرف صاحباً لى
أخبرنى عن بيضة خدر من بيت فلان باشا فقوموا بنا وانا اذهب
للحصول عليها هذه الليلة بما يمكن من الحيل وسأكرم عنها امرى كما
الى ان تصير . مى فى الموضع الذى اختاره ثم أرسل اليكما من هناك
بمن يأتينى بكما فيكون دخولكما على حين غفلة فلا تستطيع الاختفاء
ثم نضطر الى البقاء فى مكانها وحينئذ يدور بنا المجلس معها دورة
الانس والسرور . ولكن لا أخفى عنكما ان مقدار مامى من الدراهم
الآن لا يكفى لاعداد معدّات هذا المجلس وأخشى ان أنا ذهبت
الى البيت لأخذ دراهم أخرى أن يمنعى أهلى من الخروج ثانية كما
هى العادة عند النساء فى التضيق على الرجال

(العمدة) - لا عليك فعندى من الدراهم ما يكفى وزيادة

قال عيسى بن هشام - وقاموا فى الحال للسعى وراء الفسق والمجون .

وقام الباشا يسحبنى وراءهم للعلم بما سيكون

*
* *

قال عيسى بن هشام - وخرجنا فى أثر الخليل والعمدة والتاجر .
وقد ألتفت ذكاء يمينها فى كافر . ثم أضئت بعد ذلك شموع الكهرباء .
فعدت الشمس متوزعة فى مصابيح الضياء . كالنجوم تلالاً فى

أفق السماء : وتتشع دياجى الظلماء . ولما توسطناساحة « الاوْبرَا »
و « الاوْبرَابر » . وقف الباشاوقفة الاءظام والاءكبار . يكفكف
غرب الدمع والاستعمار . ويقول سلامً على ابراهيم ابراهيم فى
النار . كيف لا يضطرم القلب استعارا . ويجرى الدمع مدرارا .
فلا أستطيع اوارى . ولا أستطيع اوارى . وقد تمثل أمامى فى
هذه البقعة . وهى موسومة بسوء السمعة . بطل مصر . ورافع
بنود النصر . وقائدُ جيوش الحرب وهاديا . فى مفاوز الأرض
وبوآديها . وموقدُ نيرانِ الوقائع وصالها . وخائض غمرات
المعامع وجالها :

فى كل منبت شعرة من جسمه . أسدٌ يمدُّ الى الفريسة مخلبا
وكيف جاز لهم أن يضعوا عنوان البأس والجد . فى . واضع
الهزل والدّد . وقيموا لابراهيم صنماً على صورته . فى وسط سوق
الفسوق وسرّته . مشيراً بيمناه الى مواطن اللهو والفجور . وأماكن
الفحش والعُور . ودينه يُنهاهم عن تشييد الأصنام وإقامتها . ويأمرهم
بكسرها وإبادتها . ويابؤس قوم جعلوا اليد التى كانت تشير للاكْماء
والفرسان . فى ميدان الضرب والطمان . بمصافحة المنايا . ومقارعة
الاقران . تشير اليوم وسط هذا الميدان . بمغازلة البغايا . ومعارعة

الدنان . فسبحان محوّل الأحوال ومبدّل الأزمان . فقلت له
 ما هذه الأفكار الحزنة . أحنيناً الى تلك الازمنة . وقد انقضت
 بخيرها وشرّها . وذهبت بحلوّها ومرّها . وأين انت من طريقك
 في الحكمة والسداد . ومن سبيلك في الهداية والرشاد . خفّض
 عليك من حزنك وهمك . واترك تلك الهواجس فأنت ابن يومك .
 ولا تجعل لِهواك القديم عليك سلطاناً مطاعاً . فيذهب ما استفدناه
 من العلم ربّحاً مضاعاً . أما إقامة التماثيل في الميادين . ومخالفتها للشرع
 والدين . فقد أقامها حكامنا تقليداً للغربيين . ولم ينكرها أحدٌ من
 طلبة العلم وعلماء المسلمين . فاستنامت اليها الافكار . ولم يوقظها
 التحريمُ والإينكار . وأما وضع التمثال في هذا المكان دون سواه .
 وإشارته فوق الحصان يميناه . فلعل الأمر بوضعه أراد أن يذكر
 هؤلاء الغافلين الذاهلين . بما كان لأبائهم الأولين . من الشأن
 الرفيع . والركن المنيع . أيام إمارته . وينبّههم الى ما انتشر ذكره
 في الآفاق . وخلّدته لهم بطون الأوراق . من اقتحام المهالك .
 وافتتاح الممالك . تحت قيادته . وهو يشير اليوم بتلك اليد .
 ليستفزهم الى مواقف العز والمجد . ويستنفزهم عن مواطن الخلاعة
 والبطالة . الى مواطن الشجاعة والبسالة . فتبسم الباشا من قولي

ضاحكا . وقال ماعهدتُك في الجواب محاولاً مما حكا . فقلت له دَعْ هذا وانظر الى هذه البنية الإيوانية . ذات الأرائك الخسروانية . فقال أعظم به من بناء . بين بيوت الكبراء . قلت هو بيتُ لهُوٍ رفعَ اسماعيلُ قواعده . وبوأ الناسَ مقاعده . يشاهدون فيه صنوف الألاعيب . وضروب الأعاجيب . مما يؤخذ عن أساطير الاولين . وأقاصيص الراوين . وما تفتن فيه كلُّ عادة حسناء . من جمال الزينة وحسن الرواء . وتفتن به كلُّ قينة هيفاء . من فنون الرقص والغناء . اقتداءً بالغريين في ديارهم . واحتذاءً لآثارهم . وقد بقي من بعده تنفق عليه الحكومة من عيش الصانع والفلاح . لتفككة النزلاء والسيّاح . ثم انظر أمامك الى هذا المجتمع الملتحم . والموقف المزدهم . فالتفت فقال ما هذه الضوضاء العظيمة . أمأتم ما أرى أم وليمة . قلت له لا بل هو مجتمع عام . تتراحم فيه المناكب والأقدام . لمسامرة الاصحاب . ومعاورة الشراب . وبيننا نحن كذلك إذ وقف بأصحابنا المسير . عند باب هذا الحان الشهير . فسرنا في عقبهم . ولحقنا بهم . فسمعنا الخليع يقول لصاحبيه : كونا هنا في الانتظار . حتى أعود اليكما بالاخبار . إنجازاً لوعدي . وإيفاءً بعهدي . فأجاباه بالقبول . وتقدّما للدخول :

فقال العمدة للتاجر ما أحوجنى الى تضييع الزمن . وترييض البدن .
 بشرب كأس من العُقار . ولعب دور من « البليار » . وقال التاجر
 وما أحوج يدي الى ملامسة ورق القمار . وأذُننى الى رنين الدرهم
 والدينار . ثم صعدنا وراءهما الى قاعة بأعلى المكان . أُعدت للعب
 والرهان . فتقدم العمدة وهو يهز أعطافه وأردانه . فاستلم كُرَّةَ
 « البليار » وصولجانه . وقعد التاجر وهو يرتعد من الفرق . فى
 مجلس اللاعبين بالورق . وجلسنا نحن للنظر والسمع . فى غُمار ذلك
 الجمع . فسمعتُ عن يميني أحد السماسرة المعروفين بالدهاء . يقول فى
 مناقشته لاحد أرباب الثروة والغناء :

(السمسار) - لا نزاع ولا جدال فى أن ينابيع الثروة فدنضبت
 بذهاب تلك الايام الماضية التى كان يفتنى الرجل فيها بكلمة ويثرى
 بإشارة فيصبح بها أغنى الأغنياء بعد ان كان معدوداً من الفقراء
 ولقد وصل المصريون الآن الى زمن كله ضيق وعسر ولم يبق من
 حكاهم من يقطع الاقطاع ويهب الضياع . وبقي الغنى الحازم فيهم
 على حال الخمول والانكماش لا يستثمر أمواله ولا يسترنج ثروته
 وقد زادت الحاجات وتعددت وجوه المطالب يوماً بعد يوم فأصبح
 مضطراً الى الانفاق من تليدهِ فسرَى النقصان الى رأس المال حتى

ذامضى لسبيله لم يترك لأهله وذريته الا ما يقوم بالكفاف وحده
لعد توزء بينهم . وكن على يقين أنه لا يمضى جيل واحد على هذه
الحال الا ويندثر بين المصريين مابقى من بيوت المجد والغنى . واعلم
أنه لم يبق أمامنا اليوم سوى بيت واحد هو منبع المنابع فى الثروة والمال
وكنز الكنوز فى الغنى واليسار يقوم للمصريين مقام أعظم بيت من
بيوت الحكام الذين كانوا ينعمون عليهم بالسيب والعطاء ويدفعون
عنهم الضراء بالسراء وما يخفى عليك انه بيت البورصة

(الغنى) - اسكت ولا تذكر لى اسم البورصة فقد سمعنا فى هذه
الأيام عن فعلها بفلان وفلان ما فيه عبرة للمعتبر وموعظة للمتدبر
(السمسار) - ألتمس من سعادتكم غرض النظر عن الاستشهاد بفلان
وفلان فان الخسارة لحقتهما من سوء رأيهما وشدة جهلهما . أما أحدهما
فانه كان يعتمد فى المضاربة بأهـ والـه على التفاؤل والتطير وكان لا يأخذ
الا بكلام إحدى العرافتين العرافة السودانية أو العرافة الافرنجية
تلك بودةا وهذه بودةا . ومن نوادره فى الأخذ بالتفاؤل أنه
سمع رجلاً مجذوباً يصيح فى الطريق بقوله : اذهب يا يزيد . وكان
لا يزال متردداً بين البيع والشراء لا يرجح بين الهبوط والصعود
فتفائل بالكلمة واعتمد عليها وسار من توه الى سمساره فأمره أن

يشترى له عشرين ألف قنطار فنصحته وحاول ان يحوله عن رأيه فلم
ينتصح ولم يتحول وهبطت الاسعار في اليوم الثاني وتوالى هبوطها
فكان ما كان من خسارته . وأما الثاني فكان جلّ اعتماده على
الاخذ بأفكار أرباب الجرائد والثقة بالاخبار الكاذبة من الموظفين
ولم يعمل برأى السماسرة الذين هم أدرى الناس بوجوه المضاربة وأعلمهم
بطرق الصواب فيها

(الغنى) - لَنْ تَزِيدَنِي وَاللّهِ بِرَاعَتِكَ فِي الْبَيَانِ وَالْبُرْهَانِ الْإِبْتِعَادَ
عَنْ مُضَارَبَةِ الْبُورْصَةِ وَعَنْ أَهْوَالِهَا وَلَا أُعْتَبِرُهَا فِي نَظَرِي إِلَّا كَبُرَ
بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْمَقَامَرَةِ وَالْمَقَامَرَةُ هِيَ عِبْنُ الْمَخَاطَرَةِ

(السمسار) - أما المخاطرة فهي لاصقة بالانسان في كل حركة
وسكون وملازمة لعمله في كل زمان ومكان ومن أراد أن يتوق
الاخطار ويسلم من المخاوف فلا يباشر عملاً من الأعمال والأولى له
ان يترك هذا العالم الى سواه . واسمح لي بآخر قول أقوله لك في
هذا الباب وهو أنك أخبرتنى بمقدار محصولك في هذا العام وهو ثلاثة
آلاف قنطار مخزونة عندك الى اليوم لم تبعها تربصاً لصعود الاسعار
ولم تبال بما يلحق القطن في طول خزنه من نقص الوزن وما يتهدهده
من بقية الاخطار كالسرقة والحريق فاذا كنت فضلت الانتظار

لصعود الاسعار على هذه الحال فى ثلاثة آلاف قنطار فما الذى يمنعك
عن مثل هذا العمل فى ثلاثين الفاً من « السكو تراتات » دون كلفة
ولا مشقة كالتى احتملتها فى استخراج المحصول فانك لاتدفع هنا
ثمن أرض ولا تنفق على حرث ولا تؤدى ضريبة ولا تبذل ماء وجهك
لرئى الاطيان ولا تحنى ظهرك لأصاغر الحكام وما دخلت فى قضية
ولا وقعت فى منازعة ولا تخوف شيئاً من الآفات سماوية كانت أو
أرضية بل هو ربح يأتىك عفواً صفواً ولا رأس مال له سوى أربعة
حروف أو خمسة تحطها بيمينك فى التوقيع

(الغنى) - يجوز أن يكون فى قولك هذا بعض مايقنع ولكنى
لا أجد نفسى تطمئن يوماً الى ولوج هذا الباب

(السمسار) - أنا لا أكافك أمراً عظيماً ولا أدعوك الى أدنى
خسارة وما عليك الا ان تجرب صدق نصيحتى فتشترى الفين من
« السكو تراتات » فتنتظر بها صعود الاسعار مع أقطانك المخزونة
وأنا أضمن لك الربح مادمت آخذاً برأى . ولا تستمر فى هذا
الانكماش والحذر اللذين هما علة تأخر المصريين وخذ فى النشاط
والإقدام اللذين هما سبب تقدم الغربيين . واعلم أن الفرق فى سرعة
الربح بين ما يشتغل به الناس من التجارة والصناعة والزراعة وبين

أشغال البورصة و « الكوتراتات » كالفرق ما بين السفر على ظهور
الجمال والطيران على أجنحة البخار أو ما بين نسخ الكتب بالخط
ونسخها بالطبع ولكل زمان ما يقتضيه من العمل ويحكم به من السير.
وأنت المخير مع ذلك في ما ترضاه لنفسك

(الغنى) - وكيف حال الاسعار اليوم

(السمسار) - كما كانت بالأمس وهى فرصة ثمينة للشراء

(الغنى) - خذلى اليوم خمسمائة قنطار ولا تتعدها

قال عيسى بن هشام - وتركنا هذا العصفور قد وقع فى يد الصائد
المحتال . والتفتنا الى ذات الشمال . لسماع ما يدور من الجدل . بين
رجل فرغ كيسه من المال . وامتلات رأسه من الآمال . وبين تبيع
محام من الا جانب . يتلقط القضايا من كل جانب :

(التبيع) - لا أشير عليك أبداً برفع هذه القضية أمام المحاكم
الاهلية وهى معروفة بجنبها وخوفها من الحكم على الحكومة فى
مثل هذه القضايا ولئن حكمت مرة فقلما تبادر الى التنفيذ أما
المحاكم المختلطة فانها لا تحسب لغير الحق حساباً وسواء لديها الحكومة
والاهلى والتنفيذ فيها أسرع من نفاذ السهم عن القوس كما ان المحاكم
الاهلية لا تعرف قدر هذه القضية ومنزلتها من التاريخ ولا تقدّر

لك الفائدة من عهد وضع اليد عليها الى الآن فلا مندوحة لك عن المحاكم المختلطة . ولكن أخبرني قبل كل شيء عن تلك الشجرة هل لها ذكرٌ في الحجة باسمها التاريخي المعلوم وهل يمكنك إثبات نسبك متصلاً الى الواقف

(صاحب القضية) - أما الشجرة فذكورة في حجة الوقفية أنها « شجرة العذراء » وهي قائمة على أرض سواد وأمانسي فهو متصل بأحد عتقاء الواقف السلطان الغوري ولكن من لي بدخول القضية في المحاكم المختلطة وأنا رجل من رعايا الحكومة ومن لي بمحام أجنبي وأنت تعلم ما يلزم لمثله من المبلغ الجسيم في « مقدم الانعاب » (التبيع) - هوّن عليك من الامر . أما رفع القضية الى المحاكم المختلطة فانه سهل هين يكون بالتنازل عن القضية لأحد الاجانب وأما المحامي الاجنبي فأنا أتكفل لك باقناع المحامي الذي أشتغل معه ليقبل القضية من غير أن يلتفت الى « مقدم الانعاب » وانما يتفق معك على مناصفتك في ما تأتى به القضية من الاموال . وأما الاجنبي الذي تنازل له عن القضية فهو حاضر في مكتبنا تحت يدنا لتسخيره في مثل هذه القضايا . وما عليك الآن سوى النفقات والرسوم .

القضاة

(صاحب القضية) - لا بأس بما تقول ولكن ليس عندي ما أستغني عنه اليوم لتلك النفقات . ولو كنت واثقاً ببعض الوثوق بكسب القضية لبادرتُ الى بيع الحصة التي بقيت لي من العقار ولكنني أخشى ان تذهب الحصة وأخسر القضية فأصبح بلا مال ولا أمل

(التبيع) - لو كنت تعلم بمهارة معلمى وماله من علو الشأن في المحاكم المختلطة ومن الانصال بقناصل الدول لاستخرت الله في بيع الحصة ورفع القضية

(صاحب القضية) - استخرتُ الله واعتمدتُ على هذا الرأى (التبيع) - فقد أذنتني حينئذ بالكلام مع المعلم . ولك ان تحضر غداً لعقد الشروط

(صاحب القضية) - أمهلنى أياماً حتى اجد من يشتري الحصة بالثمن المناسب

(التبيع) - أنت في سعة من الوقت لبيع الحصة انما يجب أن تبادر باحضار الاوراق والمستندات من الغد للاطلاع عليها ودرسها (صاحب القضية) - بيني وبينك مساء الغد في هذا المكان

قال عيسى بن هشام - وتركنا أيضاً هذه السمكة . تنخبط في

الشبكة . ثم حوّلنا النظر الى العمدة في لعبه البليار فمارعنا منه
 الاّ أن ضرب الكرة بصولجانه ضربة أفقية فأطارها الى وجه أحد
 الجالسين من الجانب فاستشاط غضباً واحتدم غيظاً وقام هاجماً على
 العمدة يريد به شرّاً وهو يدمدم ويطمطم والعمدة يجمعهم ويمنعهم
 وكاد يقع ما تسوء عقباه لولا أن أسرع التاجر خال بينهما وأخذ ييد
 الاجنبي يستعطفه ويبالغ في الاعتذار اليه حتى لانت شكيمته بافتتاح
 زجاجتين من « الشميانيا » لعقد الصلح على حساب العمدة . ثم عمد
 العمدة الى الجلوس فلم يمهله الذي كان يلاعبه وطالب منه استكمال
 اللعب فقام اليه مكرهاً وقلبه يرتجف ويده ترتعش فما هي الاّ
 الضربة الثانية حتى أخطأ الكرة بصولجانه فأصاب غشاء البليار
 فخرّقه وشقّه فذهب الخادم مسرعاً وعاد بصاحب « البار » ومن
 ورائه بقية الخدم وهو يقول لهم بصوت عالٍ : كيف تسلمون عصا
 البليار لهذا الفلاح الأخرق فيخرفه ويتلفه . ثم وقف للعمدة يطالبه
 بثمن ما أتلف وتعويض ما عطلّ وقدّره له بخمسة عشر جنياً لا يتجاوز
 عن درهم واحد منها . فأخرج العمدة كيسه فأحصى مافيه عدّاً فاذا
 هو لا يزيد عن ثلاثة عشر جنياً فلم يقبل منه فتوسط اليه بعض
 الحاضر بن قبلها متكرهاً وجلس العمدة متكديراً . ولقد كان اللعب

بالافعوان . أقرب الى السلامة من هذا الصولجان . ثم استمرّ جالساً ينتظر انتهاء الباجر من لعبه حتى قام عنه زاعماً أنه خسر فيه ثلاثة جنيهات وقعد بجانبه يظهر التأسف والتندم فقال له العمدة دعك من الاسف والكدر فالضائع ضائع ومصيبتك على كل حال أخفّ وقعاً من مصيبتى . وبيناهما على هذه الحال اذا بالخليع قد حضر من غيبته يقول لهما هاشاً باشاً وفرحاً مرحاً :

(الخليع) - أشرق أنسنا وسعدت ليلتنا وطاب وقتنا وانقضت حاجتنا وأسأل الله أن يطيل لنا ليلنا ويبعد عنا نهارنا فقد تم مرادنا وهلم بنا

(العمدة) - ونحن نسأل الله أن يقصر ليلنا ويدنى منا نهارنا . فاقعد معنا نقصص عليك مادهانا في غيابك

(الخليع) بعد سماع القصة - وَيَلِي ثُمَّ وَيَلِي فَأَنَا الملولم اذ تركتكما نوقع لكما ما وقع ولكن قدّر الله لكما ولطف بكما . أما مصيبتى . لأنّ فى أعظم من مصيبتكما وأبلغ فماذا أقول وماذا أفعل وكيف دفع وبأى عذر أعذر وقد أخرجت البيضة من خدرها والظيّن كناسه واستعدّ المجلس لحضورنا وأنسنا

(التاجر) - الامر أيسر مما تخشاه فما يفوتنا الليلة ندركه غداً

(الخليع) - ذاك شئ لا يُدرَك في كل وقت وحين . وهذه المرة هي بيضة الديك ابيضة الخدر وكيف يمكن فضّ هذا المجلس وتأجيله وقد مضى قطع من الليل وتعذرت سبل الرجوع :

كيف الرجوعُ بها وحولَ قبايها سُمُرُ الرماحِ يَمْلَنَ للاِصفاءِ
نخلصاني ناشدتكما الله مما وقعتُ فيه وانتقداني من هذا البلاء العظيم

(التاجر) - وما وجه الخلاص وقد علمت بتفصيل الحال

(العمدة) - تالله ان الحرمان من هذا المجلس النادر لأعظمُ مصاباً من كل ما نابنا ولو كان الوقت نهاراً لأسرعتُ الى «البنك» . فأخذت ما يلزم لنا من الدراهم

(التاجر) - اذا كانت الرغبة انتهت بك الى هذا الحد فلا أمر يسير ومعى الآن ما يكفي وأنا أقوم لك مقام «البنك» . فكم تطلب ولائى ميعاد تكتب

(الخليع) - هكذا يكون الصديق . في وقت العسر والضيق خيالك الله وأبقاك

(العمدة) للتاجر - أعطنى عشرين جنيهاً تكون معى على سبيل الاحتياط

(التاجر) - ولك الفضل هاك سبعة عشر جنيهاً تبلغ العشرين

المطلوبة بالثلاثة التي خسرناها أما لك . وألتمس منك كتابة ورقة
على سبيل التذكير لا على سبيل التقييد

قال عيسى بن هشام - فما كان أسرع من الخليع في استحضار
الدواة والقرطاس . لا جابة هذا الالتماس . فطلب العمدة منه . ان
يكتب الصك عنه . ثم خرجوا والعمدة يجرر أذياله . ويحك قذاله .
وخرجنا خلفهم في الحال . نتبعهم متابعة الظلال

*
* *

قال عيسى بن هشام - ولما صرنا في الطريق أخذ الباشا يطيل من
فكرته . ويبطئ في مشيته . ويقول ما هذا الذي أرى . من فساد
هذا الوري . كأننا ناعمًا نَقَمهم في خابية . جمعت أخلاط الكبائر .
أوغامسًا غَمَسهم في جابيه . وعت أمشاج الجرائر . أو كلما خطونا
خطوة . رأينا من الغش والمكر صنوفًا وأضرابًا . أو حضرنا نذوة .
شهدنا من الخداع والنفاق فصولًا وأبوابًا فما أتمسَ مَنْ يعاشرهم .
وما أتخسَ مَنْ يحيي فيهم . وما أشقى مَنْ يجاورهم . وما أسعدَ مَنْ
يجافهم . واغوثاهُ من الانسان . في هذا الزمان . فقلت له قَدْ كَ
بل في كل زمان :

لَنْ تَسْتَقِيمَ أُمُورُ النَّاسِ فِي عَصْرٍِ وَلَا اسْتَقَامَتْ قَدْ أَمْنًا وَذَارُ عِبَا

ولا يقومُ على حقِّ بنوِ من من عهدِ آدمَ كانوا في الهوى شعباً
هكذا كان بنو آدم . تأخر عهدُهم أو تقدم . فهم على ما هم فيه أبداً .
أمسِ واليومَ وغداً . - وما عساك تقول في ذرية الشيخ آدم وزوجه
حواء . وقد قالت من قبلُ فيهم ملائكة السماء . « أنجملُ فيها من
يُفسدُ فيها ويسفكُ الدماء » . - وما عساك تقول في قوم ترى الصغير
منهم قبل الكبير . والمولى قبل الأمير . يهون عليه أن يفترس
ما أسفَّ من الدنيا وسفلَ من المطالب . بمنطقة البروج ومجرة
الكواكب . - وما عساك نصف خلقاً أفضلُ ما في أعضائه .
أكبرُ سبب لشقاء الخلق وشقائه :

أفضلُ ما في النفسِ يَغْتَالُهَا فَاسْتَعِيدُ اللَّهَ مِنْ جُنْدِهِ
هذه المضغة التي بفيه . ويقال إنها أفضل ما فيه . لو سُجِّت مضغة
على قدرها حمأة العقارب - حماك الله - لَحُمْتُهَا . ولُعَابُ الإفاغى
أَعَاذَكَ اللَّهُ - صَبَغْتُهَا . لكانت في جانب هذا اللسان أخف ضرراً .
وأهونَ شراً . - وما عساك تنعت نوعاً لعنَ الله واحداً منهم في
آية من الآيات . بتسع صفات : « حَلَّافٍ مَهِينٍ هَمَّازٍ مَشَاءٍ بَنِيمٍ
مِنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ عُنْلٍ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ »
فَأَفْ لِعَصْرِينَهُمْ نَهَارٍ وَحَدِيدٍ وَجَنَسِي رَجَالٍ مِنْهُمْ وَنَسَاءٍ

وليتَ وليدَ مات ساعةَ وضعِهِ ولم يَرْتَضِعْ من أُمِّهِ النَّفْسَاءَ
وما يدريك أن مارأيتَهُ من أخلاق هذا النفر . أفضل من أخلاق
من علَاهُم من سادة البشر . ولعل ما أدركتَهُ من طمع الغنى ومكر
السَّمسار وخداع التبيع . وما تبينتهُ من غش التاجر وغفلة العمدة واحتيال
الخليع . هو دون ما تكنه صدور الكبراء وتجنه الأمراء . تحت
حجاب التكلف والتطبع . ويسترونه عن أعين الناس بستار التمويه
والتصنع . وكلما اعتلى الانسان درجة في المقام . وخطا فيها خطوه الى
الأمام . تقنّع لها بقناع وتلثم بلثام . فتجد حقائق الخلاق مرموسةً
تحت صفائح الدّهاء . مضروحة بين جنادل الرياء . بل ربما كان أخلام
أخلاقاً حسناً . أبلغهم في التظاهر بها زوراً وبهتاناً . كانلى صاحب
تراه من لسانه غَضَنْفراً رَغْبِلاً . يحمى عريناً ويحرس أشبالاً . تتقيه
القياصرة . وتخشاه الأكلسة . فاذا كشفت عن قلبه . وحسرت
عن لبه . وجدته شاةً تعطف على سخلها . وظئراً تحنو على طفلها .
وأعرفُ آخر قد ضجّت أحرف الفضيلة من وخزها بقلبه . ولو كها
في فمه . وهو مع ذلك يخمس وجهه ويُدِمى جفونه . إن سمع أن
مُخْتَلِساً اختلس دافعاً دونه . وفيهم من يملك من وجهه التغير
بالانفعالات المتناقضة . والتلون بالالوان المتعارضة . فتكون دموعه

طوع إرادته . وابتساماته عند حاجته . قال حكيم لاَ خَرَّ مَا أَكْثَرَ
مَا تَحْوَلُ رُقْعَةُ الشَّطْرِ نَجٍ وَتَقْلَبُ . قَالَ لَهُ تَقَابُ وَجْهِ الْإِنْسَانِ أَعْجَبُ
وَأَعْجَبُ . وَقَدْ تَبَقَّى الْإِخْلَاقُ الذَّمِيمَةَ . وَالصِّفَاتُ اللَّئِيمَةَ . مَطْوِيَّةٌ
عَنِ النَّظَرِ . مَحْجُوبَةٌ عَنِ الْبَصَرِ . حَتَّى يُتَّاحَ لَهَا كَاشِفُ مِنَ الْحَوَادِثِ
فَيَنْزِعَ عَنْهَا الْقِدَامَ . وَيَحْسِرَ اللَّثَامَ . فَيُظْهِرَ الطَّبْعَ السَّقِيمَ . وَيَبْدُو
الْخُلُقَ الذَّمِيمَ . وَمِنْ عَوَامِلِ التَّبْيِينِ وَالْبَيَانِ . فِي أَخْلَاقِ الْإِنْسَانِ .
الْغَضَبُ وَالْجُبْنُ . أَوِ السُّكْرُ وَالْحُزْنُ . وَنَحْنُ الْآنَ فِي سَاحَةِ السُّكْرِ
فَهَلْ بِنَا نَلْحَقُ بِأَصْحَابِنَا . فَأُدْرِكْنَاهُمْ وَهُمْ وَقُوفٌ يَتَشَاوَرُونَ . وَسَمِعْنَاهُمْ
وَهُمْ يَتَحَاوَرُونَ :

(العمدة) - دعوني من هذا كله فقد صاحبت عصفير بطني ولم
يدخل جوفي اليوم شيء من الطعام سوى لقمة الصباح التي أكلتها
مستعجلاً فهيأنا إلى السكة الجديدة نعطف على « العطفى » فإن طعامه
دسم وسمنه زبدة ولحمه سمين

(التاجر) - ما هذا « العطفى » الذى تذكره وأين أنت من كباب
« الحاتى » وحمام « لوكه » أو طواجن « الفار » وأرز « المعجمى »
(الخليم) - ما هذا الخلط ونحن فى وسط الأزبكية بين « النيو بار »
و « سان جنس بار » و « اسبلند بار » وفيها ماتشهى الأأنفس وتلذ

الا عين وناهيك بهذه الاماكن ونظافتها وحسن خدمتها وعلو قدر
الواردين عليها

(العمدة) - دعنا من هذه الاماكن فان طعامها لا يسمن ولا
يغنى من جوع خصوصاً وأنا على هذا الخلو من بطنى
(الخليع) - وأنا لا يمكننى على كل حال أن أترك هذه الاماكن
وأذهب معكما الى الحوانيت التى تشيران بها وأخشى أن يرانى بها
أحد ممن يعرفنى فأصغرفى عينه

(التاجر) - إذا كان الامر كذلك فأنا على رأيك

(الخليع) للعمدة - لامناص لك حينئذٍ فضعيفان يغلبان قويا .
فادخل بنا «النيوبار»

قال عيسى بن هشام - فدخلوا ودخلنا معهم وجلسوا وجلسنا على
مقربة منهم وما خلع الخليع طربوشه حتى نزع العمدة عمامته وما
ضرب الخليع بيده على المائدة حتى صفق العمدة بيديه فحضر الخادم
ومعه قائمة الالوان فتناولها العمدة ونظر فيها - نظر المريض الى
وجوه العود - ثم ناولها للخليع ليقرأها فأخذها وتأمل فيها وشرع
يسرد الالوان حتى انتهى منها والعمدة لاه عنه والتاجر منصت اليه
(الخليع) للعمدة - ماذا نحب وتختار

(العمدة) - أختار المرق ومن بعده لحم القرن

(التاجر) - وأنا أطلب كيباباً وقرعاً وأرزاً

(الخليع) - وأنا أختار فاتحة الطعام أولاً ثم خلاصة اللحم بالبيض

وأرزاً بفاكهة البحر ودجاجة بعش الغراب وسماناً بالسكّمة وهليوناً

بالزبدة

(العمدة) - ماهذه الاسماء الغريبة

(الخليع) - هي أطعمة خفيفة لا تقوى معدتي على هضم غيرها

(التاجر) - « كل ما يعجبك والبس ما يعجب الناس »

قال عيسى بن هشام - فيذهب الخادم ويجيء للخليع بفاتحة الطعام

من زيتون وجبل وسمك ملح وزبدة . فيتأمل العمدة فيها ثم يميل

على قطعة الزبدة فيبتلعها وهو يقول . أزبدة وسمك . فيطلب الخليع

سواها ثم يأتي الخادم بصحفة المرق للعمدة فيجدد قدأكل ما كان

وضعه أمامه من الخبز وعطفَ على خبز الخليع يأكل منه فيأتيه

الخادم بنصيب آخر فيتناوله العمدة ويفته في صحفة المرق حتى تمتلئ

وتفيض على المائدة . ثم إنه انحنى فأنحى عليها وصفق بطلب صحفة

أخرى وخبزاً آخر وهو يميل في هذه الأثناء على طعام الخليع فيأخذ

قطعة من الدجاجة ويضعها أمامه ويحاول قطعها بالشوكة والسكين

فتقلت منه الى الارض فيقوم فيلتقطها ويأكلها باليد ثم يأخذ جزءاً
من عشب الغراب فيقضم منه فلا يأنه فيمجه ويتفله ثم يرده الى صحيفة
الخليع ثانية ويقول : ماهذه القشور التي يطبخونها هنا وهي عندنا
شائعة على الجسور يفحص عنها الخنازير في الارض بأرجلها فتستخرجها
ولا تأكلها فتبقى ملقاة على ظهر الطريق لا يمسه انسان ولا حيوان .
ثم يأتي الخادم بالمرق فطلب منه خبزاً آخر فلا يكفي لامتلاء الوعاء
فيعاود الطلب فيمل الخادم ويقول له : انما أنت هنا ناسدى في مطعم
لا في مخبز

(الخليع) للخادم - ما هذا الكلام المارد يا «جورج» أليس لكل
شيء من هنا ونحن نأكل بدراهمنا ، ما شنهي وطلب ما نريد
(الخادم) للخليع - لاؤاخذه فان كلامي ليس موجهاً اليك
(الخليع) - إن لم يكن الكلام لى فهو لصاحبى وصاحبى هذا أعز
على من نفسى

(العمدة) - دعه يأت لنا بمخبز ولو بالثمن ولا تشعل نفسك بما
يقول مع أنه يقال ان هذه المطاعم العالية تبذل الخبز لأكابر مجاناً
(التاجر) للخادم - أعطنى أيضاً لونا من الخضر
(العمدة) للخليع - قل للخادم يحضر لى مع لحم القرن فحل بصل

(الخليع) - كل شئ يجوز الا أكل البصل في هذه الليلة
(العمدة) - لا مؤاخذه فان النفس الملعونة ذهبت اليه من غير ترو
(التاجر) للخادم - إئت لي بشئ من الحلوى أو الفاكهة
(العمدة) - اذا كان في الفاكهة برتقان أو بلح فأعطني منه
(الخليع) - ولا تنس يا « جورج » ان يكون في نصيبي من الفاكهة
« مانجو » و « قشطة خضرا » وموز و « أناناس »

(العمدة) للخليع ممازحاً - و من قال انك لست من الناس
(الخليع) للخادم - هات زجاجة نبيذ أخرى بغيرها
قال عيسى بن هشام - ولما حضر الخادم بالفاكهة وانصرف أسرع
العمدة بيده اليها فالتقى من كل فاكهة زوجين ودسها في جيبه
وهو يقول : هذه تنفعنا للتنقل بها على الشراب فيما بعد . ثم حضر
الخادم بآنية من البلور الملوّن فيها ماء وقشر ليمون فوضع أمام كل
واحد منهم إناء فبهم العمدة بشرب إنائه في الحال فبادر الخليع
ونزعه بيده عن فمه

(العمدة) - لماذا تمنعني عن شرب هذا « الخشاف » وقد أتعشتني
منه رائحة الزهر

(الخليع) - هذا يأسدي ماء لغسل أطراف الاصابع بعد الأكل

(التاجر) - مَنْ عاش رأى

(العمدة) للخادم - الحساب يا « خواجه »

(الباجر) - القهوة

(الخليع) - الخِلَال مع كأس من « الكونياك » بجانب القهوة .

ويأتى الخادم بجميع هذا فيتناول العمدة ريش الخلال فيتخلل بريشة ثم يعيدها الى مكانها ويأخذ أخرى فينكش بها أذنه ثم يمسح معلق بها فى غطاء المائدة ثم يلتفت الى الخليع ويطلب منه أن يقرأ قائمة الحساب ويخبره بكميته

(الخليع) - أربعون فرنكاً

(العمدة) - اقرأ جيداً فان هذا غلط فاحش

(الخليع) - قد قرأت وحسبت وأعرف أنهم لا يغالطون هنا

(العمدة) - ما هذا النهب والسلب وما هذا الاسراف والتبذير

لو كنا ذهبنا الى مكان من الاماكن التى عددناها قبل دخولنا هنا

لكننا ملأنا البطون وتمتعنا بالطعام الكثير مع الثمن القليل . ولو

كنا توجهنا الى المحل الذى أبيت فيه لكنا وجدنا من الاكل

ما يكفيننا بغير ثمن لأن فى غرفتى برمة أرز بحمام مما أحضرته معى

من البلد . ولا أشك فى أن الخادم يريد أن يستغفلنا فزاد فى

الحساب ما أراد وأنا رجل لا أقبل الغفلة على نفسى ولا أدفع هذا الحساب . وسأكشف لكما هذا الغش بكل طريقة فانه يهون على ان أبدد عنرة جنيتها في الهباء ولا يهون على ان أدفع قرشاً واحداً بطريق الغش والاختلاس

ثم إنه رفع قدح النبيذ وهو في حديثه فصك به قدحاً آخر ممتلئاً لاستدعاء الخادم فانقلب الكأس وأهريق النبيذ على غطاء المائدة فحضر الخادم فعزّ عليه ما رأى

(الخادم) - ما هذه الليلة السوداء

(العمدة) - هذا ما أقوله أنا أيضاً فقل لى ما هذا الغلط فى

الحساب وهل تريدون ان لا يدخل محاسبكم بعد اليوم أحد

(الخليم) - هل فى الحساب غلط يا « جورج »

(الخادم) - وأى غلط يكون فى الحساب بعد الذى حصل وهذا

هو بيان الثمن أمام كل صنف

(العمدة) - أى حساب وأى بيان ولكنك أنت الكاتب له

(الخادم) - نعم أنا الكاتب له ولكنك أنت الآ كل له

(العمدة) - وهل أكلنا أربعين صحناً حتى ندفع أربعين فرنكاً

(الخادم) - للخليم - أرجوك ان تقنعه

(العمدة) - وهل أنا جاهل حتى يقنعنى

(الخليع) وهو قائم - حاشا لله ياسيدى

(الناجر) للخليع - الى أين

(الخليع) - أراهم وضعوا فى لوح التلغرافات السياسية تلغرافاً
جديداً أريد أن أقرأه

(الخادم) للعمدة - أعطنى الحساب ولا تعطنى عن الشغل

(العمدة) - هاك عشرين فرنكاً لأدفع سواها

(الخادم) - ليس هنا محل المساومة فى ثمن الطعام بعد أكله

(التاجر) - زدهُ فرنكين

(الخادم) - لقد كان الأُوْلى بكم ان تأكلوا فى غير هذا المكان

مادتم بهذه الصفة

(الناجر) - لا تغلط يا «خواجا» فان حضرته يأكل فى مثل

هذا المكان وفى أعظم منه ولكنه يجب الأمانة ويكره الاستغفال

(الخادم) - وهل أنا خائن . وأنا صاحب شرف مثلك ومثل

أعظم منك

• (التاجر) للعمدة - حقيقة إنه لقليلُ الحياء

(العمدة) - وحياتك لأخاف منه ولا يأخذ منى غير هذا المبلغ

(صاحب المحل) وقد حضر مع الخليع - ماذا جرى

(العمدة) - خادمك يسرقنا ويشتمنا

(صاحب المحل) - هذا كلام لا يقال عن محلنا

(الناجر) - وذاك كلام لا يقال لنا

(صاحب المحل) للخليع - عهدى بك لاتصاحب الا الكبراء

والظرفاء فما هذا الشيخ الذى جئتنا به هذه الليلة وقد شاهدته من

مكاني يفعل أفاعيل انتقدها جميع الحاضرين . فانه كان يبلع الزبدة .

ويطوى الخبز . ويمدّ يده الى صحن سواه . ويعيد اليه فضلة ما يأكله .

ويتناول قطعة الدجاجة من الارض فيلهمها . ويلوث المائدة بالمرق

والنبيذ . وينسح يده فى الغطاء . ويكسر الكأس . ويختلس

الفاكهة فيضعها فى جيبه . ويهمّ بشرب ماء الغسل . وينكش أذنه

بريشة الخلال . ولم يكتف بهذا كله حتى أخذ يغازل السيدات

ويغامزنهم فقمّن مستقبحات مستنكرات وقام كثير من المترددين

على المحل اشمئزازاً من هذه الافاعيل . ولا أشك فى أنه إذا حضر

عندنا شيخ آخر مثل هذا أن يتعمد الناس ويتعطل المحل

(الخليع) - لا تلقّبهُ بلقب شيخ فان سعادته من الحائزين للرتبة

الثانية وله سمي في رتبة التمايز ولا تستصغر قدره فهو من كبار
الاغنياء في الارياض

(صاحب المحل) للعمدة - لا تؤاخذ الخادم بإسعاد البك فهو
على كل حال خادمك والمحل محلك

(العمدة) للخادم - يجب عليك أن تعرف الناس وتعلم حسن
المعاملة من حضرة الخواجا صاحب المحل . ووالله لولا حسن ذوقه
ولطفه لمآزدت عن العشرين فرنكاً واسكني أعطى الآن ما تطلبه
مراعاة لخاطره عن طيب خاطر وحسن رضا

(صاحب المحل) للخادم - أسأل حضراتهم ماذا يشربون على
حساب المحل لتأكيد المعرفة والمساحة فيما حصل

قال عيسى بن هشام - ثم مال الخليل على العمدة يشير عليه بأن
يطلب دورين من الشرب لا كرام صاحب المحل في مقابلة اكرامه
لهم . فطلب العمدة ثم طلب . وشرب ثم شرب . وقام بعد الدفع
يتمايل ويتثنى . ويتشاءب ويتمطى . ويشكو لل خليل فعل الكاس .
وهجوم النعاس . فيقول له هذه عادة تكون عند الامتلاء . ولا
يصرفها الا كؤوس الصباء . فمياً بنا الآن . نذهب الى الحان .
نخرجوا وخرجنا من ورائهم . نستقصى بقية آبائهم

قال عيسى بن هشام - وأخذوا طريقهم الى الحان المقصود .
والحوض المورد . وفيما نحن نسير . بين تقدير وتفكير . اذ التفت
الباشا الى ذلك الفندق الكبير . بل الخوزنق والسدير . فرأى
فيه شمس الكهرباء مشرقة . وينايع الضياء متدفقة . يلوح فيها
زنجى الليل بقميص أبيض . ويبدو فيها أديمه كالآبنوس المفضض .
وعمد المصابيح كأنها أغصان الاشجار . أزهرت بالأنوار . مكان
الأنوار . فصار كل عمود منها عمود فجر . بفجر ثمرات الدجنة أى
فجر . وكان منشور الشموع فى ظلمة الحلك . منشور النجوم فى
قبة الفلك . ورأى تحتها صفوفاً من الرجال . بين صفوف من ذوات
الحجال . على سرر متقابلين . وأرائك متكئين . يسعدهم الجدة
المقيم . ويرفرف عليهم الرفة والنعيم . فطفق يسألنى : أترأه محفلاً
ليوم أنس . أم زفافاً فى بيت عرس . أم تراها ليلة مهرجانات .
لقليل من الجان . نسوا تفاوت الجنس . فأنسوا الى الانس . وهجروا
جوف الأرض لظهرها . ودرجوا من بطنها الى حجرها . - فقلت
له نعم هؤلاء شياطين الأنس يطوون البر والبحر . ويقطعون الحزن
والوعس . ويطيرون فى السماء . ويمشون على الماء . ويخرقون الجبال .
وينسفون القلال . ويقبلون الآكام وهادا . ويبسطون الرضى مهادا .

ويجعلون القفار بحارا . ويحيلون البحار بخارا . ويسمعون من بالمشرقين .
أصوات من بالمغربين . ويستنزلون لبصرك أنأى الكواكب .
ويعظمون في عينك أوهى العناكب . ويجمدون الهواء . ويذيبون
الحصباء . ويستحدثون الأنواء . ويننون الضياء . ويستشفون
خبايا الاحشاء . ويستكشفون خفايا الأعضاء . - فقال لي أئمتك -
لتحدث عن جن سليمان . في هذا الزمان . - قلت له هؤلاء سيّاح
الغربين أهل المدينة والحضارة . الناظرون الى الشرقيين بعين المهانة
والحقارة . فان نظروا اليهم من جهة العزة : فنظرة العقاب من
شماريخ رضوى وثير . الى جناب الرمل وضفادع الغدير . - وإن
نظروا اليهم من طريق العلم : فنظرة معلّم الاسكندر عالم العلماء .
الى صبيّ يهجي في العين والياء . - وإن نظروا اليهم من باب الصناعة :
فنظرة «فيدّياس» صانع التماثيل والدُمى . الى بناء يقيم أكواخ
القرى . - وإن نظروا اليهم من جهة الغنى : فنظرة صاحب المفاتيح
التي تنوء بالعُصبة . الى أجير ينضح عرقاً تحت القربة . - وإن
نظروا اليهم من جهة الفضائل النفسانية : فنظرة الحكيم «سقراط»
شارب السم غراماً بالفضيلة . الى الشرير «أرسطرط» . حارق
المعبدولماً بالزذيلة . - تلك دعواهم في نفوسهم . وقولهم بأفواههم

والفعلُ يشهدُ بيننا أنهم نُزَّابُ الآفاق . وسُلَّابُ الارزاق . وقطاعُ
الدهناء . وفُتَّاكُ الدهماء . وقَرَّاصِينُ الدَّامَاء . وسُفَّاكُ الدماء .
أوَّلئك هم الذين يخادعوننا بِزَبْرِ جِهم . ويبهروننا بِهَرَجِهم . وأوَّلئك
هم الذين نَطقَ الكتابُ في أمثالهم بقوله : « سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ
وَأَسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاؤُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ »

وهم في رحلتهم الى الشرق على ضريين : أهل الفراغ والجدة الذين
أبْطَرهم الغنى وألْهَاهم الاستمتاع ببدع المدينة ولم يبق في أعينهم جديد
فانقمت منهم الطبيعة في خروجهم عن سننها فسلَّطت عليهم داء الملل
والسَّام فأصبحوا على وجوههم هائمين في الاقطار والبلدان وحطتهم
القدرة الى الاستشفاء من ذلك الداء بالتنقل في البلاد المنحطة عنهم
في درجات المدينة والاقامة في الاقطار الباقية دونهم على الفطرة
الغريزية . والضرب الثاني منهم : أرباب العلم والسياسة وأهل
الاستعمار والاستنفاس يستعملون علومهم ويعملون افكارهم في
احتلال البلدان وامتلاك البقاع ومنازعه الناس في موارد أرزاقهم
ومزاحمة الخلق في أرضهم وديارهم فهم طلائع الخراب أدهى على الناس
في السلم من طلائع الجيوش في الحرب
قال عيسى بن هشام - وانقطع الحديث بدخول اصحابنا في الحان .

واصطفاهم حول الدنان . فأخذنا مجلسنا بقرهم ننظر ما يصنع بهم .
واذا الخليع يتلفت عن اليمين واليسار . ويبادر الخادم بالسؤال :
(الخليع) للخادم - ألم يشرف دوله البرنس هنا في هذه الليلة
(الخادم) - هو في داخل المسكان وسيعود الى مجلسه في الحال
(العمدة) مندهشاً - هل يحى هنا البرسات وهل يليق بنا ان
نجلس للشرب في مكان يحضروننا فيه . فلم اخبرت هذا المحل ولم
لأذهب الى محل سواه

(الخليع) - لا بأس علينا هنا وستري كيف أفعل حتى لا تخرج
من هنا الا والبرنس مصاحفك ومجالسك
(العمدة) - لا تهزأ بي ولا تمزح فأين نحن من البرسات
(التاجر) للعمدة - لا تستبعد ذلك فقد سمعت ان لبعض البرسات
أخلاقاً واسعة ونفوساً ثراوية ومن رأيهم الاختلاط بالناس والتساوى
بهم في مجتمعاتهم ومعاملاتهم

(العمدة) للخليع - وهل لك معرفة سابقة به
(الخليع) - كيف لا أعرفه ولى معه جلسة في كل ليلة وكثيراً
ما أوصلته آخر الليل الى قصره
(العمدة) - انك لتبالغ

(الخليع) - لامبالغة ودونك البرهان

قال عيسى بن هشام - ويقوم الخليع واقفاً عند عودة البرنس الى مجلسه فيومئذ البرنس اليه بالسلام فيتبعه الى مائدة عليها صنوف وألوان من الحمر والنقل فيجلس بجانبه مع الجالسين حوله ويخاطبه بصوت يسمعه العمدة من مكانه :

(الخليع) - لازال أفندينا في أسعد حال وأنعم بال

(البرنس) وأين أنت فقد سألت عنك مراراً

(الخليع) - أنا في الخدمة تحت أمر أفندينا وعند طلبه وما

منغى عن المبادرة الى مجلسكم العالى الا اصطحابى بصاحبين أحدهما من عمد الارباب والآخر من تجار الثغور لصقابي لبقاء معهما والحا على أن أصبحهما

(أحد الجلساء) ممازحاً - لابل تسحبهما

(البرنس) منككّتا - وهل هنا زريبة ياسيد

(جميع الجلساء) ضاحكين - لله در أفندينا فى هذه النكته فما أطفها وأرقها

(البرنس) - أنا لم أعلم التنكيت ولكن يصادفنى منه بعض كلمات فى بعض الاوقات

(أحد الجلساء) لا آخر - انظر بالله يا أخى حدة البرنس فى لطافته
وشدته فى رفته وقوة إدماجه فى ألقاه

(المجلس) - وأنت ماشاء الله ما أفصحك الليلة فى لعبك وما
أبلغك فى كلامك أنت تأخذ هذه الجمل عن الجرائد
(البرنس) للخليع - ماذا تشرب

(الخليع) - العفو يا موى فلا بد من الرجوع الى صاحبي أولاً
حتى أخلص منهما

(البرنس) - وهل هما من الاغنياء المعبرين
(الخليع) - أما العمدة فانه يمتلك ألف فدان . وللتاجر فى بلده
أعظم خان . وللعمدة عشرة وابورات للرى وعنده الرتبة الثانية .
وللتاجر وابور للخليع وعنده وعد بالثالثة

(البرنس) - لا تحر منا من وجودك ولا بأس من استدعائهما
للجلوس معنا

(أحد الجلساء) لا آخر - قم بنا نفسح لهما
(المجلس) - انتظر قليلاً حتى يأتى « الدور » المطلوب مع صحن
بلح البحر الذى أوصى عليه البرنس آنفاً
قال عيسى بن هشام - وينصرف الخليع الى صاحبيه لاحتضارهما

فيهض له العمدة وافقاً لتبجيله وتعظيمه فيسقط من يده
« فم السجارة » على الرخام فينكسر فينحني الى الارض يجمع
شظاياها ويظهر عليه من الاسف والكدر ما لا يقدر فيجره الخليع
اليه ويقول له :

(الخليع) - لا يليق بنا أن نكون على هذه الحال من الاسف
لأجل هذا « الفم » فان البرنس ينظر اليها وقد جئت لك بدعوة
منه للجلوس معه

(العمدة) - ليس أسفى على « الفم » فى ذاته بل لانه تذكر
عندى من حضرة مأمور المركز كنت أهديته فرساً فأهدانى إياه
فهو ثمين عندى من هذه الجملة . ولكن قل لى كيف يدعونى دولة
البرنس اليه وكيف ذكرتنى له

(التاجر) - أى نعم قل لنا كيف كان ذلك وهل جرى لى ذكر
عنده أيضاً

(الخليع) - قد قلت ماقلت وذكرتك ماذكرت ويقال فى المثل
أرسل حكماً ولا نوصه

(العمدة) - أحب أن اسمع تفصيل ما دار من الكلام بشأنى
فانى رأيتُه يضحك كثيراً وأنت تكلمه

(الخليع) - أخبرته بقصتك مع سمسار القطن ولطف حيلتك معه حتى حرمته من أجره

(التاجر) - وعلى ذكر السمسار هل تعلم ان دولة البرنس باع قطنه في هذا العام

قال عيسى بن هشام - فكار جواب الخليع أن أخذ بيد العمدة وتبعهما التاجر حتى صاروا أمام مائدة البرنس فطأطأ العمدة الى ركة دولته فدفعه بيده فاستلمها العمدة وقبلها مراراً بطناً وظهراً فتبسم له البرنس وأشار اليه بالجلوس فامتتع واستمر واقفاً ويداه الى صدره حتى أقعده الخليع مع التاجر بجانبه بعد شدة الإلحاح

(البرنس) لا أحد جلسائه - لا تنس أن تذكرني غداً بتصوير الفرس « سيرين » فاز « الدوك بروك » أرسل الى صاحبنا المستشار يطلب منى صورتها ليعرضها في معرض السباق بلوندره

(الجليس) - الأوفق أن يكون ذلك بحضور المستشار في اليوم الذي عينه أفندينا له للغداء مع مفتش الري

(البرنس) للعمدة - ماذا تشرب يا حضرة الشيخ . . . ياباك

(العمدة) واقفاً على قدم التاجر - أتمس السماح يا مولاي فاني لا أشرب شيئاً

(التاجر) متمملاً من الألم - العفو يا أفندينا أستغفر الله - فان ذلك لا يليق في حضوركم

(البرنس) - لماذا جئتما هنا إن لم تشربا

(الخليع) - يشربان حسب أمر دولتكم فالامثال فوق الادب قال عيسى بن هشام - ويتناول الخليع « علة السجارات » من أمام البرنس فيعطى للمعدة واحدة وللتاجر واحدة فيتجاشى العمدة إشعالها في حضرة البرنس ظاهراً - وغرضه الباطن إبقاؤها لديه أثراً من البرنس يفتخر به عند أقرانه - ثم يأتي أحد باعة الزهور فيهمس في أذن البرنس بكلام يقهقه له ويأمر الخادم ان يعطيه كأساً فيشربه وينصرف . ثم يلتبس الخليع من البرنس ان يسمح للعمدة بطلب زجاجة من « الشميانيا » فسمح له وملتفت الى العمدة يخاطبه بقوله :

(البرنس) للعمدة - كيف حال المحصول عندكم . وكم رمى القذاذ

من القطن

(العمدة) - رمى القذاذ عندي سبعة بأنفاس دولتكم

(التاجر) - المحصول جيد ولكن الاثمان في هبوط . وهل با

دولة أفندينا أقطانه أم هي باقية

(البرنس) لأحد جلسائه - أنا لا أدفع في ثمن الخنجر الذي رأيته
اليوم أكثر من عشرين جنياً. ولو كان عليه تاريخ صنعهِ لدفعْتُ
ما يطلبهُ صاحبك فيه

(الجلس) - لا بأس به لحدّ الثلاثين

(البرنس) - ما الذي تراه في مسابقة الخيل غداً

(الجلس) - أرى فرس البرنس سابقاً بغير شك

قال عيسى بن هشام - ولما جاءت الزجاجة المطلوبة بادر العمدة
الى جيبه فأخرج منه ذلك الموز فمسح واحدة منه وقدمها الى البرنس
وفرق البقية على الحاضرين. فوجد أحدهم صوفاً متلبداً في الموز
فيعافهُ ويتركه على المائدة

(أحد الجلساء) للعمدة - هل هذا الموز من زراعتكم وهل
تنضجونه في الصوف عندكم

(العمدة) - كلاً يا سيدي بل هو موز « النيو بار » ولم يمكث
في جيبى غير مسافة الطريق ومعى أيضاً برتقال أحمر وبلح أصفر
وقشطة خضرا

(أحد الجلساء) - أظن ان لكم شركة مع حسن بك عيد في
تجارة الفاكهة

(التاجر) - حضرته لا يشتغل بالتجارة وليس كل الناس من يقدم عليها فهي ربح مخفوف بالخطر

(العمدة) للخادم - أحضر لنا أيضاً زجاجة شمبانيا انكليزى

(أحد الجلساء) لآخر - يظهر أن الفدان رعى بعشرة

(الجلس) - فى البنك العقارى

(البرنس) - وما معنى انكليزى

(الجلس) - - يعنى أنها من جنس الجنيه

قال عيسى بن هشام - وفى هذه الاثناء يعود بائع الزهور فيلقى فى اذن البرنس كلاماً فيقوم البرنس فى الحال ويخرج والبائع فى أثره ثم يتسلل الجلساء من بعده واحداً واحداً فلا يبقى منهم أحد . وتخلو المائدة للعمدة فيشرب سور السكاس التى تركها البرنس ويميل على مابقى فى آنية النقل فيأتى عليه أكلاً

(التاجر) للعمدة - ينبغى أن تطلب من الخادم غيرها قبل حضور

دولة البرنس

(العمدة) - أنا لا أطلب شيئاً الا فى حضور دولته

(الخليع) - أظن أن دولته لا يعود فى هذه الليلة . وهذه عادته

اذا هو قام مع أحد الباعة عند تمام نشوته

(العمدة) -- ولـكننى لم أره دفع شيئاً من الحساب

(التاجر) -- لعل له هنا حساباً جارياً

(الخليع) -- نسأل الخادم

(العمدة) للخادم -- ألم يدفع دولة البرنس شيئاً

(الخادم) -- لم يدفع شيئاً قبل خروجه

(الخليع) -- وكـم الحساب

(الخادم) -- مائة وواحد وعشرون فرنكاً

(العمدة) -- أنا لا أصدق أن أفندينا يخرج من غير أن يدفع ما عليه

من الحساب . ومع ذلك فلننتظر عودته

(الخادم) -- إذا قام البرنس على هذه الصورة فانه لا يعود وإن

أردت أن لا تدفع ثمن ما شربه البرنس فأنا أقيده في حسابه

(العمدة) -- وأنا إذا كنت أدفع شيئاً فلا أدفع الا ثمن ما شربه

دولة البرنس وحده

وفيما هم على هذا النزاع إذ دخل أحد وكلاء المديريات فيهمض

العمدة لمقابلته ويلجّ عليه في الجلوس معه ثم يلتفت الى الخادم

بصوت عال:

(العمدة) -- على بتفصيل الحساب وبين لي فيه ما شربه دولة

البرنس . . وما أكله دولة البرنس . . وبكم شرب اصحاب البرنس
وكم شربنا مع البرنس . . وكم شرب قبلنا البرنس . واسأل سعادة
البك الوكيل ماذا يشرب وعُدْ لا دفع لك كل الثمن المطلوب
(الوكيل) - انا لا اشرب شيئاً

(العمدة) - كيف لا تفضل علينا بالشرب معنا كما تفضل دولة
البرنس ارضاءً لخطرتنا

(الوكيل) - لا بأس أن اشرب كأساً واحداً من « الكونياك »

(العمدة) - لا والله لا تشرب الا « شمبانيا » كما شرب معنا

دولة البرنس

(الخليع) للعمدة - لماذا لم تقدّمنا للتعارف بسعادة البك

(العمدة) سعادته وكيل مديرتنا . وحضرته (مشيراً الى التاجر)

من أكابر التجار . وحضرته (مشيراً الى الخليع) من ظرفاء مصر

(الخليع) للوكيل - نشرفنا بهذه المعرفة وكيف حال سعادة

المدير فهو من أعز أصحابي وطالما قضينا معه أوقات أنس وسرور

(العمدة) للوكيل - أظن ان سعادتكم حضرتكم الى مصر في

عقب كشف الرتب المقدم الى الداخلية

(الوكيل) - نعم كنت اليوم في الداخلية وسيتهى الامر ان

شاء الله على مانح

(العمدة) للخادم - بزجاجة شمبانيا أخرى
(الوكيل) - يكفي فاني أريد ان انتقل برهة الى داخل المسكن
في مجلس اخواننا القضاة ووكلاء النيابة
(الخليل) - لازلزم لانتقال سعادتك فانا ادعوهم للجلوس معنا
وفيهم فلان وفلان من أعز اصدقائي
(الوكيل) - لا تكلف خاطرك بذلك فان الأليق أن أذهب
للجلوس معهم

(العمدة) للوكيل - اذا كان الامر كذلك فكلنا نقوم مع
سعادتك ويأتينا الخادم بزجاجة الشمبانيا هناك
(الوكيل) - ان أردت ذلك فلا بأس

قال عيسى بن هشام - فيقومون فيجلسون مع أهل ذلك
المجلس ويحضر الخادم بزجاجة الشمبانيا فيرجوهم العمدة الشرب
منها فيمتنعون فيشدّد فيمتنعون فيقسم عليهم بالطلاق وهو يتلعم
سكرأ إلا شربوا معه ثم يتناول الكأس ويقوم متسانداً على الخليل
ليشرب معهم فما يكاد يضع الكأس في فيه حتى تأخذه غصة فلا
ملك نفسه عن رد الفعل فتلوّث ثيابه ويبادر الخليل مع الخادم الى

سحبه داخل المكان ليصلح ما فسد من أمره
ثم لبثنا مدة . ننتظر العمدة . ونترقب له الرجعة والعودة .
حتى أقبل يتهادى فى مشيته . بعد أن أفاق من غشيته . وعمد الى
الخروج والخليع عن يمينه يناجيه . والتاجر عن شماله يرائيه ويداجيه

*
* *

قال عيسى بن هشام - ولما خرجوا من ذلك المحل . ونحن
أتبع لهم من الظل . سمعنا العمدة يشكو للخليع فى طريقه . ما يجده
من انقباض الصدر وضيقه . ويسأله التفرج لكربه . والترويح
عن قلبه . ويذكره بما كان من الوعود . ويطالبه بزيارة ذلك
المجلس الممدود . ويقول له : تالله لقد أنصبتنا واجهتنا . فهل بنا الآز
الى ما وعدتنا لنزبا عنا الهمم برينات الخدور . ونكشف عنا الغم
بكاسفات البدور . ونجلو أعيننا بنجل العيون . ونعش أنفسنا
بناعسات الجفون . ونصتصبح لياتنا بالوجوه الصباح . قبل أن
يصبحنا جيش الصباح . . فيقطع عليه الخليع كلامه . ويدفع عن
نفسه ملامه . بأن طول الانتظار . يذهب بحسن الاصطبار
ولا صبر لذوات الدلال . على خلف الوعود من الرجال . وقد
جاءنى رسولها فى غفوتك برسالة . تشكو فيها ما لحقها من السأم

والملافة . وتُحَى عَلَى بالعتاب المر . وَأَنَّ مَا فَعَلْتُهُ مَعَهَا لَيْسَ بِفَعْلٍ
الحر . إِذَا اخْتَرَقْتَ مِنْ أَجْلِنَا مَا اخْتَرَقْتُهُ مِنَ السَّجُوفِ وَالْيَكَلِّ .
وتَحَمَلَتْ فِي مَجِيئِهَا مَا تَحَمَّلْتُهُ مِنَ الْخُوفِ وَالْوَجَلِ . حَذَرَ الْوَشَاةِ
وَالرُّقْبَاءِ . وَخَشِيَةَ الْإِهْلِ وَالْقُرْبَاءِ . ثُمَّ إِنَّمَا أَقَامَتْ طَوِيلًا فِي أَنْظَارِ
اللقاء . وَهِيَ عَلَى مِثْلِ حَرِّ الرَّمْضَاءِ . فَإِذَا الْوَعْدُ بِإِلَافَاءٍ . وَإِذَا الدِّينُ
بِإِلْقَاءٍ . وَكَأَنَّمَا كَانَتْ تَنْظُرُ غَائِبًا لَا يُؤْوِبُ . وَتَسْتَمُطِرُ سَحَابًا
لَا يَسْحُ وَلَا يَصُوبُ . فَذَهَبَتْ بِحَسْرَتِهَا . وَمَضَتْ لَطِيفِهَا . وَفَاتِنَا
مَا كُنَّا نَبْتَغِيهِ . وَأَيَّاسِنَا مَا كُنَّا نَرْجِيهِ . وَنَلَّكَ فُرْصَةً أَضْعَفْنَاهَا . لِنَزْغَةِ
شَيْطَانٍ أَطْعَمْنَاهَا . . فَيَقُولُ التَّاجِرُ : إِذَا مَا الَّذِي أَكْتَسَبْنَاهُ . بَعْدَ
الَّذِي احْتَسَبْنَاهُ . وَمَاذَا أَفْدَيْنَاهُ . بَعْدَ الَّذِي فَقَدْنَاهُ . وَأَيْنَ مَنَّا مَا نَجْمَعُ
بِهِ شَمْلَنَا . وَنَبْدُدْ بِهِ لَيْلَنَا . . فَيَقُولُ لَهُ الْخَلِيعُ : لَمْ يَبْقَ أَمَامَنَا فِي هَذِهِ
السَّاعَةِ . سِوَى مَلَاعِبِ الرِّقْصِ وَالْخُلَاعَةِ . عَسَانَا نَجْدِفُهَا بِدِيلَا .
مِمَّا لَمْ نَجِدْ إِلَيْهِ سَبِيلَا . فَيُخْرِجُ الْعَمْدَةَ دِرَاهِمَهُ فَيَعْدُّهَا . ثُمَّ يَحْشُشْخِشْ
بِهَا وَيُرَدِّدُهَا . فَيَقُولُ لَهُ التَّاجِرُ : لَا تَهْتَمَّ . فَدِرْهُمُ الْإِنْسِ مَيْسَرٌ . وَيَقُولُ
لِلْخَلِيعِ : تَقَدَّمْ . فَمَا مِنْ شَيْءٍ عَلَيْكَ مَعْسَرٌ . فَيُعْطِفُ بِهِمَا الْخَلِيعُ
مَنْ غَيْرِ إِبْطَاءٍ . إِلَى حَانِ لِلرِّقْصِ وَالْغَنَاءِ . فَدَخَلُوهُ وَدَخَلْنَا مِنْ
خَلْفِهِمْ . وَجَلَسُوا وَجَلَسْنَا فِي صَفْهِهِمْ . فَرَأَيْنَا الْمَكَانَ حَوْمَةً وَغَيَّ احْتَدَمَ

وَطَيْسُهُ . ومِيدَانُ حَرْبٍ اصْطَدَمَ خَيْسُهُ . عَجَاجَتُهُ الدِّخَانُ .
ومَتَارِسُهُ الدَّنَانُ . وسَلَاخُهُ الْبَارِيقُ والاقْدَاحُ . ودُرُوعُهُ الْغَلَالَةُ
والوَشَاحُ . وَنِبَالُهُ أَصْمَةُ الْقَوَارِيرِ . وَطَبُولُهُ تَوْقِيعُ الْعِيدَانِ
وَالْمِزَامِيرِ . وَمَغَافِرُهُ الْعَصَائِبُ وَالْكَالِيلُ . وَأَعْلَامُهُ الْمَآزِرُ وَالْمَنَادِيلُ .
وَقَوَادُهُ وَشَجْعَانُهُ . قَوَادُهُ وَغُلَامُهُ . وَكَأَنَّ مَنْصَةَ الرِّقْصِ هِيَ حَصْنُهُ
الْحَصِينُ . وَصَاحِبُ الْحَاكِ هُوَ قَائِدُ الْكَمْبَيْنِ . وَكَأَنَّ الْمَغْنِينَ هُمُ الْكِمَامَةُ
وَالْأَقْرَانُ . وَالرَّاقِصَاتِ الْحِمَامَةُ وَالْفَرَسَانُ . وَحَرَكَاتُهُنَّ بِالرَّدْفِ
وَالْخَصْرِ . هِيَ حَرَكَاتُ الْحَرْبِ فِي الْكُرِّ وَالْفَرِّ :

أُولَاتُ الظُّلْمِ جُنُنٌ بِشَرِّ ظُلْمٍ وَقَدْ وَاجَهْتُنَا مُتَظَلِّمَاتِ
فَوَارِسُ فِتْنَةٍ أَعْلَامُ غِيٍّ لَقِينَاكَ بِالْأَسَاوِرِ مُعْلَمَاتِ
وَتَرَى كُلَّ ذَاتٍ تُدِي حَاسِرَ بَارِزٍ . تَنَادِي هَلْ مِنْ مُنَازِلٍ أَوْ مَبَارِزٍ .
ثُمَّ تَتَبَخَّرُ وَتَجُولُ . وَتَخْطُرُ وَتَصُولُ . فَتَرْمِي كُلَّ طَالِعٍ فِي وَصَالِهَا .
بِسَهَامِ اللَّحَاطِ وَنِصَالِهَا . ثُمَّ تَرُشِقُ بِهَا الدَّنَانَ تَارَةً فَتَسِيلُ بَدَمَ الْعَقَارِ .
وَتَسْقِي بِهَا الْجُيُوبَ أُخْرَى فَتَسِيلُ بَدَمَ النُّضَارِ :

وَقَدْ اغْمَذَنَ فِي أُزُرٍ وَلَكِنْ سَيُوفُ الْحَاطِينَ مُجَرَّدَاتُ
قَدَحْنِ زَنَادَ شَوْقٍ مِنْ زُنُودٍ بِنَارِ حُلِيِّهَا مُتَوَقَّدَاتُ
وَتَرَى فِي وَسْطِ تِلْكَ الْمَرْكَةِ . مِنْ كُلِّ هَلُوكٍ مُهْلِكَةٍ . تَنْسَابُ فِي حُلَّةِ

رقصها ونسعى كأنها حية في قميصها أو أفعى . لُعابُ الافاعي القاتلات
لُعابُها . وأنيابُ الأسود الضاريات أنيابها . تنفث السم رائحةً وتنتهش
غادية . وإن رأيته شاذنةً وسمعتها شاذية . فترى القومَ فيها صَرَعى
كأنهم أعجازُ نخلٍ خاوية

قال عيسى بن هشام - ولما طال جلوسنا وضائق أنفاسنا وكاد
يُغنى علينا من كربه الروائح المنبعثة من أرجاء المكان المتصاعدة
من اكنافه : رائحة عكر الخمر . ورائحة عرق الابدان . ورائحة زيت
المصابيح . ورائحة الدخان والحشيش . ورائحة أنفاس الخمرين . ورائحة
تلك المراحض التي لم يدخلها ماء . ورائحة الارض التي تُسقى بالاقذار
ولم تسطع فيها شمسٌ ولم يتغير عليها هواء . فاذا امتزجت هذه الروائح
بعضها انعقدت منها في جو المكان سحابة سوداء تمطر الادواء
وتساقط الاوباء فتستنشقها الانوف وتمتصها الرئات وتضوى بها
الاجسام وتتضاءل منها ذبالات المصابيح تضأولها في أجواف
المناجم وبطون الكهوف . وكاد الباشا يخنق وهمَّ به الغيَّان فهم
للقيام فأمسكتُ به وقلت له :

(عيسى بن هشام) - أيصبر مثلي على هذا المقام ولم أشهد في
عمرى معركةً ولم أحضر معمةً ثم يجزع منه مثلك وقد مارست

الحروب وشاهدت الوقائع تحت سحْبُ العجاج وفوق جثث القتلى
وأشلاء الجرحى لا تبالي برائحة الجيفة ولا برائحة الدم ممزوجا
بصدأ الحديد

(الباشا) - لقد كان ذلك ولكن في الخلوات والقلوات حيث
تسطع الشمس وتجرى الرياح . ولم أستنشق تلك الروائح منحصرة
كانحصارها في هذا المكان . ومع ذلك فاني أتجلد مثلك للبقاء به كيلا
يفوتنا شيء فيما نحن بصدده من بداية الامر الى نهايته
وبينا نحن كذلك اذا بصديق لي دنا مني فسلم عليّ وأظهر لي تعجبه
من دخولي الى هذا المحل فأظهرت له تعجبي من دخوله أيضا
فأجابني بقوله :

(الصديق) - ان السبب في دخولي هنا هو البحث عن رجل
احتال عليّ في بعض الشؤون غاب عن نظري وأنا أعلم أنه يأوى
الى مثل هذا المكان فدخلته على كره مني بعد أن حرّمت علي
نفسى التردد عليه منذ زمان بعيد . وحكم الضرورة مطاع ولكن قل
أنت ما الذي جاء بك الى هذا الوكر وكرّ الافاعي وأدخلك في هذا
العش عشّ الشيطان

(عيسى بن هشام) - أدخلنا فيه حب الاستطلاع والاستكشاف

في الاخلاق والعادات ولكنني فيه غريب لا أفقه كثيراً مما أرى
والحمد لله الذي سخر لك لنا في هذه الساعة لتبين لنا ما غمض وتبدى
لنا ما يخفى

(الصديق) - لك ذلك مني وفوق ما تريد

قال عيسى بن هشام - وجلس الصديق معنا يحدثنا ويرشدنا
ويسرد علينا من غرائب الوقائع وعجائب النوادر في هذا الباب
ما أدهشنا به . ثم انقطع الحديث بيننا بدخول رجل يتمايل سكراناً
فاخترق صفوف الجالسين وقد سكنت ضوضاؤهم وهدأت حركاتهم
لسماع الغناء من إحدى القيان البارعات فيه فأعناقهم نحوها مشرّبة
وأبصارهم إليها شاخصة كأنهم جالسون تحت المنبر يستمعون أحسن
الحديث من وعظ الخطيب واستمر السكران في سيره يقع بينهم
مرة ويقوم أخرى حتى وصل إلى منصة الرقص والغناء فضرب
عليها مراراً بعضاً في يده ونادى على مَنْ فيها بأعلى صوته يطلب
العدول عن الغناء إلى الرقص فلم يسمعوا لندائه فالتفت إلى زمرة
من الجالسين وطالب منهم مساعدته على غرضه فنادوا معه : الرقص -
الرقص . ونادى الراغبون في السماع : الغناء الغناء . فانبرى لهم
السكران يهزأ بذوقهم ويهسفهم في سوء اختيارهم فأجابه سفيه منهم

على سفاهته فهجم عليه السكران بعصاه فقفز صاحب الحان من
مكانه الى السكران فأخذ بتلابيه . ويقوم طالب الغناء حينئذ من
مكانه فيشبع السكران ضرباً وشفعاً فيتملق السكران بخناقه وينادى :
البوليس البوليس . فيجتمع غلمان الحان يجرّونه الى الخارج وهو
ممسكٌ بعنق الضارب له لا يخليه حتى اذا صاروا الى الباب أدرّكهم
جندي البوليس وألقى القبض على المتضاربين فيتعرض له صاحب
الحان ويمنعه من القبض على الضارب ويقول له : ليس لك الا أن تأخذ
هذا السكران وحده فقد جاءنا بعد أن امنلاً سكرّاً من الخارج
يعربد في محلنا وكأنه مأجور من أرباب الحانات الأخرى للإضرار
بنا وإحداث الفشل في محلنا . فيأبى الجندي إلا ان يسوق المتضاربين
معاً فيغمزه صاحب الحان ليلين له فيتدّره أحد غلمانه قائلاً له : لا لزوم
لما تأتیه مع هذا الجندي من المصانعة وغرضنا يقتضى بدونه فان
حضرة معاون القسم جالسٌ عندنا داخل « البار » مع رفيقته
(صاحب الحان) للجندي - لم يبق لك من وجهه لسحبهما الى
القسم . وتعالوا ندخل جميعاً عند حضرة معاون في « البار »
(الجندي) - هذه حيلة غير خافية تريد بها تهريب صاحبك .
وكيف يكون حضرة معاون موجوداً الآن في « البار » والنوبة

عليه الليلة في القسم

(صاحب الحان) - ما عليك الا أن تدخل وهما في قبضتك لتراه بعينك فيجيب الجنديُّ صاحبَ الحان الى ذلك فيدخل فيرى المعاون جالساً بجانب رفيقته خالماً رداءه على كتفها وطربوشه على رأسها وهو يسقيها من كأسه وتعاطيه من كأسها

(صاحب الحان) للمعاون - لقد تعطل المحل يا حضرة الافندي في هذه الليلة وتعطيله لا يرضيك فان هذا الرجل دخل علينا سكران ولم يشرب من محلي شيئاً فعربد بين الجالسين وأخلّ بنظام الاجتماع ثم بعدئى على هذا الباك بالشم والضرب وهو من أجل المترددين على المحل . والغريب أن جنديّ البوليس هذا لم يسمع لقولى فيه بل صمّ على سجنه مع ذلك المتعدى الى القسم وهو من أبناء الكرام ولا يليق بكرامته أن يساق مع هذا السكران الى المحاكمة

(المعاون) للجنديّ بعد أن يلبس طربوشه - ما هذا الذى أسمع

(الجنديّ) رافعاً يده بسلام التعظيم - لم أعلم بوجود حضرتكم

هنا والامر اليكم

(المعاون) للجنديّ - اذا كان الرجل السكران في حالة سكرين

نخذه وحده الى القسم وما دام حضرة الباك لم يحصل منه اعتداء

بشهادة حضرة الخواجه فلا لزوم لذهابه معك ويكفى ان حضرته يعطينا وعداً بالحضور غداً الى القسم لأخذ شهادته على هذا السكران (وعند ذلك يدفع صاحبُ الحان بالسكران الى الخارج مع الجنديّ)

(الجنديّ) - اذا كنت تطاوع غلامك كل مرة فيما يشير به عليك يا حضرة الخواجه فليس يكون حضرة المعاون عندك في كل ليلة .
والانام بيننا

(صاحب الحان) - أوصيك بهذا السكران شراً ولا يكن عندك شك في دوام الرعاية بك

قال عيسى بن هشام - وخرج السكران أمام الجنديّ مدفوعاً في ظهره يقع ويقوم ويستمدى ويستنجد . وعدنا الى داخل الحان ننظر ما يجري فيه فاذا صاحبُ الحان ومعه البك خصيم السكران قد جلسا مع حضرة المعاون والكؤوس تغدو عليهم وتروح . فجلسنا ناحيةً نستمع لهم ونؤثر ما يجري من حديثهم على نحو ما ترى :

(صاحب الحان) للمعاون - لماذا أوعزت الى صاحبك بالقيام

عند جلوسنا معك

(المعاون) - أنا لم أوعز اليها بشيء ولكنها هي التي قامت مغضبة

(صاحب الحان) - ولأى سبب أغضبتها

(المعاون) - لم آت سبباً يغضبها بل هي التي انتحلت سبباً كدرتني به وكدرت نفسها أيضاً

(صاحب الحان) - لاشك ان ما حصل هو من باب الدلال دون سواه وسأدعوها في الحال لعقد الصلح بينكما

(المعاون) - لادخل للدلال هنا ولكن جرى في أمر حضرة البك والسكران ما هو على خلاف هواها فأنها كانت ترغب في التضييق على الاول والتفريق على الثاني لان حضرة البك هو من أكبر أصحاب المغنية والمغنية من الدأعدائها

(صاحب الحان) - لقد حرت في أمر هذه الفتاة فان ضروب حماقتها لاحد لها وفي كل ليلة تأتي بنوع من المشاكل جديد ينتج عنه مالا يعوض من خسارتي ولولا منزلتك عندي ومنزلتها عندك لما أبقيتها في المحل يوماً واحداً ولا تكبدت إعطاءها في كل شهر مقداراً ما يأخذه وكيل المديرية مرتباً من الحكومة . ولو شاهدت منها ما أشاهده كل ليلة من تسافهها على الرجال وتخاصمها مع النساء اعتماداً على سلطتك وارتكائاً على مساعدتك لعلمت مقدار حماقتها وجنونها

(المعاون) - نعم ان حماقتها عظيمة وطالما أُكِّدْتُ عليها باجتناب المنازعات والمشاجرات حتى لا يقال ان علاقتها بي هي التي تجرئها على ارتكاب ذلك . واسكنها على كل حال سليمة القلب خفيفة الروح (صاحب الحان) - صدقت وهي مع ذلك تحبك حباً صادقاً (وهنا تدخل المغنية في البار بعد انتهائها من الغناء فتتقدم نحو هذا المجلس لتسأل من حضرة البك صاحبها عما تم عليه أمر المخاصمة مع السكران فيقول لها) :

(البك) - أنا في غاية التشكر لحضرة المعاون الذي أنصفني وفي غاية التذكر مما وقع له من فلانة بسببي فانها اهتمت غضباً لما علمت بمساعدته لي وهي تبغضني لعلاقتي بك . فبحياتي عليك الا ما قبلت التوسط في الصلح بينكما وإزالة ما في النفوس فتعود راضيه على حضرة المعاون ويتم الصفو لنا جميعاً

(صاحب الحان) - أنا أوافق على هذا الرأي

(المعاون) - وأنا لا أرفضه

(البك) - وأنا أرسل في طلبها

قال عيسى بن هشام - وتحضر الفتاة فيقع نظرها على المغنية جالسة مع المعاون وأصحابه فتشتعل جذوة نارٍ من الغضب وتنقلب لَبْوَةً

هاجت لفقد أشبالها فتشتم وتسبّ وتقذف ولعن وتفل وتبصق
وتنقضّ على المغنية فتأخذ بـرقبها فتزيلها عن مكانها ولتفت الى
المعاون فتتوعده بالشكاية والطعن فيه لدى رؤسائه ثم الى صاحب
الحان فتهدده بأنها لا ترقص في ليلتها . فلا يسمع صاحب الحان الا أن
يتلافى الفضيحة فيجرّها الى خارج البار بالقوة ليتمكن المعاون
أن يتسلل هارباً . ثم أخذ ينصحها ويحذرها ويقول لها ان المعاون قد
ذهب الى القسم الآن وقلبه مملوء منك حقداً وغيظاً فاذا أنت لم
ترجعي عن حماقتك وتصعدي الى المنصة للرقص أوعزت الى المغنية
أن تمسك بك وتذهب معك الى القسم والحاضرون يشهدون أنك
تعدّيت عليها بالضرب والمعاون هناك ينظرك للتشفي منك .

قال عيسى بن هشام - فوقع هذا القول منها وقع الماء في النار .
وإنذار الحجز على أهل الدار . فهذا جأشها . وسكن طيشها .
وصعدت للرقص على منصتها . تتأوه من حسرتها وغطتها . وعدنا
للجلوس أمام الميدان . ننظر ما يكون من الغلبة والخسران

قال عيسى بن هشام - وجاء دور الرقص فضجت الغوغاء .
واشتدت الضوضاء . وامتدت الأعناق بالصفير والنعيق . واشتغلت
الأكف بالتصفيق . ترحيباً وتأهيلاً . وتكبيراً وتهليلاً .

اذ قامت على المنصة هالوك وراهاء . عمشاء مرهء . فطساء فوهاء .
عجفاء شوهاء . مَرْحَجَة الحاجبين . محمرة الخدين . مبيضة
الساعدين . مخضبة البدين . قد ألبست وجهها من الطلاء نقابا .
وأسدلت على أطرافها من الدهان ثيابا . بأصباغ شتى وألوان . بين
أبيض ناصع وأسود فاحم وأحمر قان . تلون تلون الحرباء . في
هجير البيداء . وقد وارت مانعرض من جسمها . وتعرى من
لحمها . بأنواع العقود والقلائد . والأساور والمعاضد . والدمالج
والجلجل . والمناطق والخلخل . فأخذت في الرقص والحجلان .
على توقيع الضروب والألحان . وبجانبا خادما مشككنا من قبح
هيئته . أنه إبليس اللعين في طلعتة . رُكبت منه أقباح هامة . على
أسواقامة . بوجه قد قُدد من الصخر . وعين كعين الصقر .
وأنف كمنسر النسر . وفم يرمى بالزبد كالبحر . وشفة مهدولة .
وعمامة مجدولة . وفي يمينه قدح وإبريق . يسقيها منه بكأس من
حريق . لا بكأس من رحيق . ويعاطيها من غسيل أو قطران .
ويجرعها من حميم آن . وكلما أترع لها كأسا . همست في ماذنه همسا .
ثم تشير بطرف السكف . الى بعض الجلوس في أول صف . فيصيح
اللعين صيحة الأسد في عريسته . وقع بصره على فريسته . فيجيبه

غلام الحان جذلاً وابتهاجا . ويأتيه بالزجاجات أزواجاً . فيفيض عنها
 القدام . ويصففها أمامها تحت الاقدام . ولا يزال خادمها يملأ لها
 ويسكب . وهي تشرب وتطلب . لا تكتفي ولا تقنع . ولا تروى
 ولا تنقع . كأنما يمتح لها من قلب . ويصب في وادٍ جديب . أو يملأ
 من ماء منبثق . ويفرغ في دَنٍ منخرق . فاذا دبت في عروقها نعالُ
 الحجر . واشتعلت في جوفها اشتعال الجمر . جدت في لعبا ودورانها .
 واشتدت في قفزها وجولانها . ولوَّت كالحية في طرُوقها . ولعبت
 كالسلاحفة بعنقها . والخادم أمامها ينازلها وتنازله . ويغازلها ولغازله .
 ويراقصها وتراقصه . ويقارصها وتقارصه . وهي ترسل على الحاضرين
 أقوالاً بذيئة . وتخطبهم بالفاظ قبيحة رديئة . ففتقر لها الثغور . وتشرح
 الصدور . ليس فيهم الا كل مستحسن مستزید . ومستملح
 مستعید . الى أن تخور قواها . وتغور عينها . وتقلص شفتها .
 ويكلح شداها . وينضح العرق من أطرافها وتراقبها . وينعقد الزبد
 بنحرها وفيها . فتضطر الى إزالته . وتعمد لا زاحته . فتناول المنديل تمسح
 به من وجهها وذراعها . فيتلوّن بأشكال البغة وأنواعها . فيغدو
 المنديل كأنه قوس قزح . بما تصبب من أديمها وارتشح . وينكشف
 القموه والتليس . ويفتضح التلفيق والتدليس . فيظهر ما بطن

ويبرز ما كمن . وتنقلب الى صورة سَعْلَة . تتراى فى سراب
فلاة . أوغول . سكشر وتصول . أودُب . يهتز ويدب . فحولنا
عنها الوجوه استذكافوا استنكارا . ولَوَيْنَا الاغناق استقباحاً واستقذارا .
ومال الباشا على الصديق يسأله فى دهشته . ويقول له فى نفرتة :
أعلى مثل هذه تذوب القلوب . وتلشق المرائر والجيوب . وهل
وصل العمى بالناس الى هذا الحد . ولم يبق فيهم تمييز للغزال من القرد
(الصديق) - نعم ان هذه التى تهرب منها الوحوش لفظاعها .
ويتعوذ منها الشيطان لدمايتها . هى عندهؤلاء الحاضرين ذميمة القصر .
وفريدة العصر . كم ذهبت بأموال وأودت بأرواح وكم أضاعت شرفا
وأزالت مجدا وأذلت رقبا وأفسدت حكاما وكم فرقت بين المرء
وزوجه وولدت العقوف بين الوالد وولده وألهمت العداوة بين
الأخ وأخيه وكم خربت بيوتا عامرة ودنست أنسابا طاهرة وكم
بذرت للشر أسبابا . وفتحت للسجون أبوابا . وهؤلاء الذين تراهم
جلوساً فى هذا المستنقع الوبئى والمرعى الوبيل يقضون فيه ليالى
الشهر تباعاً وشهور العام ردافاً لا توهمنهم من أسافل القوم ولا من أذياء
الناس بل فيهم الكبير والأُمير والسرى والوجيه . وانظر عن
يمينك الى هذا الجالس بين اخوانه جلسة الكبرياء فهو أحد أبناء

الامراء مات أبوه وترك له أموالاً جمة فالتفّ حوله قرناء السوء من أهل البطالة والفراغ فبدأ في تبديد تلك الأموال باقتناء الخيول المسوّمة والماركبات المطهّمة ثم نثى بالاسراف الفاحش في مهرجان زواجه ثم نثت بتسليم مابقى منها لآيدي العواهر والقواجر وأخصهنّ هذه اللخناء التي لم يبق له منها الا التمتع بالنظر وهي لا تنظر اليه ولا تسأل عنه بعد أن استفرغت أمواله . وانظر عن شمالك الى هذا الجالس الذي يقتل شاربيه ويحملك بعينه ويغمر بحاجبيه فهو حريّ أبناء الكبراء أيضاً ماتت أمه فورث عنها أموالاً طائلة ولم يمض على موتها بضعة أيام حتى أوقعه سوء طالعها في مخالب هذه الخدّاعة الغرّارة فهو لا يصبر عنها ولا يقطع المحبى اليها في كل ليلة وهي تسلبه كل مااتصل به يده من خفيف وثقيل وما كان لامه من حلى وجواهر غير ماينثره من الذهب والفضة في أرض هذا المكان . وانظر أمامك الى هذا الجالس معظماً بين جلسائه مبيجلاً فهو من كبار الحكام في الارياف وقع في أشراك هذه المرأة فكادت لفضاعة أعمالها معه أن تسلخه من شرفه وتسقطه عن منصبه وهو مع ذلك لا يسلوها ولا يلهو عنها وليس له في مدة إقامته بالقاهرة غير بيتها مأوى ومرقصها ملهى فاذا هو عاد الى مقر وظيفته عاد بغير له

فيسعى في استغواء العمد والاعيان هناك لإقامة الولائم والحفلات واستئجار هذه الراقصة لأحياء لياليها . وانظر الى هذا الشيخ الجالس منفرداً منزوياً ويده مرتشقة بين صدغه وعمامة فهو من أعيان البلد لم يمنعه وقار السن وهيبة المشاب من الوقوع في أسر هذه الغاوية فأخذ يبدد عندها في شبحوخته ما كان جمعه في شببته (الباشا) - لو أنه كان لهذه المرأة مزية ظاهرة من مزايا النساء لقلنا الهوى في الناس دائم قديم والتولع بالحسان أمرٌ بديعٌ والعذر غير معدوم ولكن ما بالهم والمرأة في القبح والدمامة بمنزلة الشيطان والهروب منها مندوب اليه . فهل تعلم لذلك من سبب خفيّ (الصديق) - السبب فيه حبُّ التباهي والنفاخر والأثرة والاختصاص وقد اشتهرت هذه البغي بإيقان الرقص والتفرد فيه وأنفسُ الجهلاء مولعة بالشهرة الباطلة والصيت الكاذب يتشبثون به عُمى النواظر عمّة البصائر فهم يرون ان الاختصاص بمثل هذه الشهيرة في فنّها وإن قبح منظرها وساء مخبرها هو الفخر كل الفخر والسبق كل سبق . وهم يجولون على الحكاية والتقليد فلذلك نفذ فيهم سهمها وسرى في عروقهم سمّها (الباشا) - ان كان لا يوجد في هؤلاء الناس عقول تردعهم ولا

يوجد بينهم واعظ يرشدهم أفلا كان هناك من سلطان يزعمهم وحكم
يكف الأذى عنهم

(الصادق) - لا واعظ ولا ناصح ولا سلطان ولا وازع وقل
بيننا من يشتغل للناس في نفع الناس . أما الحكومة فأسمع بها
وأبصر تنتشر كل هذه الموبقات بعلمها وتُصنع على عينيها وهي ناظرة
إليها نظر الرضى متقبلة لها أحسن القبول وهي التي تدير نظامها
وتوسع حدودها وتضع لها اللوائح والمنشورات وان اضمحل بها
حال الرعية وساء منها المصير . وماذا يقال في حكومة تعلم ان ثروتها
في ثروة رعيته وسلامتها في سلامتها ثم ترضى بانتشار هذه المنكرات
المقوضة للثروة المتلفة للأرواح والابدان ولا تأبى لغزها وشرفها
ان تكون سرّة عاصمتها محلّة للبغايا وسوقاً للخمر وميداناً للمقامرة .
والعجب في أمر هذه الحكومة أنها لا تحتذى في هذا الصدد على
مثال حكومة اسلامية ولا على مثال حكومة مسيحية فجميع عواصم
الاسلام في العالم خالية من اماكن معينة للبغايا المسلمات تشهد بها الحكومة .
والحكومة الانكليزية من الحكومات المسيحية لا تعترف في بلادها
بيت للفاحشة . ومن أباح بيوت الفاحشة من بقية الممالك المسيحية فقد
أباحها بقيود وحدود تخفف من أذاها وتهوّن من غوائلها وأقلّ

ما في الامر أنهم جعلوها في أطراف البلدة بمعزل عن مساكن الحرائر .
ولكن الحكومة المصرية تخالف في ذلك مناهج الحكومات جميعها
قال عيسى بن هشام - وانتهت الراقصة من رقصها فدخلت حجرة
لتغيير لباسها وإصلاح ما فسد من حالها ثم نزلت منها وقد جدّت
ألوانها وأدهانها وسارت تتكسر في مشيتها بين الجموع وهم يرمقونها
رمق الشهوة ويتطلعون اليها تطلع البهيمة فتزحزحت لها المجالس
وحلّت لها الحبيّ وأعدّ لها كل فريق كرسيّاً بجانبه وتناثرت عليها
الاشارات بالتفضل بالجلوس فلم تعبأ بشيء من ذلك ولم تلتفت اليه
واستمرت في تكسرها وتهاديبها حتى وصلت الى مقام صاحب
الحان فوقفت معه . ملاعبة مداعبة وممازحة مضاحكة . وجاء
خادمها في عقبها فاستوقفه اليه ذلك الحاكم من حكام الارياف فوقف
بجانبه يهزل معه ويمزح ثم شاهدنا الحاكم يخرج من جيبه بعض
الدرهم فوضعها في يده فانصرف الخادم الى الراقصة فكلمها وأشار
بيده الى الحاكم يستعطفها له ويستدعيها الى الجلوس معه فأبانت
عن أمارات الإيذاء والرفض في أول الامر ثم انتهت بها لاجة الخادم
الى الرضا والقبول فقصدت مجلس الحاكم وقصد الخادم غلام
الحان فما جلست حتى كان الغلام بجانبها يحمل في يده أربع زجاجات

من الشبانيا فبزلها كلها بميزله قفارت وفاضت وانتشرت كلها
حبياً والعلام متلاه عنها لا يسرع الا ملاء منها حتى اذا لم يبق بها
الامقدار صباية صبها الخيث في الكاسات وقدمها للفاجرة فبادرت
الى المس كل كأس لمسة بيدها وفيها . ثم يعود الغلام بعد هنيهة لأخذ
الزجاجات الفارغة فتأمره باحضار سواها . وهكذا يتوالى الحال في
طلب الادوار حتى يبلغ الى الدور الخامس في مدة يسيرة وجميع
الجالسين لا يتحولون بنظرهم عنها يراقبون حركاتها وسكناتها كأنما
يرصدون نجما أو يرقبون هلالا . ولما انقطع ورود الزجاجات برهة
التفتت العاهرة الى خادمها وهو على بعد منها فرأته يشير اليها
بحاجبيه تارة وبطرف لسانه أخرى فهتت بالقيام فأمسك الحاكم
بأذيلها فصفعته صفقة مزاح على قفاه بعد أن لعنت أمه وأباه استرضاء
له عن تركها اياد فهش وبش اعتقاداً منه أنها لا تعامله بهذه المعاملة
الالسقوط الكلفة وتمكن الألفة . وتسل من حضرته الى حيث
أشار الخادم فتعبط على الفئة التي عن يميننا وفيها ذلك الشاب الذي أفنى
في حبها ماله وأضاع في هواها شرفه فخاطبته بلسان اللوم والعذل
تسأله لأي سبب دعاها ولاجل أية علة ألقها من مكانها فیتلعثم
المسكين برهة ثم يجيبها بأنه دعاها لمصلحتها وقضاء حاجتها فان المحامي

أخبره بنجاح قضيتها فتبسم له قليلاً ثم تلقت عنه الى سواه فيستحلفها بالود القديم والعهد العتيق أن تجلس معه لحمة ليقصّ عليها تفصيل الخبر فتفر منه فيرميها بسوء الوفاء وخيانة العشرة ويبكتها مذكراً لها بما كان بينهما من الصفاء والهناء وما أتلّفه في معاشرتها من نضار وعقار فتألمه على وجهه لطمّة المعلم المؤدّب وتجلس الى جانبه وتسأله أن يدع عنه ذكر تلك الليالي والايام الخوالي وأن يحفظ عنها قصة الاضرار في باب الاعتبار وروت له هذه القصة التي هي عندهنّ عماد الصنعة وأساس الفن: زعموا ان فتى كان يهوى فتاة وهو فعاشا تحت جناح الحب زمنا سعيداً ثم طرأ على الفتى سفرٌ يبعده عنها في طلب المال وجاءت ساعة الوداع فانهملت العبرات وتوالت الزفّرات وأقسمت له بأن العيش لا يطيب لها من بعده وان الموت أهون عليها من بعده وسألته أن يبقى عندها أثراً منه تتعل به في غيابه ساعة الحنين وتشم منه ريحه وقت هيام الذكرى فقال لها سأترك لك بضعة منى وأنزع لك أثراً من بين لحمي ودمي ثم عمد بيده الى فيه فاقتلع لها ضرساً من أضراسه غير مبالٍ بألم الانتزاع ووجع الاقتلاع وناولها إياه يقطر بالدم فأخذته منه وأشبعته لثماً وتقبيلًا ووضعته في حقة نفيسة وسافر الفتى سفره ومضت عليه الايام والليالي ثم آب من سفره خائباً

لم يظفر بحاجته ولم يفز بطلبته رقيق الحال ضيف الركن فذهب الى دار صاحبه وقد أضناه الشوق وبراہ النوى فلما طرق الباب ولحته من النافذة تنكرت له وأنكرته فنادها أنا فلان فاسمحي لى بالدخول قالت له ومن فلان فانى لأعرفه قال لها خليلك وحبيبك صاحب العهد الوثيق والعشرة الطويلة قالت له كل الناس عاشر وفارق فأبهم أنت قال لها أنا صاحب الضرر قالت أو لك ضرر عندى قال نعم قالت فادخل فدخل فأجلسته وأحضرت أمامه حقة كبيرة وأمرته بفتحها ففتحها فوجدها مملوءة بكمية عظيمة من الضروس وقالت له: دونك إن كنت تعرف ضررك من بين هذه الاضراس . فآنا أعر فك اليوم من بين الناس . ولما أتمت الواعظة وعظها انصرفت عن هذا المجلس الى مجلس ذلك الشيخ الوجيه فيقوم لتحيتها واقفاً ويبدى لها نواجذ متهللاً فتجلس معه وغلام الحان فوق رأسها ينتظر طلب الزجاجات فلا تلتفت اليه فيديم الوقوف فتأمره بالانصراف فيعود خائباً وتقول للشيخ إنها لا تريد أن تحمله فى حبها مفرماً ولا تقيسه عندها ببقية الحاضرين الذين تسلمهم لصاحب الحان فيخرج الوجيه من حزامه عقداً يتلألأ فيضعه بين يديها فتبسم له وتنعطف اليه وتقيم عنده برهة فى مضاحكة ومغازلة . ثم

تقوم لتنصبَ على سواه شبا كها . وترمى لصيد القلوب أشرا كها:
تُحَيِّي وَجُوهَ الشَّرْبِ فِعْلَ مَسَالِمٍ يُضَاهِكُهُ وَالْكِيدُ كِيدُ مُحَارِبٍ
قال عيسى بن هشام - وأقمنا تأمل في أفعال هذه البغي الفاجرة .
ونفكر في أعمال هذه الخداعة الماكرة . ونعجب كيف يقتدر مثلها
على ختل الرجال . فترميهم في مهاوى الغواية والضلال . وهي عارية
من ثوب الجمال . مجردة عن جميع المزايا والخصال . مفرغة في قالب
الوقاحة . معجونة من حمأة الدمامة والقباحة . وما زالت الفاجرة
تقلب بين الجالسين وتنفّل . وتجوّل بين الصفوف وتحوّل .
وتروح الى صاحب الحان وتغدو . وتحقّي آونة ثم تبدو . منطلقة
اللسان بالسب والثلب . منبسطة اليد بالنهب والسلب . ممتدة الكف
بالطم والضرب . دأبة في السكب والشرب . وهي في تنقلها
تقطّب تارة وتجهّم . وتفترّ تارة وتبسم . وتبسط حيناً وتقبض .
وترضى ساعة ثم تمتعض . وتعامل كل انسان بما يلائمه . وتجري معه
على ما يؤايمه . فتضلّ الالباب والنهى . ويقع الجميع في أسر الهوى .
وآية حبها وميلها . أن تصفع الصّب بنعلها . فإذا أضافت الى الضرب
بالنعال . شقّ القباء ونفّ السبال . كان في ذلك بلوغ الآمال .
بدنو ساعة الوصال . واستوى المضروب يُفاخر أصحابه وخلانه .

ويباهى أنداده وأقرانه . كالظافر في ساحة الطعان والضراب . والفائز
بالغنائم والألألاب . فيغالى في إظهار الابتهاج والالتناس . وتنبسط
يده في الكيس ويدوها في الكاس . والعلام على رأسه بالآنية .
يصب لها زجاجة كل ثانية . وهى تصب الكؤوس فى الهاوية .
كان حلقها قناة وكان الساقى ساقية . وحانت منا التفاتة الى الخليع
وصاحبيه . فاذا العمدة يشير بيديه ويفغمز بحاجبيه . ويقول للخليع
فى اشتماله والتهابه . ويخاطبه فى ارتباك واضطرابه :

(العمدة) للخليع - لقد أسعدنا الجد وحلت لدينا عاقبة الصبر
ولئن فاتنا الانس بالغائب فما أكمل أنسنا بالحاضر . وهذه الراقصة
التي اجتمت على محبتها القلوب واقتنت بها العقول هى عندى
الضالة المنشودة والأمنية المطلوبة . ومن يبلغنا إياها سواك وعن
علينا بها غيرك

(الخليع) - هذه هى الفتانة المشهورة بكثرة العشاق والطلاب
ولا عيب فيها غير المزاحمة عليها والمورد العذب كثير الزحام
والوصول اليها من دونه أهوال :

وإنك إن أرسلت طرفك رائداً لقلبك يوماً أتعبتك المناظر
رأيت الذى لا كلة أنت قادر عليه ولا عن بعضه أنت صابر

(التاجر) - نعم هذه هي البضاعة الثمينة والسلعة الرائجة فاز من حازها وخسر من فاتها ولو كانت الايام ايام ربح ورخاء لصبا اليها القلب وولعت بها النفس ولكن لرب العيال ما يشغله عنها ويبعده منها (العمدة) - ليس يفوتنا على كل حال ان نتمتع بها الليلة بالمجالسة والمغازلة ونروى بمحادثتها الغليل ونشفي بكلامها الهيام

(الخليع) - حبذا لو جلست معنا برهة . ولكنك ترى من المزاحمة فيها والمنافسة بين الحاضرين في الغرام بها والغرم عليها ما يجعل نيل الغرض متعسراً ودرك الطلب متعذراً (العمدة) - أما المزاحمة عليها فان لنا من مهارتك ونباهتك ما يقرب الأمل بالوصول اليها وأما المنافسة في الغرم عليها فالأمر مستدرك والدرام موجودة

(التاجر) - ما أشك بعد هذا في نيل الغرض وقضاء الوطر وستنتهي ليلتنا بمسك الختام

قال عيسى بن هشام - ويدعو الخليعُ خادم المرأة ويهمُّ بإعطائه شيئاً من الدراهم فيسابقه التاجر فيمنعهما العمدة ويقوم مقامهما فيلقى الخليعُ في أذن الخادم قولاً ويطول الخطاب بينهما همساً ثم يذهب الخادم فيعود مولاه تته تته دلالاً وتشتي اختيالاً وتبدي الرضى من

خلال التمتع فتسلم على أهل المجلس وتخص الخليع بابتساماة وتجلس بجانبه وتسأله عما جرى في المجلس بعد انصرافها عنه بالامس فيقطع عليها هذا الحديث بالقهقهة ثم يبدأ بعقد التعارف بينها وبين العمدة ويطنب لها في علو شأنه ورفعة مقامه فترحب به فيرفع العمدة يده الى رأسه مراراً تشكراً لها فتلمح فص الخاتم يتألق في إصبغه ويتوهج فتضع يمينها في يمينه وتجرها اليها ترصد الحجر فيسيل الرجل طرباً وابتهاجاً ويعتقد أنها كلفت به حباً وغراماً فلا يروعه الا أصوات الأئمة ينزعها الغلام عن الزجاجات تباعاً وكلما أفرغ أربعاً عاد بأربع حتى هال التاجر من ذلك ما هاله فمال الى الخليع يناجيه فسكن الخليع من روعه وأزال الهواجس عنه. فيميل التاجر الى الاقداح يسكب ويشرب والى المرأة يهازل ويغازل ويعاطى ويناول والعمدة على حاله باهت شاخص ومتولع بمنوله والخليع مسرور مبتهج . لا يرسل الكأس عن فيه . الا ممسكاً بأخيه . والمرأة تخدع وتكيد . وتقول للغلام هل من مزيد . ثم يخرج العمدة ساعته من جيبه ويتشاغل عن النظر اليها بالحديث فتقبض المرأة عليها تتمنئ فيها وتقول له قد آن أوان الانصراف وحانت ساعة الختام . وتقوم مودعة فيتلف العمدة ويتحسر ويسألها ان تتم جيلها بالبقاء معه بعد

الانصراف في مجلس آخر فتضحك له ضحكة القبول وتلطم الخليع بالمروحة على خده وتنادرهم الى صاحب الحان فتجلس معه . ويأخذ الناس في الانصراف والخدم في رفع الكراسى وإغلاق بعض الابواب ولا يبقى في المكان غير أصحاب الوعد من العاهرة : ذلك الحاكم الوامق . وذلك الغلام الوارث . وذلك الشيخ المتصابى . وهذا العمدة المغرور بتاجره وخليعه . فاذا طال عليهم الانتظار ويئس الواحد بعد الآخر من صدق الوعد عمدوا الى الانصراف يصحبهم الهمة ويرافقهم الكدر الا العمدة فانه يلح في الانتظار لشدة مابه من سكر الهوى وسكر الخمر :

سُكران سكرُ هوَى وسكرُ مُدامة * ومتى يفيق فتى به سُكران
ويقصد المرأة في مكانها عند صاحب الحان وهو يتعثر في مشيته ويجرر في عباءته فيقف بين يديها يستنجزها الوعد فتغضى عنه فيلح عليها فتلج في الإعراض فيخرج من جيبه كيس الدراهم ويبسط به راحته راجياً متضرعاً فتظهر له الجفوة فتشدد به الصبوة فيتراعى عليها فتدفعه برجلها عنها فيقع على الارض فينتثر مافي الكيس فيعمد الخليع لالتقاطه فيسبقه اليه صاحب الحان . ويتمائل العمدة واقفاً فيمديده الى المرأة فيأخذ

بضفيريها يجذبها نحوه فتسبه وتلعنه وتمسك بصاحب الحان ويستمر
العمدة في الشدة والجذب فتخونه الضفيران فيرتمي على ظهره طريماً
وهما في يده والمرأة باقية في مكانها تصيح وتستغيث . فينقض من
أقصى المكان رجلٌ رث الهيئة قبيح الطلعة وسخُ العمامة يرفع في
يمينه هراوة ويتأبط في شماله صرة ثياب فيقع على العمدة ضرباً بالهراوة
ويدفع العمدة عن نفسه ضرباً بالضفيرتين ويتوسط بينهما التاجر
فيسأل الرجل عما يعنيه في الأمر فبقول له إنه زوج المرأة وإنه
يدافع عن حريمه ولا يرجع عن غريمه فيتعرض له التاجر يمنعه عن
الفتك بصاحبه فينصحه الخليع بالرجوع عنه لان الرجل من أهل
الحماية وفي التعرض له إلقاء باليد الى التهلكة فانه فوق القانون يحجى
ولا عقوبة عليه . فما يسمع العمدة هذا القول حتى يستنجد بالخليع
لينقذه من بلائه فيتقدم الخليع فيكلم الزوج طوراً والحليلة
تارة وصاحب الحان أخرى فينتهي النزاع بينهم على أن يترك العمدة
ما التقطه صاحب الحان من دراهمه مرضاة المرأة عن إهانتها وعوصاً
لها عن خسارة الضفيرتين . ثم يقوم صاحب الحان وينادى غلامه
وهو مشتغل باطفاء الانوار فيسأل عن حساب العمدة فيكونه له
فيلتفت الى العمدة قائلاً :

(صاحب الحان) للعمدة - والآآن فادفع لنا ثلاثة عشر جنيهاً
نمن المشروب وانظر ماذا تعطينا من العوض فى تعطيل المحل بهذه
الافعال الصبائية

(العمدة) - ماهذه الحسبة وما هذا الكلام

(صاحب الحان) - أما الحسبة فصحيحة وأماما أثبتة فانه لا يليق
بمقامك وأنت رجل من أهل الوجاهة والرفعة ولكنها الخمر أم
الشروع وإن خالها الشارب أم السرور وما كان لك ان تتعلق بهذه
المرأة المشهورة بتمتعها على أهل التنافس فيها والنساء غيرها كثيرات
فى المحل وإن كان لابد لك منها فأنا أسعى فى الصلح بينكما عند
تسريفك المحل فى الليلة الآتية وأرجو أن لا تتوقف فى دفع هذه
الحسبة الصغيرة فانى لأرضى لك الاهانة ولا ترضى لنفسك الفضيحة

(العمدة) للتاجر - هل عندك مانسدد به هذا المبلغ

(التاجر) - لا وحق العشرة وحرمة الصحبة . فلم يبق معى

من الدراهم لا قليل ولا كثير

(العمدة) للخليع - دبرنى يا صديق فى أمرى وانظر لى طريقة

الخلاص

(الخليع) - يعزّ على والله مانحن فيه ولكن عزّت الحيلة ولو كان

صاحب الحان يقبل منى ساعتى هذه رهناً على هذا المبلغ لرهنتها عنده
ولكنه ربما استضعف قيمتها عن قيمة المطلوب ولو كان فى الوقت
سعة لذهبت لاستحضار النقود بأية طريقة كانت

(العمدة) - ان كان الأمر ينقضى بالرهن فهذه ساعتى أئمن من
ساعتك وهى عندى أعز على من روحى لأنى أخذتها هدية من
دائرة البرنيسيس يوم بعث لها أطيافها وعليها حروف اسمها منقوشة
وقد قدّرها لى الجوهري بخمسين جنيهاً

(الخليع) - ان كان الأمر كذلك فلا يليق رهنها وعندك الخاتم
ترهنه مكانها

(العمدة) - هذا هو الأصوب وان كان الخاتم أغلى من الساعة
قيمة . نأخذها يا حضرة الخواجه رهناً عندك حتى أسدد لك المطلوب
فى الغد

(صاحب الحان) - أنا لا آمن لهذه الفصوص المائة فقد غشونى
فيها مراراً بأحكام التقليد فى صناعتها وليس هنا الآن من أثق به
من أهل الصناعة ليكشف لى عن حقيقة هذا الفص

(التاجر) بعد أن يمعن فى الفص - كيف تقول ذلك وهو من
الاماس القديم وقيمه لا تنقص عن مائة جنييه وأنا مستعد لرهنه

عندى على خمسين جنيتهاً فانتظرنى ريثما أذهب الى محل مبيتى وأرجع اليكم بالبلغ

(صاحب الحان) مكفهرًا - ليس عندى وقت للانتظار فقد ضى الميعاد المقرر لاغلاق المحل وهذا جندى البوليس واقفٌ أمامنا يتعجلى فى مطاوعة أوامر الحكومة

(الجندى) - نعم مضى الميعاد ولا بد من الإغلاق حالاً فانظروا معكم شيئاً آخر للرهن يُفَضُّ به هذا المشكل (الخليع) للعمدة - أعطه الساعة فلا حول ولا . وليس هناك ما تخشاه عليها فاننا نستخلصها غداً بعد أن تقابلنى فى الصباح بقهوة الموسيقى

(صاحب الحان) بعد التأمل فى الساعة - هذه الساعة لا توفى قيمة المطلوب وحدها فاترك الخاتم معها أيضاً (العمدة) - هذا لا يصح مطلقاً فان المبلغ المطلوب لا يزيد عن ثلاثة عشر جنيتهاً على فرض صحته

(الخليع) - مادام العزم أكيداً على فك الرهن غداً فسيان رهن قطعة أو رهن قطعتين وأنا أرجو الخواجه ان يتجاوز لنا عما يطلبه من العوض فى تعطيل المحل

(صاحب الحان) - انى أتجاوز عنه لاجل خاطرك

قال عيسى بن هشام - ويشدد جندى البوليس فى طلب الإغلاق
فى الحال فلا يسع العمدة الا التسليم فى الخاتم والساعة . وبينما الجميع
يتأهبون للخروج والمرأة واقفة تهزأ وتسخر اذ دخل رجل قبيح
الخلق جهم الوجه عريض القفا جاحظ العينين واسمع المنخرين
أهترت الشدقين فأخذ يجيل فى الحاضرين بنظر ديمناً وشمالاً ثم
تقدم الى المرأة فسبها ولعنها ولطمها ولكمها وقال لها قد فات الوقت
ومضى الميعاد وأغلقت الحانات وأنا قاعد فى انتظارك بالبيت وأنت
واقفة هنا تلعين وتسخرين فأين هذا الصيد الذى أهلك عني
وأنسأك أمرى يا عاهرة . فتجيبه مع الذل والانكسار بأنها أخطأت
ولكن لها العذر فقد وقعت حادثة مع بعض العمدة يشهد بها
الحاضرون : ونذكر له ما كان من هجوم العمدة عليها ونزع صغيرتها
فيشهد زوجها مع خادمها بتفصيل الواقعة فيزجر الرجل ويتوعد
ويعمد للحاق بالعمدة وهو يعدو نحو الباب فتستعطفه الفاجرة
وتطلب منه ان لا يكدر على نفسه صفاء الليلة بالوقوع فى مخاصمة
أخرى وتطلب منه الاسراع الى البيت فى صحبتها
وخرجنا مع الباشا نتعوذ من كيد النساء . ونأسف على وقوع

الرجال في أشراك المكر والدهاء . وكيف نزل العمى بهم والجهل .
حتى يستسلموا لهذا الخدع والختل . ويخرجوا عن مثل هذا المكان
الدنيء . والموطن الرديء . وقد خرجوا من الثروة والشرف . ودخلوا
في أدوار البؤس والتلف . ونزلت بهم أنواع المرض والسقم .
وانهملت عليهم ديم الأحزان والنقم . ثم التفت الباشا الى
الصديق . يسأله في أثناء الطريق :

(الباشا) - ألا تخبرني أيها الناقد الخبير كيف يصبر مثل هؤلاء
الناس على الإقامة في هذا المكان وكيف يترددون عليه ليالي
متتاليات ولا يدركون ما يدركهم فيه من الهلاك والوبال وقد كاد
يُقضى على الإقامة فيه بضع ساعات . فإِذَا جَارُ الضَّبْعُ وَمَاعُشُ الظَّرْبَانِ
وماقبر الميت - يرحمنا الله وإياك - بأتن رائحة ولا أقدر مكاناً ولا
أسواً مقاماً من هذا الذي كنا فيه

(الصديق) - يصبر الناس على الإقامة في هذا المكان ويكثرون
من التردد عليه بحكم التدرج وإِلفِ العادة وقوة التماهى وكأَنَّمَا
أبدانهم تتلقح شيئاً فشيئاً باسمه فلا تحس بضرره وألمه كالمرضى يذهله
المُرْقَدُ عن ألم الداء وبتر الأعضاء وإن شئت فكله ندى يتدرج
ويرتقى في تناول الأفيون وهو سقم قاتل حتى ينتهي بجسمه الى حالٍ

لو لسعته معها عقرباً أولسبته حية لم يؤثر سمها فيه

(الباشا) - أفدت بما شرحت . وقد بقي عليك ان تفسر لي ما أشكل على من أمر الرجلين مع الماهرة أحدهما الذى يقول إنه زوجها والثانى الذى أخذت بيده أمامه الى بيتها

(الصدىق) - أما الزوج فانه رجل من سفلة المغاربة المتعبد الى دولة أجنبية تحميه من سلطة القوانين المصرية أن تناله عند مخالفتها وهذه المزية هى التى تؤهله عند العاهرة للتأهل به فتدخل حينئذ فى حمايته وتخرج ببركته عن دائرة المحاكم والمقوبة اذ أتت فى فسقها وفجورها ما يخالف أوامر الحكومة . ويعيش الرجل معها زوجاً بالاسم وذئباً بالفعل وذلك فى مقابلة شئ من الدراهم يتناوله منها فى كل ليلة . وهذه الطريقة قد تألفها الناس ولم تقتصر على العواهر بل تعدتهن الى أرباب القضايا وأصحاب الجرائد فترى صاحب القضية يتنازل فى الظاهر عن قضيته الى أحد أولئك المسخرين من رعايا الدول الاجنبية ليخرج بها من نظام المحاكم الاهلية الى نظام المحاكم المختلطة إن ترجع لديه نجاح قضيته فيها . وترى صاحب الجريدة الذى يزعم أنه الواعظ المرشد بين الناس الى محاسن الاخلاق وغرر الفضائل يضع على جريدته اسم الواحد منهم بأنه هو المسؤول

عما يُنشر فيها ويُطبع ثم يملؤها بما تسوّله له نفسه من الطعن على أولياء الامور وأرباب الحكومة وأشرف الناس ويسود صحيفته بكل فاحش من القول وبذىء من الكلام فاذا عوّل أحد الناس على محاكمته يوماً من الايام وآرى وجهه عن المحاكم بوجه الاجنبى وقال لك : ماذمّ الامراء ولا هجا الاشراف ولا طعن فى الناس الاّ صاحب الاسم المسؤول فعليك به . فاذا التمسته وجدته بائع نعال يصفق بها فى عرض الطريق وينتسب الى دولة من اكبر الدول الاجنبية يتمتع بحمايتها من سلطة المحاكم والقوانين المصرية ولا سبيل الى محاكمته الاّ فى بيت القنصل . وقوأس القنصل ينصر أخاه ظالماً أو مظلوماً ناهيك بالقنصل نفسه

وأما الرجل الذى سحبتة القاهرة بيدها الى بيتها فهو صاحب ودها وحيب قلبها تفضله فى آخر ايلها على كل رجل يتعلق بهواها ويبذل نفسه فى سبيل رضاها ولا تعجب من سوء معاملته لها وشدة غطرسته عليها فذلك مما يزيدا فيه حباً ويولعها به شغفاً . والنفس الدنيئة الحقيرة لا تميل الا لمن يبادرها بالاهانة والنجس ولا تنقاد الا لمن يتناولها بالضر والاذى . فهو يضربها ويؤذيها على ما شهدت ورأيت ثم يتمتع بها دون التهالكين عليها وينتفع بما تجمع له من

أموالهم لفضل هذا الوحش الضاري عندها على تلك الدواجن التي تدبّ حولها

(الباشا) - لاشك أن في هذا نوعاً من الجزاء لهذه البغى على
بغيتها في الناس وسلبها للاموال وفتكها بالارواح وقلّ لمثلها هذا
الجزاء المعجلّ في الدنيا قبل العذاب المؤجل لها في الآخرة

(الصدّيق) - لا تستهيننّ أيها الأمير الجليل بما ينال مثل هذه
الماهرة في دنياها من الجزاء فانهم جميعاً في معيشة كلها هموم
وأدواء ومن تأمل في حقيقة أحوالهم خفف من سخطه عليهم
ووجد من أحق بالشفقة من القسوة . فان هذه الاموال التي ينهبونها
والأسلاب التي يسلبونها لا تلبث في أيديهم الا ريثما ينفقونها في الحلى
والحلل . والماهرة لا تنتهي حاجتها من الزينة ولا تخلو من حبيب
تكفله وخليل يقوم عليه فهي على الدوام في عسر شديد ودّين ثقیل .
وإن جميع ما عليها من الحلىّ والجواهر وما يتألق في عنقها من القلائد
وفي معصمها من الاساور وفي رجليها من الخلاخل إنما هي كلها في
الحقيقة أغلال وقيود يسحبها بها الصائغ والجوهرى في أسير
لا فكّ لك لها منه طول الحياة . وهي كما رأيت تقضى ليلها الى الصباح
في شرب السّموم من الخمر وفي تحريك الاعضاء والأحشاء بتلك

الحركات المنهكة لِقُوَى الأبدان وفى اشتغال الفكر بمراقبة الناس
وتكافؤ التعجب اليهم وفى التفتن للتحايل عليهم ثم التعرض لسوء
المنازعات والمخاصمات مع دوام التذلل والخضوع لصاحب الحان .
فاذا انتهت من ذلك كله وصلت الى بيتها منجلة الاعضاء مفككة
المفاصل فترتمى على فراشها كالرمة فى مكان هو أفذر من ذلك الحان
وأفسد منه هواء وربما لم تذق فى يومها طعاماً ولم تتناول فى ليلها
غذاءً فاذا قامت من نومها بعد نصف النهار قامت كالذى يتخطه
الشیطان مصدعةً مخمورةً لا نشهى طعاماً ولا تسبیغ شراباً حتى اذا
تماسكت قليلاً بادرت الى اصلاح الفاسد منها ومدارة القبيح فيها
بأنواع الزينة واللباس وقعدت لمقابلة زائريها الى أن يدخل عليها المساء
فتعود لما كانت عليه . لا تزال المسكينة هكذا دائرة فى حلقة من
التعب والوصب ولا خلاص لها منها الا بحلول الأمراض والأوجاع
ثم يقضى عليها وهى فى المعصية بعيدة عن ذوى الحنو والاشفاق
من الاهل والاقارب وذلك هو البلاء العظيم والعذاب الاليم
قال عيسى بن هشام - وما راعنا فى طريقنا الا صوت الديك
يؤذن بالصباح . وصوت المؤذن يؤذن حى على الفلاح . فأسرعنا
نطلب مأوانا . ونذكر أم مشوانا . ونحن نسأل رب الأرض

والسموات . أن يغفر من ذنوب المسلمين والمسلمات



قال عيسى بن هشام - ولما ارتفع وجه النهار أوكد ومسحنا عن
النواظر كل الرقاد . بادرنا كل الإبدار . بالخروج من الدار . لنلحق
بأولئك الرفقاء . في المكان المعين للقاء . فقصدنا « قهوة القراز »
فوجدناها تملج بالداخلين . وتضطرب اضطراباً بالواقفين والقاعدين .
فوقفنا برهة نرسل النظر إرسالاً . ونصفح الوجوه يميناً وشمالاً .
حتى اهتدينا الى الصديق جالساً جلوساً عن جانبيه . ورأينا العمدة
جالساً بجانبنا مع صاحبيه . فاذا العمدة يئن تحت الهموم المتقاطرة .
من سواد ليلته الغابرة . حيث ناله فيها من الهوان ماناله . وأضاع
تحت أقدام الراقصات شرفه وماله . ورهنَ مآزهن من حلية
ومتاع . من غير لذة ولا استمتاع . فهو متخاذل متضائل . « له شقٌّ
مائل . ولونٌ حائل . ولعاب سائل » . وسحنة مغبرة . وأناملُ
مصفرة . وجفون محررة . وأحداقٌ جامدة . وأعضاء هامة .
ورأس متصدعة . وأنفاسٌ متقطعة . يفتح تارةً فاه . ويحكّ طوراً
في قفاه . فيخاله كل من يراه . نضوء سفرٍ أضناه السرى وبراه .

أَوْ حَافَفَ تَسْخِيرَ أَذْمَتِهِ الْعَصَا وَالْهَبْهُ السُّوْطَ . لِيَبْلُغَ مِنْ جَهْدِ
 « السَّخْرَةِ » مَنْتَهَى الشُّوْطِ . وَإِذَا التَّاجِرُ بِجَانِبِهِ يَقْلُبُ حَدَقَتَيْهِ .
 وَيَتَجَلَّبُ بِشَفَتَيْهِ . وَيَصْعَدُّ أَنْفَاسًا كَالْحَرِيقِ . فِي مِيزَابٍ مِنَ الرِّيقِ .
 كَأَنَّهُ ذَنْبُ يَهُمُّ بِالْعِشْيَانِ . وَيَخْشَى صَوْلَةَ الرُّعْيَانِ . أَوْ صَائِدٌ يَخَافُ
 أَنْ يَخُونَهُ كَيْدُهُ . وَيُقَلِّتُ مِنْهُ صَيْدَهُ . وَالْخَلِيعُ بَيْنَهُمَا يَطْرُقُ بِرَأْسِهِ .
 وَيَكْتُمُ مَا فِي نَفْسِهِ . مَتَفَكِّرًا يَنْكُتُ الْأَرْضَ بِعَصَاهُ . وَيَحَاوِلُ أَنْ يَبْلُغَ
 مِنَ الْغَرَضِ أَقْصَاهُ . دَائِبًا يِيرِمُ الْخَدِيدَةَ وَيَهْيِي الْعُدَّةَ . لِبَسْقِطِهَا عَلَى رَأْسِ
 التَّاجِرِ وَدِمَاقِ الْعَمْدَةِ . وَرَأَيْنَا هُنَاكَ مِنْ دُونِهِمْ نَفَرًا . لَا يَحْوِلُونَ
 عَنْهُمْ نَظْرًا . كَأَنَّهُمُ الطُّيُورُ الْجَارِحَةُ . تَتَرَقَّبُ حِمَامَةَ سَانِحَةٍ . فَاسْتَخْبَرْنَا
 مِنَ الصَّدِيقِ . عَنْ شَأْنِ هَذَا الْفَرِيقِ . فَقَالَ هُمْ جَمَاعَةٌ مِنَ الْفَتَى الْبَاغِيَةِ
 الْمَاكِرَةِ . وَالطَّائِفَةِ الرَّابِحَةِ الْخَاسِرَةِ . طَائِفَةُ الْوُسْطَاءِ وَالسَّمَايِرَةِ .
 وَشَاهَدْنَا الْخَلِيعَ يُوحِي إِلَيْهِمُ بِاللَّحْظِ وَالنَّظَرِ . كَأَنَّهُ يَمَاهِدُهُمْ عَلَى
 النَّجْحِ وَالظَّفَرِ . ثُمَّ سَمِعْنَاهُ يَقُولُ لِلْعَمْدَةِ تَهْوِينًا لِأَمْرِهِ . وَتَيْسِيرًا عَلَيْهِ
 مِنْ عَسَرِهِ :

(الْخَلِيعُ) - لَا تَهْتُمِ يَا مُوَلَايَ وَلَا نَعْتَمُ فَالْخَطْبُ أَهْوَنُ مِمَّا تَبْظُنُ
 وَالْأُمُورَ بِأَمْرِ اللَّهِ مَيْسِرَةٌ وَالْحُلُجَاتُ بِإِذْنِهِ مَقْضِيَةٌ
 (التَّاجِرُ) - إِنْ كَانَ التَّيْسِيرُ مِنْ جِهَةِ الْاِقْتِرَاضِ ، فَأَنَا لَا أَتَصَوَّرُ

أن أرباب الاموال يقرضون اليوم أحداً بدون التوثق من الرهن لزوال الثقة بين الناس في هذا العهد عهد المما كسة والمضاربة . وفي هذه الحالة أرانى أولى الناس بتأدية هذه الخدمة لصاحبي فانى له أرجح جانباً وأرجح معاملة وأنقص فى قدر « الفائدة » من سواى

(العمدة) - لا أرى فى ذلك من بأس لو كان فى الوقت سعة وفى الحالة مهلة تسمح بما يقتضيه إجراء الرهن من الكشف والمعاينة والتحديد والنقويم والتقدير والتحرير والتقييد والتسجيل الى غير ذلك

(الخليع) - ولا تنسَ ما يكون وراء ذلك من سوء السمعة وقبح الشنعة بين الاهل والجيران . وصدقَ من قال : « بيع الشئ خير من رهنه . والرهنُ بيعٌ وغبنٌ » وأنت بحمد الله لك صيت بالغنى وشهرة بالثروة وأناضمن أن توقيعك وحده يكفيك مؤونة الرهن عند الاقتراض

(التاجر للخليع) - ما أحسن هذا لو أنه يتم ولكن لا تنسَ أنت أيضاً ما قيل : « ان الذى يقرضك على الشهرة والسمعة . لا بد أن يأخذ فائدة شهر فى جمعة . » ولن يخاطر أحد من أرباب

الاموال بماله من غير رهن الاّ من ضمن لنفسه الفائدة الجسيمة والربح الطائل

(الخليع للتاجر) - ما بالك نعسر علينا في الامور مع إمكان تيسيرها .
ولا يأخذك شكّ في ما أقول فأنا أضمن الحصول على القرض في
هذه الساعة في هذه القهوة في هذه الجلسة . ولا محل للتخوف من
جسامة الفائدة ما دام وقت الحصاد قريباً والتسديد عتيداً

(العمدة للخليع) - هكذا يكون التسهيل والتيسير بين الاصحاب
والاصدقاء وهكذا تكون محاسن الشيم يا ابا المكارم والهمم
(التاجر) - قد قلت ما عندي وكل انسان حرّ في عمله

(الخليع للعمدة) - قل لي كم تريد أن يكون مبلغ القرض
(العمدة) - يكفيني على ما أظن مقدار مائة جنيه لسد الحاجة
في الحالة الراهنة

(الخليع) - هذا التقدير ضعيف وماذا ينفع مثل هذا المبلغ القليل
وبماذا يفيد عليك قبل كل شيء تسديد مال صاحبنا هذا في ذمتك
من الدين ثم يتبعه مال صاحب الحان لفكّ رهن الساعة والخاتم .
وأضف الى ذلك ما يلزم لك من المال لتأجير البيت الذي تريد
سكنه في حلوان وما يتبعه من أثمان الفرش والاثاث . هذا غير

ما يجب ان يكون فى يدك للبذل والانفاق فى اوقات الانس والطرب وانت بلا شك فى حاجة عظيمة اليها بعد كل هذا التعب والكدر فلا بد لك حينئذ من اقتراض مبلغ خمسمائة جنيهه على الاقل سيما وأن أرباب الاموال الذين أعرفهم لا يقرضون أقل من هذا المبلغ ان كانت مدته قصيرة

(وهنا يومئ الخليع الى جماعة السماسرة بالحضور فيتقاطرون عليه فيهمس فى اذن أحدهم كلاماً ثم يجهر لهم بالخطاب فيقول) :

(الخليع) - اعلموا ان سعادة البك هو العمدة فلان الفلانى من كبار المزارعين الذين يمتلكون من الاطيان والعقار ما هو معروف مشهور ولم يسبق له اقتراض مال قط وليس عليه دين مطلقاً واطيانه واملاكه خالصة له بلا منازع ولا مشارك وقد حلت به ظروف استنفدت جميع ما كان يحمله معه للانفاق فى مدة وجوده بالقاهرة وهو الآن فى حاجة الى اقتراض خمسمائة جنيهه يقوم بتسديدها فى اوان الحصاد الآتى ولست أرى له ان يقترض مثل هذا المبلغ الزهيد بالرهن من أرباب المصارف الكبيرة لما يجرى عندهم من طول التحرى والتنقيب وتضييع الوقت جهلاً منهم بحالة أعيان البلاد (أحد السماسرة) - مرحباً بسعادته مرحباً . وما هو بالمجهول

عندنا فإننا نعرفه كلُّنا بما وصفتهُ من شرف البيت وسعة المال زاده
الله منه . وكان للمرحوم والدى مع المرحوم والده معاملة قديمة وصحبة
أكيدة . وطالما سمعت من والدى وأنا صغير السن أنه لا يوجد بين
أعيان الفطر مثل المرحوم فى الصدق والامانة وكرم الخلق وسماحة
النفس . ولـسـكنـكـ لعلم ان الدراهم عزيزة المنال فى هذه الايام وقل
من يخاطر بقرض هذا المبلغ من غير رهن يوازيه أضعافاً مضاعفة
ولو كان الامرلى وحدى لَمَا تأخرت عن اجابة الطلب بدون ميثاق
أو رهن أو فائدة اكراماً للصحبة القديمة بين والدينا وتوثيقاً لعرى
الحبة بيننا ولـسـكنـ شريكى فى الاشغال رجل متفرنج من أبناء هذا
العصر لا يعرف حقوق المودة القديمة ولا يرضى بقرض المال الا اذا
كان مستجماً للشروط القانونية . ومع ذلك فأنا أعمل معه جهدى
وأترضاه بضمانى أولاً وبشريف مقدار « الفائدة » ثانياً فان اتفقت
معى على أن تكون الخمسمائة بثمانمائة الى وقت الحصاد باشرتُ معه
الامر وقت بالخدمة الواجبة على لسعادة البيك

(التاجر) - سلامٌ قولاً من ربِّ رحيم . أيكون مقدار الربا

فوق مقدار نصف القرض ماسمعنا بهذا فى آبائنا الاولين

(السمسار للتاجر) - لعل مولانا من المجاورين بالازهر الشريف .

فانه لا يستعظم مثل هذه الفائدة في الاحوال الحاضرة الا لمن يعتقد بتحريمها . على أن الربا محرّم عندنا أيضاً كما هو محرّم عندكم ولكن « الضرورات تبيح المحظورات »

(العمدة) - حضرته ليس من المجاورين بل هو من التجار المشهورين

(السمسار) - اذا كان حضرته من التجار فلا بدّ أن يكون واقفاً على ضيق الحال وقلة المال وكساد السوق وعالماً بمقدار الفائدة في قرضٍ من غير رهن . ثم إنه لا يجهل في الاشغال تكاليف المشاركة والمساهمة والمقاسمة ان شاء الله

(التاجر) - نعم نعم ولكن يجب إنقاص مبلغ الفائدة على كل حال فان أنت رضيت بأن يكون مبلغ الخمسمائة بسبعمائة وخمسين رضيتُ أنا لسعادة العمدة بالاقتراض منك وحكمتُ بذلك عليه

(السمسار) - ما أصعب المعاملة مع التجار . وما دمتَ حكمتَ حكمك فلا مردّ له عندنا وما علينا الا الطاعة والقبول إكراماً لسعادة البيك ففضلوا بالذهاب معي الى المحل على بركة الله لإتمام الامر مع شريكي

(الخليع) - لاحاجة الى ذهابنا جميعاً ويكفي أن يذهب معك

سعادة اليك وحده فان المسألة صارت بسيطة ونحن نمكث هنا في الانتظار

قال عيسى بن هشام - وقام العمدة مع السمسار وأقننا جالسبن في مكاننا نتشاغل بالحديث مع الصديق ونستفيد من واسع علمه أموراً شتى مسافة من الزمن واذا بالعمدة عائداً وحده مقطب الوجه منقبض النفس فأسرع الخليع والعمدة الى لقائه واستخبره عما جرى له (العمدة) - لعن الله الحاجة والاضطرار . وما كان أغنانا عن هذا الخراب والدمار

(الخليع) - وماذا وقع بك ودهمك . هل خاب الامل في عقد القرض أم عقده وسُرقت منك الدراهم (العمدة) - لم تُسرق كلها بل نصفها (التاجر شاهقاً والخليع محملاً) - وكيف كان ذلك

(العمدة) - ركبت مع الرجل وذهبنا الى محل شريكه فأجلسني هناك ناحية وكتب الصك وختمته ثم إنه انفرد بشريكه يناقشه ويجادله ثم عاد الى عابس الوجه يقول لى إن الامر متعذر متعسر وإنه بذل كل ما فى وسعه من طرق الاقتناع والرجاء ليقبل شريكه بقرض المبلغ فلم يقبل ولم يتحول عن رأيه . ثم أخذ يظهر لى أنواع

التأسف والتوجع لخيبة مسعاه ويشير على بالصبر أياماً حتى تنفرج
 الشدة وتنقضى الازمة . فأريته شدة مابي من الحاجة الى الدراهم في
 هذا الوقت وليس في الاستطاعة تأجيل الاقتراض وهممت بالرجوع
 اليكما لترشداني الى باب آخر يأتي بالتيسر المطلوب فدنا مني شريكه
 عند ذلك وقال لي يعزّ عليّ والله ان أردك خائباً وأرفض رجاء شريكي
 ولكنك تعلم مقدار العسر والضيق الذي لحق بهذا القطر في هذا
 العام من كساد الموسم وانخفاض النيل وانتشار الدودة وكثرة
 المضاربات وظهور الأوبئة والطواعين . وانا أقسم لك بشرفي ودمتي
 وأولادي انه لا يوجد في محلنا من الدراهم الآن سوى اربعمائة جنيهه
 هي أمانة عندى لطفل يتيم من أقاربنا نستغل له في استثمارها بكل
 احتراس واحتياط وأنا أضنّ بها وأحرص عليها أشد من حرصى
 على أموالى . ومع ذلك فقد افكرت طويلاً وعولت على أن أضعها
 بين يديك لشرف مكانتك عندنا وحسن سيرتك وجعلتها أول خدمة
 جلية تقدمها اليك . فأسرعت الى قبولها مع الشكر والامتنان
 فأخرج صرة ووزن ما فيها من الذهب ثم سلّمه الى فعدده فوجدته
 اربعمائة تماماً ثم وضعتها في جيبى وطلبت منه تغيير الصك لأن المبلغ
 للمسمى فيه يزيد مائة جنيهه عما قبضته من الذهب فتلكأ في الاجابة

واعتذر الىَّ بأن فرق ما بين المبلغين يبقى عنده بعضه لربح اليتيم
وبعضه لنفقات القضية من رسوم وأتعاب محاماةٍ ان وقع منى تقصير
فى التسديد عند الميعاد لاسمح الله كماهى العادة السائرة اليوم . فهاأنى
الأمـر ونبذت الدراهم وطلبت منه ان يردَّ لى الصك فى الحال فلم
يلتفت لقولى واشتغل عنى بالكلام مع بعض الوافدين اليه وأنا
مقيم على مثل الجبر وكما أشرت اليه بإشارة من بعيد ليكملنى لوى
وجهه عنى وأظهر الاشمئزاز منى فتفقدت السمسار الشريك داخل
المكان وخارجه فلم أجده أثراً فاشتدَّ بى الكرب وحرقتنى الغيظ
فلم أتمالك نفسى وهجمت على صاحب المحل فأمسكت بتلابيبه أطلبه
برد الصك فأظهر لى حينئذٍ من الملاينة والملاطفة ما حلَّ خناقه
من يدى وقال لى إنه لا يمنعنى عن إجابة طلبى إلا غياب الشريك
فان الصك كتب بحضوره ولا يجوز ان يسلمه الىَّ بدون علمه فعلىَّ
ان أنتظروا وبته . وبينما نحن على هذه الحال واذا بسعادة عمر بك
صهر مديرتنا قد دخل علينا فما وقع بصرى عليه حتى تراخت مفاصلى
خجلاً منه وحياءً أن يسمع مايجرى بيننا ويرانى فى مثل هذا الموقف
فتسقط منزلتى فى عينه وعين صهره فتقدمت اليه وسلمت فردَّ علىَّ
التحية بالتكريم والتعظيم فلحظ اللئيمُ صاحبُ المحل ما أنا فيه فانهز

الفرصة وقصّ على سعادة البيك قصتنا على حسب هواه وطلب حكمه في الامر . فقال له سعادة البيك لا يليق بك ان تتنازع مع حضرة العمدة فأنا أعرفه رجلا من عيون المديرية التي يديرها صهرى وله شهرة عظيمة بحسن السيرة وسعة الثروة . ثم التفت الى وقال : وأنت لا يجدر بك ان تخالف حضرة الخواجا وهو رجل مشهور بالأمانة وحسن المعاملة واذا كانت نقطة الخلاف في المائة جنيه التي حجزها عنده لنفقات القضية فأنا لأشك في أنه سيردها اليك بتمامها عند إيفاء الدين في ميعاده وأنت بحمد الله في ثروة لا يتصور معها التأخر عن التسديد وإن كنت لم تتعامل مع الخواجا الا في هذه الدفعة ولم تجرّب مقدار أمانته وحسن عهده فاني أكفل لك صدقه ووفاءه فاضطرت من كل الوجوه الى التسليم والاذعان وأخذت الدراهم وسلمت على سعادة البيك وقلت له عند خروجي : لا يظنّ سيدي أنني اقترضت هذه الدراهم للضرورة والعسرفان الامور ميسرة بفضل الله ونعمة الله وافرة على كما يعلمه سعادة صهركم المدير ولكنني وجدت فرصة لا نعوض في أثناء إقامتي بالعاصمة وهي مشترى أطيّان من أحد أولاد الذوات وهو في حاجة الليلة الى استلام العربون ولا يمكنه ان يمهني ريثما أستحضر له المبلغ من البلد فاضطرت

للاقتراض على هذه الصورة . فقال لى نِعَم ما تفعل وبارك الله لك فى البيع والشراء ثم إنه حملنى سلاماً وكلاماً لسعادة المدير وانصرفت وخلفته مقيماً مع الخواجا وحضرت اليكما ولم يدخل فى يدى من مبلغ الدين المسمى بسبعمائة وخمسين جنيهاً إلا أربعائة جنية فقط . فهذا معنى قولى لكما لم تُسرق منى الدراهم كلها ولكن سُرق نصفها قال عيسى بن هشام - وكنا نشاهد فى أثناء هذا الحديث رجلاً واقفاً على رأس العمدة ينتظر انتهاء من الكلام وهو يمدّ اليه يديه ويحرك شفطه فتبيننا من هيئته انه سائق المركبة يطالب العمدة بالزيادة فى قيمة الاجرة . ولما فرغ العمدة من كلامه بادره السائق بقوله : (السائق) - خلّصنا من فضلك ياسيدنا السيد فقد طال وقوفى وعطّلتنى عن شغلى

(العمدة) - أنا لا أعطيك شيئاً زيادة عما دفعته اليك فقيه الكفاية (السائق) - مَنْ يقول يا حضرة الشيخ ان خمسة قروش تكفى فى أجرة المركبة مسافة ساعتين تنقلت فى أثناءها من مكان الى مكان ثم عدتُ بك الى هذه القهوة . وأنا لا أبرح من مكاني حتى تعطينى الاجرة اللائقة بهذه المسافة وان كان الذنب من جهتي لانى قبلت أن تركب معى ورفضت ركوب الخواجا الذى استوقفنى قبل

ركوبك ظناً منى أنك من كبار العمدة الذين لهم تردد كثير على العاصمة ويعرفون مقدار اجرة المركبات ولكن ظهر لى الآن أن هذه أول مرة لك فى زيارة العاصمة وفى ركوب المركبات وجمعتنى أفضل برنيطة الخواجا على عمامة السيادة فلا حول ولا قوة الا بالله .
خلصنا ياسيدى

(الخليع للسائق) - اسكت عن هذا الكلام البارد وهاك قرشا
سادساخذهُ وانصرف

(السائق) - كن محضر خير يا حضرة الافندى واعلم اتى
لا أقبل زيادة قرش أو قرشين مطلقاً . فإما الاجرة الثلاثة وإما
الذهاب معى الى صاحب المركبة

(العمدة) - دونك قرشاً آخر فأتركنا واذهب لحالك

(السائق) - كيف أذهب وكيف أقبل سبعة قروش فى أجرة
هذه المسافات الطويلة مع طول الانتظار فهل تحسبها أجرة ركوبك
من هنا الى محل الخواجا أو أجرة انتظارى هناك زيادة عن الساعة أو
أجرة ركوبك من محل الخواجا الى دكان الكوارع وانتظارك
مسافة الاكل أو أجرة رجوعك الى هنا ووقوفك فى الطريق عند
بائع الفاكهة

(التاجر) - دكان الكوارع !! وبائع الفاكهة !!
«وَأَحَرَّ قَلْبَاهُ مِمَّنْ قَلْبُهُ شَبِمُ»

أهكذا يكون شرط الصحبة والوفاء تتركنا على الجوع وتنفرد
دوننا بالاكل ونحن معك لم نذق منذ أمس طعاماً

(العمدة) - ما أُلجأنى الى ذلك وحقّ الصحبة الا الجوع المفرط
واحتياج الجسم الى ما يقيمه فاني أحسست بالنور ظلاماً في عيني من
خلو البطن وأشهد أن الجوع كافر

(السائق) - ادركوني برحمتكم فهذا جنديّ البوليس يأخذ نمرّة
المركبة ليكتبها في المخالقات حيث خلفتها واشتغلت عنها بكم

(الخليع) - لقد صدّعتنا وشوّشت علينا فخذ هذا القرش أيضاً
وأنا أخلصك من جنديّ البوليس والأفاني أقوم الى « القسم »
وأرفع الشكوى لاجترائك علينا ولا تجدد في القسم من يرحمك

(السائق) - ما باليد حيلة أعطني ما تريد وقم اشهد عند جنديّ
البوليس بأننى في انتظاركم حتى أخلص من المخالقات والله يعوضنى
خيراً ولا يحكم علىّ بركوب أمثالكم مرة ثانية

(الخليع للعمدة) عانداً - قد انتهينا والحمد لله من جميع العقبات
فلننظر الآن في تدبير شؤوننا وهلمّ فادفع أولاً مبلغ الصك المطلوب

منك لصاحبنا هذا ثم ثنى بصاحب الحان لك الرهن ثم نثت
بمشتري المقتنيات اللازمة لك

(العمدة) - نعم لك ذلك وهذا هو المبلغ المطلوب لصاحبنا جزاه
الله خيراً

(التاجر) بعد استلام المبلغ - أستغفر الله فالفضل والشكر لك
على كل حال ولكن يتعذر عليّ ان أرد اليك الصك في الحال لأنني
تركته بالمنزل فالأليق ان تبقى المبلغ حتى آتيك به غداً

١٠ (الخليع) - سبحان الله ماهذه المعاملة التجارية بين الاصدقاء
الاوفياء وهل يجوز بينهم ذكر الصكوك والخطوط في معاملتهم فتقديم
الصك وبقاؤه عندك سيان مادام المبلغ تسدد لك ودخل في جيبك
(العمدة) - صدقت صدقت فليس بين الاخوان ما يدعوا للتوقي

والتحرس في مثل هذه الامور . وقوموا بنا الى صاحب الحان
(الخليع للتاجر) ضاحكاً - انظر اليه فلا يزال قلبه يحنّ وهواه
يميل الى سكان تلك المعاهد والديار

(العمدة) - أقول لك الحق . ان غيظي من معاملة تلك المرأة
القاسية شديد وحقني عظيم ولست أنسى ضروب تفننها في التدلل
عليّ والتمنع مني ولا أغفل عن تلك النظرات التي كانت ترسلها اليّ

بالتعطف والتلطف وأنا أسحبها من شعرها وبودى لو أراها مرة
ثانية فأوسعها عتاباً وأشبعها تأنيباً

(الخليع) مبتسماً - أنا فهمت غرضك وعرفت نيتك . تريد
من العتاب أن ينتهى بك الى العُتْبَى وتخرج بها من التعنيف الى
التلطيف وما ألدّ الرضى بعد الغضب وما أمتنّ الصداقة بعد العداوة .
لكنى أقول لك قول المشفق الناصح إنك مهما حاولت مع هذه المرأة
فلا يمكن أن يخلو لك وجهها بالليل مطلقاً لكثرة شغلها وازدحام
الحائمين عليها وانما رأى لك ان تلمسها نهائراً وتدعوها للغداء معك
في بعض جهات النزهة . وأنا أفضل نزهة الاهرام على سواها فانها
تكون هناك خالصة لك من دون الناس بمنزل عن العذال والرقباء
(التاجر) - ما أدقّ الحيلة وما ألطفَ الرأى

(العمدة للخليع) - لله درك فما حار من أنت حاديه . ولا ضلّ
من أنت هاديه . وهياً بنا الى الحان أولاً أفكّ الرهن
(الخليع) - ولعلنا نصيب خادم المرأة هناك فترسله اليها بعرض
التماسنا . ولا شك عندى فى إجابة سوئلنا

(العمدة) - نعم نعم وليكن الاجتماع بها غداً نخير البرّ عاجله .
(الخليع) - لك ذلك بكأ تأكد إن شاء الله

قال عيسى بن هشام - وقاموا ونحن نعجب من كيد الانسان للانسان .
بما لا يأتيه حيوان مع حيوان . ثم بادرنّا نحن أيضاً الى القيام . على أن
يكون الاجتماع غداً في الاهرام

*
* *

قال عيسى بن هشام - ولما وقفنا بنا الركاب في ساحة الاهرام .
وقفنا هناك موقف الإجلال والإعظام . قبالة ذلك العلم الذي
يطاول الروابي والأعلام . والمضبة التي تعلو الهضاب والآكام .
هي البنية التي تُشرف على رَضْوَى وشَمَام . وتُبلي ببقائها جدة الليالي
والايام . وتطوى تحت ظلالها أقواماً بعد أقوام . وتُفنى بدوامها
أعمار السنين والأعوام . خَلَقَتْ ثيابُ الدهر وهي لا تزال في ثوبها
القشيب . وشابت القرون وأخطأ قرنُها وَخَطُ المشيب . ما برحت
ثابتة تناطح مواقع النجوم . وتسخر بثواب الشهب والرُّجوم .
وتحدِّث حديث المشاهدة والعيان . ما تعاوَبَ الفَتَيَان . وتناوَبَ
الملَوَان . عن قدرة هذا الانسان . في بدائع الصنع والإتقان .
وتنبئ عن قوة هذا الضعيف الضئيل . في إقامة مثل هذا الاثر
الجليل . وكيف جاز لهذا الفاني البائد . أن يصدر عنه مثل هذا الباقي
الخالد . وجلَّ صنْعُ القدير الخالق . في تصوير هذا الحيوان الناطق .

حيث جعله مصدراً للأعمال المتناقضة . والأفعال المتغايرة المتعارضة
 فيننا تراه يصعد الى أجرام السماء وعوالمها . ويبحث بفكره في
 رسومها ومعالمها . ويسير بعلمه في أنحائها ومناكبها . ويهتدى
 لحساب أقمارها وكواكبها . اذ تراه يعثر عثرة برجله . فيكون
 فيها منتهى أجله . أو يكبو في طريقه . فيغصّ بريقه . ويهوى
 بإذن الله الى مكان الخلد . وهو طامع في شجرة الخلد . فهو
 ذاك الذى كبر وصغر . وعظم وحقر . وعزّ وذلّ . وكثر وقلّ .
 وصعد وهبط . وعلا وسقط . وصلح وفسد . وعرف وجحد .
 وسعد وشقى . وفنيّ وبقي . وسبحان القاهر فوق عباده

ثم انتقلنا من دور التفكير . الى دور التفسير . وانبرى الباشا
 يكشف عن ضميره . ويقول لنا في تعبيره :

(الباشا) - كنت أعتقد وأنا في سالف الاوان . ان هذه البنية
 لمصر تاجها الذى تفاخر به التيجان . وأعجوبتها التى تباهى بها
 الاقطار والبلدان . وشاهدتها الذى يشهد لها بالمدينة والعمران .
 ولكنى أراها اليوم بعد أن استضأت بنور العلم واهتديت بهدى
 العقل وبحث في حقائق الأمور أن لا مزية فيها ولا خير منها
 سوى انها أحجار مرصوفة . وجنادل مصفوفة . لا تمتاز عن جبل

من الجبال . أو تلّ من التلال . فهل تعلمان لها من معنى غامض
التوى على فهمه . أو سرّ خفيّ عزّ على علمه

(الصديق) - ليس لها على الحقيقة من سرّ خفيّ ولا من فائدة
بادية سوى أن بعض القدماء من أغبياء الملوك وطُغاة الولاة كانوا
يعتقدون بالرجعة في هذه الدنيا بعد المات وأن أرواحهم تعود ثانية
الى أجسادهم بعد أن تتنقّل مدة من الدهر في أجسام أخرى فكان
همهم في حياتهم مصروفاً الى حفظ أجسادهم من البلى بعد موتهم
في قبور مشيدة قائمة على الدهر لتعود اليها الأرواح بعد طول التنقل
والتطور مثل هذه الالهرام وخلافها . والناظر في الآثار المصرية
يحكم حكماً قاطعاً أن التقدم والتفنن في البنيان والتصوير عند المصريين
ينتهي كله الى المعابد والمقابر ولم يكن من أثر انتشار المدنية والعمران
كما يتوهمه الواهمون لأنهم كانوا فيما عدا ذلك على حال الخشونة
الأولى في المأكل والملبس والسكن فترى صور الملوك والأمراء
حفاة عراة فضلاً عن سائر الرعية وتجد قصورهم وبيوت مُلكهم
مبنية بلبن الطين كأدنى الاكواخ قانعين بذلك في جانب تسخير
الامة بأسرها في نقل الصخور ورفع الأثقال لا ببناء مثل هذا
البنيان واتخاذ قبراً لهم تُحفظ في جوفه أجسادهم بعد تحنيطها سالمة

من البلى الى يوم الرجعة - ولكن الى المتحف متحف الجيزة -
فتسخيرُ الامة المصرية وتعطيل أعمالها وتمزيق أبدانها وإهراق
دمائها وإزهاق أرواحها في بناء هذه الصخور إنما كان لفكرٍ
ساقط واعتمادٍ سخيف من ملك جاهل لفائدة له موهومة أو من
عمل كاهن مأكري لمنفعة له معلومة . ومثل هذا لا يكون فيه من
نخرٍ لمفخر ولا من عزة لمعتزٍ وما هو الا الظلم والغشم والضلال
والجهل . وما لهُذين الهرمين من معنى اليوم غير أنهما قائمان على
الدهر شاهدي عدلٍ على سابق الشقاء في الامة المصرية وما كانت
تقاسيه من فظاعة الذل والهوان ومرارة الاسترقاق والاستعباد .
ولو كان لأولئك الملوك أدنى لحة في باب ارتقاء المدنية والعمران
لكانت هذه الاحجار والصخور مرتفعة في بناء القناطر والجسور .
وتالله لَبَانِي القناطر الخيرية مثلاً في نظر الباحث المدقق أحقُّ
بالعزة والفخر من أولئك الملوك عبَادِ الاوهام ومستعبدى الانام .
وما أعلم لهذا الهرم من معنى آخر يُذكر سوى أنه صار يوماً من
الايام منبراً من المنابر اعتلاه جبارٌ آخر فرنسوى اسمه نابوليون
نخطب من فوقه على جنوده بكلام يهز فيهم أريحية التفاخر والتباهى
ويخدعهم به ليظلو ا على العمى في طاعته يمارسون الحروب ويعانون

أهوال الوقائع ويصبرون على الموت والقتل في هواه . وما لهذا
البنيان اليوم من فائدة حاضرة إلا كونه صار مورد رزقٍ للجماعة
من العربان التهوّاء به عن ابتغاء الرزق من قطع الطريق على السابلة .
ومما يحضرني الآن من كلام بعض المؤرخين في شأنه أن الملك
الذي شيده أمر أن يُكتب على جدرانهِ عقب الفراغ منه هذه
العبارة عن لسانه على جهة التحدّي : « إني ابتليت هذا البناء في
ثلاثين عاماً فإن جاء بعدى من الملوك من يدّعي القوة والقدرة
فليهدمه في ثلثمائة عام » . ولو عقل المسكين أنه سيأتي عصر من
العصور يمكن فيه لأحقّر صعلوك أن ينسف هذا البناء في لحظة واحدة
فيجعله كالمنهن المنفوش والهباء المنثور بمقدار قبضة اليد من بعض
الأجزاء الكيماوية لما اغترّ بسعة القوة والسلطان . ولما تحدّى
بشيء سلّمه ليد الحداث . وليس للحدثان من أمان . اللهم إنك تعلم
أنه عمل ضائع . من جهل شائع . لا ينبغي للمصري أن يراه إلا
بدمعٍ منهمر . وقلبٍ منفطر . لانه الشاهد الا كبر على كبرياء
كبرائه . وهوان أجداده وآبائه

قال عيسى بن هشام - وهنا رأينا أصحابنا قد أقبلوا وبينهم تلك
العاهرة الفاجرة فأشارت عليهم بالجلوس فاتخذوا لهم مجلساً في ظل

من ظلال الاهرام وانبسطوا على بساط الشرب والنقل . فقطعنا من بيننا حديثنا وانتهينا الى جوارهم لنسمع ونرى من أخبارهم وأحوالهم فاذا العمدة يقول للتاجر متظاهراً أمام المرأة بمظهر الباحث المدقق والعالم المحقق :

(العمدة) - هل لك علم أيها الصاحب بشئ عن أصل هذه الاهرام وسبب وضعها وتاريخ تشييدها

(التاجر) - كيف لا يكون لي علم بذلك وقد وقفتُ على قصتها تماماً وقرأتها مراراً في كتاب قصص الانبياء عند الكلام عن سيدنا نوح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام بحيث يمكن لي ان أقصها عليك حرفاً بحرف : ذلك ان الملك «سودون» كان ملكاً على مصر قبل الطوفان فرأى في منامه رؤيا أفزعته فاستدعى السحرة والكهنة والمنجمين وقص عليهم أنه رأى النجوم تنثرت والقمر هاوياً الى الارض . فقالوا له ان هذه الرؤيا تدل على حدوث طوفان عظيم يغمر الارض قريباً ولا يُبقى على شئ فيها . فارتاع الملك واستشارهم ماذا يفعل للنجاة من هذا الحادث العظيم فأشاروا عليه بابتناء هذه الاهرام حتى اذا حلّ الخطب انتقل اليها واستمعصم بها مع أهله وحاشيته وذخائره وكنوزه . فخشد الملك الالوف المؤلفة من اخلق وسخرهم لهذا العمل فانمّوا له هذا البناء

في مائتين وخمسين عاماً ثم كساها بالديباج وفرشها بالحرير ونقل إليها من نفائس الجواهر وذخائر الكنوز ما تعب الناس في حمله ونقله شهوراً كثيرة ثم إنه جمع السحرة فخصنوها له بالأرصاد والطلاسم . ولما قرب وقت الطوفان لجأ إليها بأهله وحاشيته وطفى الطوفان فلم ينبج منه إلا أهل السفينة وعوج بن عنق وهذه الأهرام . وعوج ابن عنق هذا هو حفيد آدم عليه السلام وولد في زمن جدّه وأدرك موسى صلوات الله عليه وذكر وأن ذاك الطوفان الذي علا الهضاب والجلال لم يبلغ حدّ ركبتيه فكان يخوض فيه مع السفينة فاذا أحسن بالجويع مدّ يده إلى قاع البحر فيأخذ الواحدة من السمك فيدينها من عين الشمس ويأكلها مشوية . ولما انقضى الطوفان وعاد العمران إلى الدنيا أخذ يعيش في الأرض فساداً دهرًا طويلاً حتى بعث الله موسى عليه السلام فشكا الناس إليه ما يفعله عوج بن عنق فدعا الله أن يكفيهم شرّه وكان عوج بن عنق قد حمل صخرة فوق رأسه ليلقيها على أهل بلدة حل بهم غضبه فأرسل الله تعالى طيراً له منقار من القولاذ فما زال ينقر الصخرة من وسطها حتى ثقبها فسقطت في رقبة حاملها وصارت غلاً له يمنعه عن الحركة والانتقال فجاء موسى بعصاه وكان طوله عليه السلام أربعين ذراعاً وطول العصا أربعين

ذراعاً ثم إنه وثب في الهواء أربعين ذراعاً وضرب عوج بن عنق ضربة فلم يتجاوز كعبيه ولكن قوة سيدنا موسى ألقته الى الارض لانه من أولى العزم فوقع عوج بن عنق في النيل فخرسه عن أرض مصر سنة كاملة ووقعت الوحوش الضارية تنهش من رجله فكان اذا مرّ عليه مارٌّ عند رأسه قال له : اذا وصلت بسلامة الله الى قدمي فامنع عني ما يؤلني من هذا الذباب» يعنى الوحوش المفترسة . وبقي على هذه الحال الى أن مات فاتخذوا من أضلاعه قناطر للنيل واتخذت الوحوش من عينيه وأذنيه ومنخريه كهوفاً ومغائر تسكنها وكفى الله العباد شره وفساده

(العمدة) - سبحان الخلاق العظيم أرجوك بالله يا أخى أن تشتري لى نسخة من هذا الكتاب أحملها معى الى البلد ليقراها لنا إمام المسجد أو مأذون الناحية عند خلونا من الاشغال قال عيسى بن هشام - وكان الخليع فى هذه الاثناء مشغولاً بمحادثة المرأة متفرغاً لها يضاحكها وتضاحكه ويشاربها وتشاربه فلما انتهى التاجر من قصته أقبل الخليع على العمدة يلاطفه ويؤانسّه ويقول له : (الخليع) - هل رأيت بالله عليك يوماً أعظم أنساً وأتم سروراً وأجمع لأسباب الهناء والصفاء من يومنا هذا

(العمدة) - حقاً إنه يوم سعدٍ وأنسٍ غير أنى كنت أود أن يكون هذا المجلس فى البيت لا فى الخلاء وتحت السقف لا تحت السماء . فانك ترى كثرة السيّاح والعربان من حولنا وفى ذلك من التضيق على حريتنا ما لا يخفى عليك

(الخليع) - لا تخشَ الناسَ ولا تشغلْ نفسك بالخلق واغتم اللذات بكل جسارة وإقدام وليس للانسان سوى ساعة الصفوان لم يفتنمها ترك الدنيا بصفقة المغبون . وأنا أقترح عليك الآن أن نعمل مثل عمل السيّاح برهة فى الصعود الى الاهرام حتى لا يفوتنا شئ من أسباب التّنزه

(التاجر) - دعنا من هذا الاقتراح فليس هو من شأننا وأية لذة بالله عندك فى صعود الجبل واحتمال المشقة والتعب مع التعرض للخطر فى كل خطوة

(الخليع) - هذا أمر بسيط جداً وقلّ من يزور الاهرام الا ويصعد فيها مسافة على قدر جهده . وانظر الى هذه النسوة الصاعداات النازلات فى أيدي العربان أمام عينك هل تراها تخشى خطراً أو ترهب تعباً وهل يليق بنا معشر الفحول من الرجال ان نكون أدنى من النساء جرأة وإقداماً وعلى كل حال فلا بدّ لنا من

الصعود قليلا ليعلمَ مَنْ حولنا أننا جئنا مثلهم لزيارة الآثار لا للهو
والخلاعة . والسيدة توافقني على هذا الرأي
(العمدة) - وأنا أوافق عليه أيضاً . وعسى الله أن نعثر في صعودنا
على فصٍّ من النصوص العتيقة التي طالما عثرت على مثلها في التل
الكفرى بناحية بلدتنا . ولكن كيف نترك سيدتنا وحدها
(الناجر) - أنا أنتظر كما معها

(الخليع) - لا بل تصعد هي معنا أيضاً اقتداءً بهذه السيدات
قال عيسى بن هشام - ويقومون للصعود ويتلصق التاجر في
أخرياتهم ويحاول التخلف عنهم فيدفعه العمدة بكل قوته ممازحاً له
وساخراً منه لشدة تخوفه وحذرهِ والخليع والمرأة يُغريانه به ويضحكان
لضحكه وما كادوا يصعدون قليلا حتى حانت من العمدة النفاتة
الى الارض فهاله ما بينه وبينها من الفضاء فامتقع لونه وارتعدت
فرائصه ومال على الدليل البدوى مستغيثاً به أن ينزله الى الارض
متعذراً لأصحابه ان الصفراء لعبت برأسه فلا يقوى على متابعة الصعود
فدركه الخليع فيسندُه مع البدوى فيسقط من أيديهما فيحمله البدوى
على ظهره وينزل به فما يبلغ الارض الا ونسمع من المرأة صياحاً
وعهلاً من فوق الهرم وهي تنادهم جميعاً ان يبحثوا لها عن فص

الخطم الذى وقع من إصبعها فيلحق بها الخليع فيبحث فلا يجد شيئاً فينزل معها فيلتقاها العمدة بالتخفيض والتهوين عند ما تتلقاه بالبكاء والعويل ويغاب على ظن التاجر ان الفص ربما لم يسقط في حال الصعود بل في حال الجلوس ويطلب من العربان ان يدركوه بغربال يغربل به الرمل عساه يجده فيه . هذا والمرأة لا ينخفض لها صوت ولا يرقأ لها دمع ولا تنتهى لها شكوى والخليع يُطيب من خاطرها تارة ويميل على العمدة طوراً يظهر له الاسف من الحادث الذى كدر عليهم الصفو وأبدلهم بالانس حزناً وان هذه شيمة الدهر قلماً يتم فيه صفاء او يكمل فيه سرور وما من لذة الا وهى مشوبة بالألم :

فَسَدَ الزمانُ فما لذيذُ خالصٍ مما يشوبُ ولا سرورٌ كاملٌ
على أن المصيبة هينة مادامت في المال دون النفس ومن ذا الذى
يدرى بما هو مخبأ له في الغيب والحمد لله على اللطف في القضاء .
ولا يزال الخليع بالعمدة حتى يتقدم الى المرأة ويقسم لها انها
لا تبيت الليلة الا ولديها فصٌ مثل الفص الضائع فتشكره وتقول له
أننى لها بمثل ذلك الفص وهو من الياقوت النادر المثل في لونه
وصفائه فيعيد عليها القسم بأنه سيأتيها في الغد بفصٍ أتمن منه وأجل .
ثم إنه يشد على يدها توثيقاً للوعد فتشد على يده للتقبل فيعز عليه

حينئذ أن يرى إصبعها بخاتم من غير فصّ فيخلع خاتمه الذي استخلصه من الرهن ويلبسها إياه حتى يأتيها بغيره . ويعودون الى مجلسهم يأخذون فيما كانوا عليه من المسامرة والأُنس . ويقول العمدة بعد استقرار المجلس بهم :

(العمدة) - ما أحسن المجلس وما أضيّق الوقت . وحبذا لو واصلنا الليل بالنهار

(التاجر) - لعلك تريد أن نقضى ليلتنا مثل تلك الليلة الماضية في ذلك الحان المنحوس

(الخليع) - وهل تظن انه يمكن لنا التمتع بصاحبتنا في الحان مثل ما نتمتع بها الآن وقد شاهدنا بأعيننا ما حولها هناك من المزاحمة والمخاصمة

(العمدة) - وما العمل حينئذ

(الخليع) العمل أننى أكلفها أن تمارض هذه الليلة وترسل الى صاحب الحان بتعذر حضورها عنده

(العمدة) - نعمَ الراى ما ترى

قال عيسى بن هشام - . ويأخذ الخليع في استعطاف المرأة لقبول هذا الطلب فتمتنع أولاً معتذرة بما بينها وبين صاحب الحان من

الشروط التي تقضى عليها بدفع عشرة جنيهات اليه تعويضاً عن كل ليلة تأخر عن الحضور فيها . فيلتفت الخليع الى العمدة ينتظر رأيه فيميل العمدة على المرأة متمهداً لها بدفع هذا التعويض . ثم يدور بينهم الكلام عن الكيفية التي يقضون بها ليلتهم في الأتس والسرور فيرى العمدة قضاءها في البيت ويرى التاجر قضاءها في التنقل بالمرأة في القهاوى ويرى الخليع قضاء جانب منها أولاً في مشاهدة الرواية البديعة الجديدة التي تشخص في « التياترو » العربى . فيقع اتفاقهم على هذا الرأى الأخير فيسرعون بالقيام ليدركوا فسحة الجزيرة أولاً وينصرفون على هذا العزم المؤكد . والميعاد المحدد . ويعن « للصديق » ان تخلف عنهم . ريثما تنقضى فسحة الجزيرة بهم . وأن نقضى هذه المدة الوجيزة . في زيارة قصر الجزيرة . ثم نلحق بهم عند المساء في دار التمثيل والتشخيص . ودوان الروايات والاقاصيص



قال عيسى بن هشام - ووصلنا الى قصر الجزيرة ومتحف الآثار . وملتقى السيارة من سائر الاقطار . فدخلنا روضة تجرى الانهار من بينها . كأنها الجنة بعينها . ولما رأى الباشا مسالك الروض منضدة . وطرقه مرصعة مزودة . حسبها ارضاً مفروشة . يبسط منقوشة .

وأشكل الأمر عليه . فهمّ بخلع نعليه . فقلت طريقٌ مُعبّد .
 لا فرشٌ منجّد . وحصباءٌ ومَرَو . لا بساطٌ وفَرَو . ثم شاهدنا
 قصرًا يكلّ عنه الطرف . ويقصر دونه الوصف . فسرنا نرتاد
 خلاله . ونفياً ظلاله . فاذا الأسود مقصورات في المقاصير .
 والأسود مكفوفات في القوارير . ورأينا النمرور . في الخدور .
 والرئال . في الحجال . والذئاب . في القباب . والظباء . في الخباء .
 فقال الباشا لِمَن هذه الجنان . وكيف يسكنها الحيوان . وما علمت
 من قبل أن الليوث الضواري . تسكن مغانيّ الجواري . وأن أوابد
 البيد . تتجرب في خدور الغيد . فقلت له سبحانه القادر العظيم .
 هذا بيت إسماعيل بن إبراهيم . طالما كانت حُجْرَتُهُ مَطالِمَ لَاقِمار .
 ودرجاته منازلَ لَاقِدار . كان اذا نادى صاحبه فيه « يا غلام » .
 شقيت أقوام وسعدت أقوام . ولَبَّى نداءه البؤس والندى . بأسرع
 من رجع الصدى . وكان مَن احتفى بظل هذا الجدار . تحامته
 غوائل الأزمان والادهار . - هنا كان يُفصل الامر ويحكم .
 ويُنقض الحكم ويُرم . - هنا كانت تنفرط فرائد القلائد . من
 أجياد الخرائد . فتختلط بمنشور أزهاره . وترصع لجين أنهاره . -
 هنا كانت تتناثر الحلي من قدود الحسان . فتشتبه بأثمار الاغصان . -

هنا كانت تصدح القيان على المزاهر والأعواد . فتجيبها ذوات
الاطواق فوق الأفنان والأعواد . فأصبح اليوم حديقة مبتدلة
عامّة . وموطناً لأقدام الخاصة والعامّة . وأصبحت أرضه تكثرى .
وجنى أشجاره يُباع ويُشترى . ودوى فيه صياح النسور وزئير
الأُسود . وامتلأت أرجاؤه بعواء الذئاب وهمهمة الفهود . وزال
ما كان فيه من عزٍّ وطول . ومجدٍ وصول . وأيدٍ وحول .
وَصَدَقَ الْكِتَابُ فَحَقَّ عَلَيْهِ الْقَوْلُ :

في هذه الدار في هذا المكان على هذا السرير رأيتُ الملكَ قد سقطاً
وذكرت للباشا ما كان لصاحب هذا القصر . ومليك ذلك
العصر . من الجدِّ الصاعد . والبخت المساعد . وما صار اليه بعد
ذلك من نحوسة السعد . وما دهاه في الغربة الى سكنى اللحد . وما
ذاقه في هذه الدار دار الفناء . من مثل عذاب تلك الدار دار البقاء :
نالوا قليلاً من اللذاتِ وارتحلوا بِرِغْمِهِمْ فاذا النِّعَاءُ بِأَسَاءِ
ثم وقف الباشا برهة ففكر فيها واعتبر . وتلا : « ولقد جاءهم من
الأنبياء ما فيه مُزْدَجَرٌ حَكْمَةٌ بِالْعَةِ فَمَا تَغْنِي النُّذْرُ »

ثم إننا سرنا في وسط الحديقة . حتى انتهينا الى دأو التحف
العتيقة . فدخلناها نشاهد ما أبرزته بُدُ البعث من الخفاء الى

الظهور . وما أعادته قوة التنقيب من البلى الى النشور . وما صانته
أحادي القبور . من يد الفناء والدثور . وحمته أحشاء الرُموس . من
العفاء والدروس . وما أجنّته أرحامُ المعابد والهياكل . من بقايا
المواضي وخفايا الاوائل . وما انسدت عليه سُجوفُ الاحقاب .
من ودائع الاسلاف للاعقاب . وما انشقت عنه الارض من مكنون
الدفائن . ومكنوز الخزائن . وعجائب الفن الدقيق . وبدائع الصنع
الانيق . بليت في اصطحابها جدّة الايام والليالي . وانحنت على
احتضانها ظهورُ العصور الخوالي . ومضت دول بعد دول . وذهبت
أول في إثر أول . واندثرت مدائنُ ونشأت مدائن . وبادت
مواطنُ وقامت مواطن . وانقلبت الاغوارُ أنجادا . والأبحار
أطوادا . وغدا العمارُ خرابا . والغمارُ سرايا . والسرابُ غمارا .
والخرابُ عمارا . وهى هى مصونٌ شكها . كما تركها أهلها . لسانٌ
صادق . وخبرٌ ناطق . تنطق بالعبر . وتحدث عن غبر :

مضت غبراتُ العيش وهى غوابرٌ على الدهر مكتوبٌ عليها حبايسُ
وأقنا هناك ننتقل بين الاصنام والتماثيل . ونتأمل فى التصاویر
والتهاويل . ونفكر فى هذه العظام المنشرة . والرُفات المنظرة .
بما عليها من الحلى والزينة . وتلك الاحجار الثمينة . كيف كانت

ملوكاً للأئمة . ثم بقيت على بلي الرمم . وتوالى القِدم . في حال
الوجود مع العدم

ورأينا بجانبنا رجلاً من ذوى العمام . مع فتى من الطرز المتحاذق^١
المتعالم . ظهر لنا من أمرهما . وتبين من شكلهما . أن الرجل عين
من أعيان المدينة . وأن الفتى ابن له وزينة . وإذا هما يتناظران
ويتحاوران . في ما يريان ويُبصران . فدنونا منهما . وأنصتنا اليهما:
(الابن) - أَشْهَدَتْ مَشَاهِدَ عَزَّائِرٍ أَرَأَيْتَ مَعَاهِدَ نَحْرِنَا وَعَلِمَتْ
كَيْفَ كَانَ مَقْدَارُ مَجْدِنَا وَالْإِيَّةُ رَتَبَةٌ بَلَّغَتْ بِنَا صِنَاعَةَ أَجْدَادِنَا
فَلَلَهُ دَرْهَمٌ مَا كَانَ أَرْقَاهُمْ فِي الْفِكْرِ وَأَبْدَعَهُمْ فِي الْعَمَلِ . وَلَوْ أَنَّ نَوَابِغَ
الْأُئِمِّ اجْتَمَعُوا الْيَوْمَ اجْتِمَاعَ مَفَاخِرَةٍ وَنَزَلُوا إِلَى مِيدَانِ الْمُنَاضِلَةِ
وَالْمُنَظَرَةِ لَمَّا سَبَقَ الْمَصْرِيُّ مِنْهُمْ سَابِقُ . وَلَا تَعْلُقُ بِأَثَرِهِ لَاحِقُ .
وَلَكَانَ لَهُ مِنْ بَيْنِهِمُ الْكَعْبُ الْأَعْلَى . وَالْقِدْحُ الْمَعْلَى . وَهَذِهِ
الْآثَارُ فِي يَدِهِ يَفَاضِلُ بِهَا وَيَفَاخِرُ . وَيَنْشُدُ عَلَيْهِمْ قَوْلَ الشَّاعِرِ :
هَذِهِ آثَارُنَا تَدُلُّ عَلَيْنَا الْبَيْتُ

(الوالد) - مَا أَرَى شَيْئًا فِي هَذِهِ الْآثَارِ الَّتِي تَتَجَدُّ بِهَا وَتَفَاخِرُ
بِفُوقِ مَا يَكُونُ فِي السُّوقِ مِنَ الْبُضَاعَةِ الْكَاسِدَةِ وَالسَّلْعِ الْبَاطِرَةِ وَمَا
بَتَخَرَّجَ عَنْ بَيُوتِ النَّاسِ مِنَ الْأَعْرَاضِ الْوَاهِيَةِ وَالْأُمْتَعَةِ الْبَالِيَةِ

(الابن) - كيف يكون منك هذا القول وهي بشهادة العالم
أجمع أثمن من كل ثمن وأنفس من كل نفيس لا تقويم لها ولا تقدير
الابالقناطير المقنطرة من الذهب والفضة وكيف غاب عنك تهافت
هؤلاء الغريبين أهل المدينة الحاضرة على اقتناء شيء منها بالمال الجم
وتنافسهم في التمتع بمشاهدتها يحملون لذلك الاسفار البعيدة .
والمتاب الشديدة . ولا يُعقل وهم هم أهل الهدى والعلم أن يشتغلوا
بباطل . أو يجهدوا أنفسهم على غير طائل

(الوالد) - لكم دينكم ولى دين . وما أزال اكرّر القول لك
بأننى لأجد فى نفسى شيئاً مما تشعرون به فى هذا الباب . وما أراه
من هذه الاحجار والتمائيل لا يساوى فى نظرى الا أنفاض بيوت
عَفَت أو طولول درست وإن صح ما يقال عن هذه التمايل أنها
أشخاص قديمة نزل بها السخط والمسح كان التعلق بها والتمجد بها مما
يُغضب الخالق ولا يُرضى المخلوق . وأما قولك إن فيها منتهى نخرنا
ومجدنا لانها من صنع آباءنا وأجدادنا وإن آباءنا وأجدادنا هم من
نسل هذه الرمم الفرعونية فانه إنهم ونُكر استعيز بالله منه « كبرت
كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون الا كذبا » ما كان أجدادنا
وآبائنا الا أولئك العرب الكرام أهل الدين والاسلام لانفاخر الا

بمفاخرهم ولا ينتسب لغير أصلهم. وأما من جهة الصنعة في كل ما أراه هنا فإن صبيان الفلاحين اليوم يشتغلون بصنع مثل هذه الآثار والاحجار ويتفننون في تقليدها فتخرج من أيديهم وهم بين الروث والطين أتقن صنعاً من هذه المحببة في القصور . المصونة في البلور (الابن) - عَلمَ الله لو كان في لغتنا العربية من الكتب المؤلفة في مزايا هذه الآثار مثل ما في اللغات الاجنبية لعلمت منها ما لم تكن تعلم على أن مجرد النظر يكفي وحده لإثبات هذه الآيات والمعجزات في حسن الصنعة والدقة . أفلا تنظر الى هذا التمثال البديع تمثال شيخ البلد وهو قطعة واحدة من خشب الجميز . فما أدقّ الصنع وأتقن العمل وما اكمل الشبه وأجمل الصورة

(الوالد) - نحن في كل يوم نشاهد مائة شيخ بلد من لحم ودم لا من خشب وحجر . فدعني على غباوتي وجهلي وبارك الله لك في علمك وعقلك

(الابن) بصوت خفيّ - واغفرْ لأبي إنه كان من الضالين « -
(ثم يجهر بالقول) - لا لزوم حينئذ لطول إقامتنا هنا وهلمّ بنا فقد حلّ الميعاد المضروب بيني وبين ذلك السائح الذي زارنا بالا مس لتناول العشاء معه في « أوّيل شبرد »

(الباشا للصديق) بعد انصرافهما - ماذا تقول في هذه المناقشة وما دار من الكلام بين الولد والوالد

(الصديق) - ماعساى أن أقول غير ما قاله الله عز وجل :
 « فَخَلَفَ مِنْ بَـعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ
 فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا » وماذا نرى هنا غير الذى رآه هذا الوالد
 البسيط الساذج : قبور مقلوبة ورموس معكوسة وأحداث منبوثة .
 فان كان الغرض من عرضها العبرة والموعظة فان فيما هو أمامنا كل
 يوم من هبوط الملوك عن ذهب العرش . الى خشب النعش . ومن
 وسائد الجبر . الى مساند الحجر . ومن ظهور الصافات الجياد .
 الى بطون الديدان فى الاكفان والألحاح . لنعم الموعظة الحاضرة
 للنظر والحس . والحكمة البالغة للعقل والنفس

(الباشا) - هذه هى الحقيقة بعينها فى نظرى الآن . وقد كنت
 أحسب أن لهذه الآثار شأنًا عظيمًا فى ماضى من دهرى عند
 ما كنت أرى تهافت الغربيين عليها فى زمن الولاة السابقين ولكن
 لعل شأنها عندهم وعلو قيمتها لديهم هو لأجل توغلها فى البلى والقِدَم
 ومحللها من التاريخ وما تحمله من نقوشا عليها . من أساطير الاولين
 (الصديق) - نعم إن كان من وراء هذه الآثار والأشلاء قيمة

عند الغربيين فانما هي كما تقول لتعلقها بمباحثهم في أخبار الاوائل
وفلسفة التاريخ وزد على ذلك حبهم للاقتناء وتوابعهم بالاختصاص
بالنادر ولذلك علت قيمتها عندهم وارتفع قدرها بينهم وليس
للمصريين منها اقل فائدة سوى الشهرة بأن في مصر آثاراً تفوق
في القدام مثلها من بقية المتاحف . ولو أنك عرضت أهل مصر
على هذه الآثار واحداً واحداً لما استفادوا منها شيئاً ولا أفادوك
عنها شيئاً ولما وجدوا لها قيمة تذكر سوى النزر اليسير من المقلدين
للغربيين ولم تجد بين العشرة الملايين اليوم سوى شخص واحد
يفقه لغة «الهيروغليف» أعنى لغة آبائهم وأجدادهم كما يزعم الزاعمون
مع كثرة الخبيرين بها من الامم الغربية والله أعلم بمقدار علمه بها.
ولو تمنيت الأمانى لقلت عسى الله أن يخفف بقيمتها العالية بعض
ما على الحكومة المصرية من أثقال الديون وما على المصريين من
أعباء الضرائب والمكسوس . وياليت المصريين يخرجون عنها لاعليهم
ولا لهم فانها تكلف الأمة المصرية نفقات على البحث عنها في خبايا
الارض وجمعها والتحفظ عليها ونقلها من أماكنها الى المتحف
وناهيك بنفقات المتحف التي أنفقتها الحكومة أولاً على متحف
بولاق وثانياً على متحف الجزيرة وما تنفقه ثالثاً على المتحف الجديد

بقصر النيل فانها تُعدُّ بالملايين

(الباشا) - كنتُ أرى رأيك هذا وأتمنى أمنيته لو لا أن يقال إن في المحافظة على هذه الآثار والحرص على بقائها بمصر مزية أدبية لها قدر عظيم يعرفه من عرف مقدار حرص أهل الممالك الأخرى على الآثار والتحف وشدة ضنهم بها فلا يرغبون مطلقاً في بيعها والتخلّي عنها ويرون فيها نخرهم ومجدهم فلا يليق بمصر أن تشذ عن هذا السبيل

(الصدّيق) - إن حرص أهل الممالك على ما في متاحفهم من الآثار وتفاخرهم بها هو لا أنها عندهم علامة من علامات التغلب والانتصار وإشارة إلى المجد القديم والعزّ التليد ولكن أين علامة التغلب والانتصار عند المصريين وما هي إشارة المجد والشرف في هذه الرمم البالية رمم أهل الجهل والظلم من أغنياء الملوك الأقدمين - ولأن الغريين في غير حاجة إلى قيمة أثمانها فهي عندهم من الكماليات . أما عندنا فالأمر بالعكس ولم تأتأنا هذه الآثار من جهة الفتح والنصر . وإنما جاءتنا من طريق النهب والخنز . والمصريون في حاجة إلى المال لإيفاقه في ضروريات المعاش وقلماً يمرّ عام الا ويكتشف المكتشفون في مصر من هذه الآثار الشيء الكثير بحيث يوجد

لكل نوع منها أشباه كثيرة فاضراً المصريين لو تخلّوا عن بعض هذا الكثير الزائد وعن تلك الاشباه المتعددة وانتفعوا بقيمة أثمانها في بعض شؤونهم العامة ويبقى في المتحف مع ذلك من الآثار ما يكفي للخفضة والمباهاة ومباراة الأمم في تشييد المتاحف . وإن كان قد جاز لحكام مصر السابقين أن يهادوا ملوك أوروبا وأميركا بالجانب العظيم والقدر الجليل من هذه الآثار القائمة اليوم في الأنحاء المختلفة من أقطارهم وأن يغصّوا النظر عن الوافدين على الديار المصرية لسلبها أو ابتياعها من أيدي الفلاحين بدرهم أو دينار فلم لا يجوز التخلي عن بعضها للانتفاع بأثمانها وهي على ما تراه - مالا يباع فانه يُتَقَسَّمُ - وجملة القول أن الانتفاع بها اليوم قاصر على الأجانب وحدهم إما بمشاهدتهم لها في ديارنا أو بابتغالها مسلوبة إلى ديارهم . وأيُّ عار على الأمة المصرية أن تتصرف في بعض الآثار المتشابهة التي تفتها لها الكهوف والتلال في كل يوم لتنتفع بأثمانها في ترقية شأن المعارف وبحث الأدب بطبع تلك الكتب المخزونة للأرض بالكتبخانة المصرية في المطبعة الأميرية التي طالما أفادت الناس بطبع الكتب النافعة في أيام الحكومة السابقة حكومة الجهل والظلم . وخبروني ناشدكم الله أيُّ نفع وفائدة للامة المصرية الإسلامية في أن تُنشر

بين يديها رمم الفراغة في الانتكخانة وتُقبر أرواح العلماء والحكما
في الكتبخانة . وأى الامرين أعظم نفعاً وأكثر ربحاً أن يُعرض على
أعيننا تمثال « إبيس » وصورة « إيزيس » وذراع « رعمسيس »
ونخذ « امينوفيس » أو أن تداول الأيدى كتاباً للرازي ومقالة
للفارابي وفصلاً لابن رشد ورسالة للجاحظ وقصيدة لابن الرومي .
ما تجرى الامور عندنا شهد الله الآ على التناقض وما تسير الآ على
خلاف المصلحة

قال عيسى بن هشام - وجاء أوازُ الخروج فقمنا نسمى . لنلحق
بأصحابنا في الملهى . ونشاهد ما يتم عليه حالهم . وينتهى اليه ما لهم
* *

قال عيسى بن هشام - وعُذنا الى المدينة وقد مدَّ الغروبُ جبالته .
ليقتنص من الأصبيل غزالته . فتفرقت نفسها شعاعاً . واضمحلت
قرصها شعاعاً . وجدت نافرة الى كناسها . وهى تُصعدُ الشفق
من أنفاسها . ثم اختفت شقائق الشفق . تحت أحكام الافق . ولما
أن اخضرَّ من الليل جانبه . وطرَّ شاربه . وتوقدت مصابيح السماء .
فى قباب الظلماء . قصدنا دار التشخيص والتمثيل . وبيت التصوير
والتخييل . فدخلنا مع الداخلين نساء ورجالا . أجناساً وأشكالاً .

واختارنا جلوسنا الكراسي دون الغُرف . لتيسر لنا المشاهدة من كل طرف . ثم جلسنا نحدد النظر . في من حضر . وإذا نحن بين أخلاط من الطبقات اختلفت أزيائهم . واتفقت أذواقهم وأهواؤهم . وعلا ضجيجهم وصياحهم . وكثر لعبهم ومزاحهم . سباً وشتماً . ولكزاً ولكمهاً . ثم يتمايل بعضهم على بعض . ويضربون بعصيهم وأرجلهم ظهر الارض . رجالاً وغلماً . شباباً وولداً . متظاهرين بملل الاصطبار . ومطالبين برفع الستار . ثم حولنا النظر الى أعلى الشرف وجوانب الغُرف . فرأينا من بينها مقاصير عليها رقائق الستائر . تشف عن لوامع الآلئ والجواهر . في نحور الحور . من مكنونات القصور . وبيضات الخدور . ولولا التأدب لتخيلناها من بنات الفجور . فهن يزحزن من الوشى والخبر . ويكشفن عن الطُر . تضيء بالغُرر . ضوء الليل تحت القمر . ويتراين ترآني الكواكب والنجوم . من خلل السحب والغيوم :

وتنقبت بخفيف غيمٍ أبيض هي فيه بين تخفُّرٍ وتبرُّج
كسفنس الحسناء في مِرَاتِهَا كملت محاسنها ولم تنزَّج
والرجال من تحتها ينظرون ويتشوقون . ويتشوقون ويتلهفون .
لا لتثنى أبصارهم عن وجهها . ولا يحولون الوجوه عن قبلتها . فهم

قائمون على عبادتها عاكفون . لا ينفكون عنها ولا هم يستنكفون .
وهنَّ يُوالينَ الضحكات . ويُساينَ الحركات . ويتبادلنَ معهم
الغمز . ويتبادلونَ معهنَّ الرمز . ويتراسلونَ بمراوح تثير مكنون
الهوى والغرام . ويشيرونَ بمناويل تغنى عن فصيح اللفظ والسكلام .
وقد خرقت الأصابع نسيجَ الأستار . لتنفذ منها رسل الأزهارة .
وتقابلتَ بينهم المناظير بالمناظير . تدنى البعيد وتكبر الصغير . وكل
فتى يرى أنه المرمى دون سواه بالنظرات . وأنه المعنى بتلك
الإشارات . فيتصنع التجميل والتظرف . ويتكلف التألق والتلطف .
وفوق أعلى الشرفات أقوام وأى أقوام . متزاحمين اكواماً على
اكوام . كأنهم فى سوق من أسواق الأنعام . لا يذهبون فيه عن
الشجار والخصام . وتفقدنا أصحابنا فى أنحاء الملهى . فوجدناهم فى
غرفة والعاهرة فى أخرى . وقد تزيت بزىّ الاجنبيات فنبذت
الخمار والإزار . وتبدتْ فى القُبعة والزنار . وهى تغامر العمدة
بعميها . وتشير اليه بيديها . والخليعُ يكون تارةً فى الغرفة عندها .
وأخرى يظهر فى غرفة بعدها . الى أن دق الجرس بالدخول .
وارتفع عن الملعب ستره المسدول . وظهر فيه أمامنا طائفة من
الممثلات والممثلين . ما بين ملحنين ومرتلين . على طريقة يمجها

السمع . ويعافها الطبع . وبكلامٍ بهم . وألفاظٍ لا تفهم . كأنهم
 حُداة في مفازة . أو سعاة في جنازة . وهم في أزياء متعاكسة .
 وأشكال غير متجانسة . وثيابٍ تنافرت ألوانها . على أشخاص
 تباينت أوطانها . وظلوا يعبثون بالاناشيد والتلاحين . ثم انصرفوا
 عنا بعد حين . ثم ظهر من بعدهم رجل مكتهل . مزجج الحواجب
 مكتحل . صبغ الخد والجير . بأحمر كالورد وأبيض كالياسمين .
 فأخذ يخطر ويتنى . ويهتف ويتغنى . وبجانبه امرأة نصف . تمايل
 وتغطف . لا تقل عنه شيئاً في باب التصنع والتدهن . والتصنع
 والتلون . يقول لها في شكوى الغرام . وشرح الوجد بها والهيام :
 « يا حبيبة الفؤاد . وغاية المراد . ما ألطف هذا الشكل . فبياً
 بنا نغتم الوصل »

فتجيبه : « قد يكون ذلك أيها الخل الوسيم . اذا ساعدتنا أمي
 نسيم . فدبر أنت ماعليك . وها أنا ذاهبة لأرسلها إليك . »
 ثم تنصرف الفتاة ويبقى الفتى في انتظار حضور الأم فتدخل عليه
 واذا هي عجوزٌ شوهاء وجُلِيَّةٌ ورهاء فيتصل بينهما الكلام
 وينتهي بالقبول والاتفاق ويضع الفتى في يدها كيساً من الدراهم عند
 مفارقتها إياه ثم ينفرد متجولاً يمشد ويغنى مدة من الزمن ثم يذهب

لسبيله وتأتى الأم ومعهما زوجها واذا هو رجل قد أثقلت ظهره
السنون ولم تفده التجارب شيئاً فاحتال عليه ليقبل زيارة الفتى وتردده
على ابنته فى بيته فيتمنع ويتعلل بقوله : « حقاً ان ذلك الشاب .
هو ألح من الذباب . وهو عندى أفسق من الشياطين . وأخبت
من البراذين . لا يترك من النساء الدون . ولا العجوز الحيزبون . »
فتجيبه بقولها : « لا تخف أيها الزوج الافضل . فما كل الطيور
تؤكل . وابنتنا العاقلة الخلوة . لا يخشى عليها منه فى الاجتماع ولا
فى الخلوة . » ثم يطول الكلام بينهما وينتهى بقبول الوالد مادبره
له كيد الوالدة . ثم يذهبان ويجتمع العاشق بالفتاة فيتعانقان ويتلازمان
وتقول له فى حديثها : « الحمد لله أيها الشاب الانيق . على التيسير
والتوفيق . فقد سهلت أُمى لنا الطريق . ولم يبق أمامنا الا استرضاء
الخادمة . حتى تكون لاسرارنا كاتمة . فيجيبها : « نعم وان لم تطاوعنا
فانها تصبح حزينه نادمة . لاني أقسم يابنت الكرام . بما بيننا من
الحب والغرام أننى اذيقها كأس الحام . بحد هذا الصمصام . إن
امتنعت عن تسهيل الارب . بقبول ما فى هذا الكيس من الذهب . »
فتقول له : « آه يا حبيبى ما أطرب الخلوة . وما أطيب الخلوة . حيث
نسبح فى بحر النشوة . وهياً بنا ايها الهمام . فأنى اسمع صوت أقدام .

وعندي الآن أن أحسن طريقة . ان تنشق نسيم الصبا في زوايا
الحديقة . فيقول لها : « حُفَظَتِ ياسيدي ومولاتي . ومنبع حياتي
ومماتي . فالآن قد بزغت شمس سعودى . وعطر الاكوان عَرف
نَدَى وعودى . »

ثم يذهبان ويحضر بعدهما غيرُهما فيتداول الكلام بينهما مرة
عن سرقة واحتيال . وخيانة واغتيال . وأخرى عن احترام واقتراف .
واختلاس واختطاف . ثم يعلو بينهم الضجيج ويصيحون بغناء كأنه
نَدب وعويل

وعلى هذا ينتهى الفصل الاول ويُرخى عليه الستار ويجد الحاضرون
حينئذٍ فى الصفير والتصفيق والتأوّد والشهيق كأنهم جميعاً فى نوبة
من الصرع أو المسّ . ثم إنهم يتنائلون الى الخروج لشرب الخمر
والتدخين وتقيم نحن جلوساً فى مكاننا فيلفت الى الباشا ويقول :
(الباشا) - لقد سئمتُ - علمَ الله - ومللت من منظر هذه المراقص
والملاعب فما أشبهها ببعضها وما أجمعها لأشتات النقائص والردائل
على اختلاف أوضاعها

(عيسى بن هشام) - ليس هذا المكان فى أصل وضعه بمرقص
ولا تلمع هذا هو « التياترو » المعروف عند الغربيين بأنه أصل

التشقيف والتأديب ومنبع الفضائل ومحاسن الاخلاق يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وهو عندهم توأم الجرائد تلك تعظ بالخبر وهذا يعظ بالنظر فيغرس في النفوس صورة الفضيلة مجسمة للأبصار بما يعرضه على الناظرين والسامعين من تاريخ أهل الفضائل في الازمان الغابرة أو الحاضرة ويفعل في النفوس ما لتفعله الرواية والخبر وهي في بطون القصص والسير فيمثل لك محاسن الفعال ومحامد الخصال وما تأتي به عواقبها من الظفر بالمرغوب والحصول على المقصود وإن اعترضتك معها المصاعب ونالتك المتاعب ويشرح لك شناعة الرذيلة ويصور رفضاغة النقيصة وما يكون في عاقبتها من السوء وفي أثرها من المكروه وإن خلبتك بمنظرها ساعة وخذعتك ببهرجها برهة فيجتمع لديك من الموعظة والعبرة ما عساه يردعك عن القبيح ان همت به ويردك الى الحسن إن تقاعدت عنه ويهديك الى الطريقة المثلى ويخرجها لك من الغيبة الى الشهود ومن القول الى الفعل فتنجذب نفسك الى أنواع الفضيلة من شجاعة وشهامة وكرم ومروءة وأمانة ووفاء وسماحة وسجاجة وصبر وحلم وينفر طبعك عما تجمععه الرذيلة من دناءة وجبن وخيانة وغدر وجهل وحمق وفحش وفسق

(الباشا) - ان كان الامر كما تقول فكيف تسنى للمصريين أن

يقلبوا وضعه ويشينوا شكله ويجعلوا هذا المكان على مثل حال الحان
فلا فرق عندي فيما أنظره هنا الآن وما رأيته في الحانات الأخرى
من الرقص والعزف ومعاودة الخمر ومغازلة النساء وتمثيل أحوال
العشق بأفضل شكل يفري به ويهيج من شهوات النفوس اليه .
فاذا كان التشخيص على هذا النمط معدوداً بينهم باباً من ابواب
الآداب وهم يحضرونه ويشاهدونه على هذا الاعتقاد فان شره عندي
أعظم من شر الملاعب والمراقص الأخرى لأن الداخل اليه لا يرى
على نفسه من لائمة يثقيها في دخوله ولا ينكر على ادبه منكرأ فيه
ولا يخشى انتقاداً عنده فتسترسل النفس في غيها ولا تجد منها لها
رادعاً ولا وازعاً بخلاف الحال في الداخل الى تلك الحانات فانه
يدخلها وهو واثق بأنه قادم على ما يلام عليه ويعاب فيأتيه وفي نفسه
من الخجل والحياء ما عساه يصرفه يوماً عن غيه وجهله . والاقدام
على المحرم الصراح فيه من نأيب النفس ما يزجر وينهى لكن
الاقدام على تحليل الحرام وإباحة المنكر هو الداهية الدهية والمصيبة
العامة فلا وازع من الخجل والحياء ولا زاجر من خوف الهلاك
والعقاب .

(عيسى بن هشام) - لا تأخذن ما تراه هنا من التقصير دليلاً على

أن هذا الفن غير مفيد للآداب فقد قدّمت لك أنه فن غربيّ ووصفته لك بمقدار ما وصل اليه من الاتقان لدى الغربيين وهو لا يزال هنا على حال القصور والانحطاط لم يلتفت المصريون إلى إتقانه وحسن وضعه وجهل الناس أصل الغرض المقصود منه فحسبوه نوعاً من أنواع اللهو والخلاعة على ما ترى . وعذر الذين يشغلون بهذا الفن في تقصيرهم أنه لا بد من مساعدة أهله بالمال ليتمكنوا من السعى في ارتقائه وإتقانه وهم يلومون الحكومة المصرية في كل يوم حيث تبذل المال لمعاونة الممارسين له من جماعة الغربيين أسوة ببقية الحكومات الغربية ثم إنها تحرم أهل بلادها كل مساعدة من هذا القبيل

(الصدّيق) - قد سمعت مقالك وعندي أنه يجب على الباحث في الأمور المتعلقة بتربية الاخلاق وتهذيب الطباع أن ينظر أولاً إلى تأثير التربة والاقليم وإلى تركيب الفرائز والفطر وإلى العادة والعرف . ولا يتحتم أن ما يكون دافع عند الغربيين يكون له نفع عند الشرقيين لاختلاف ذلك كله فيهم وتفاوتهم بينهم . والشواهد كثيرة حجة على أن ما يكون في باريس حسناً يكون في برلين قبيحاً وأن ما يكون في لوندرة حميداً يكون في الخرطوم ذمياً وما يكون في

رومية حقاً يكون في مكة باطلا وما يكون عند الغربيين جداً يكون عند الشرقيين هزلاً . ولست أرى أن هذا الفن لو تم لأصحابه ما يبتغونه من وفرة المال ومعاونة الحكومة أن يصلوا به الى حد الاتقان المطلوب ولا أن يكون له النفع المقصود في تربية الأخلاق وحسن الآداب لمافيه من المنافرة البينة لطبائع أهل المشرق وأخص بالذكر منهم أهل الاسلام لا بل ربما كان منه الضرر البحت . ولا يغيب عنك أن هذا التشخيص والتمثيل قائم على أساس العشق يدور فيه بكل أدواره ولن تخلو قصة من قصصهم التي يمثلونها عن ذكر العشق والغرام وما من رواية لهم الا والعاشقان يكونان فيها كالفاتحة والخاتمة لها . وهو إن كان مقبولاً عند الغربيين مسموحاً به لموافقة العادة عندهم وليكونه شيئاً لا عيب فيه يجهر به فبنائهم وفنياتهم بل هو أصل من أصول التزاوج بينهم قضت به رطوبة الإقليم وضرورة الحال الى ما يهيج الشعور ويثير ناثرة الخيال لكنه غير مقبول عند الشرقيين ولا مسموح به في عاداتهم ولا يدخلونه في أبواب الفضيلة ومحاسن الآداب ولذلك كان شأنه السكتمان والتستر لا النجاء به والتظاهر . ولقد جرى العشق في بعض البلاد الشرقية مجرى العيب المحض والعار الفاضح وكان عند بعض قبائل العرب اذا اشتهر أحد فتيانهم

بعشق فتاة منهم منعه عن الزواج بها لهذا السبب وربما رفعوا أمره الى السلطان إن شَهِرَ بها في شعره فهدر دمه . فهذا العشق الذى هو الركن الاكبر والسبب الاعظم في حصول التزاوج عند الغربيين هو من أكبر الموانع في التزاوج لدى الشرقيين والتجاهر به من الامور المكروهة عندهم لطبيعة الإقليم في حدة المزاج وتوقد الشعور وتلهب الاحساس . ثم إن تهذيب الاخلاق بهذا الفن لا يأتي الا من الطريق المألوف والمسلك المعروف عند أهل كل بلد فتشخص هذه الاقاصيص والروايات الغربية الموضوعات على أخلاق أمة بذاتها لا يؤثر في أمة أخرى ولا بد أن يكون التشخيص والتمثيل بين الشرقيين مطابقاً لأحوالهم وظروفهم جاريّاً على مقتضى عرفهم وتاريخهم وليس من المقبول عندهم حصول هذا التشهير والتمثيل في معيشة الأهل والولد وما تنسدل عليه الحجب والستور في البيوت والدور . وليس في الدين الاسلامي ما يسمح باشتراك النساء مع الرجال في تأدية هذا الفن لانه ينهى النساء عن التبرج بالزينة فضلاً عن الاختلاط بالرجال ويأمرهنّ بغضّ البصر فضلاً عن طموحه . ولا من أدب المسلمين ان يُمثّل بينهم تاريخ الاسلام وتاريخ خلفائه وصالحائه على اسلوب يتبدى بالعشق والغناء . وماذا ترى في ابى جعفر

عاشقاً و ابى مسلم مغنياً و ابى الفوارس راقصاً كما يجترى عليه الآن
اهل هذا الفن وذلك اكبر إهانة للاسلاف وأعظم خرف في
التاريخ . وإن اردت ان اكشفك بكل مايجول في خاطرى قلت لك
إن هذا الفن الذى نغالى الغربيون فى إتقانه وارتقائه لم يفدهم اذنى فائدة
فى باب الآداب وضررهم بينهم اليوم ظاهرٌ ونفعه غير بادٍ لان المعول
عليه عندهم فى هذا الفن أن يظهرُوا الفضيلة من خلل تمثيل الرذيلة
ويُبينوا عن العفاف تصوير الشهوات الى حد المبالغة التى يذهب اليها
خيال الشاعر . فتوضيح الرذائل وتبيين الشهوات وعرضها على
اصحاب الرذائل فى القوالب المختلفة بما تنطوى عليه من وجوه الحيل
والمكر والخداع والتخل مدرجة الى تعمق صاحب الرذيلة فى رذيلته
وانتفاعه فيها بتلك الوجوه المتنوعة فلا يسبقه اليها سابق . وكم تدرب
للصوص ومهر الاشقياء وبرز اهل الفسق والفجور بحضورهم تمثيل
الروايات فاكتسبوا منها ما كان ينقصهم واخذوا عنها ما كان
يعجزهم . ومن تأمل قليلاً وجد أن الشرح والإسهاب فى خفايا الرذائل
التي يندر حدوثها ويقل وقوعها كان من الاسباب فى انتشارها ولذلك
قالوا إن توضيح الجرائم التى من هذا القبيل فى القوانين مما
لا يؤمن معه تيقظ المجرم اليها . وقد سئل الشارع الحكيم اليونانى

عن سبب إغفاله عقوبة القاتل لأبيه في شريعته فقال : « ما كنت لأتصور أن يونانياً في الوجود يقدم على قتل أبيه » فكان قوله هذا أنى لوقوع هذه الجريمة من تدوينه شدة العقوبة عليها ، واكتساب صاحب الفضيلة من كشف الرذيلة لا يقوم بمقدار الضرر الذي يلحق بأهل الشر منها

قال عيسى بن هشام - ودقّ الجرس وعاد الناس الى مقاعدهم واشتدت بينهم الجلبة وعلا الصياح وزَيْن السكرُ لأحدهم ان يقوم فيهم واعظاً خطيباً فما زال يهذى في القول حتى سقط على الارض يتخبط في قيئه ورجعه • لا في دمه ونجيئه • ثم ارتفع الستار عن منظر غابة يدور فيها ذلك الفتى ويتغنى بغناء يشبه أذان المؤذن ومن ورائه عشيقته تلتفت وتتعثر • ثم رأينا قد ترك الغناء مرة واحدة وتقدم نحو الحاضرين يخاطبهم بالزجر والتأنيب على جلبتهم وصياحهم ويشكو مُرّ الشكوى من تشويشهم عليه في غنائه ثم إنه يعود الى ما كان فيه من الغناء يأخذ بيد خليلته للهروب فيدخل والدها عليها في تلك الحال فيحول بينها وبين عاشقها فينبرى له الفتى بضربة حسامٍ تلقيه على الارض صريعاً ويدركه قومه فيصوبّ الفتى عليهم أسهمه ونصاله فيلجأون الى الفرار وتقم المرأة مغشياً عليها ويقع العاشق

بأكيًا تحت أقدامها . وعلى هذا يُسدل الستار وينتهي الفصل ويعود الناس الى مكان الشرب والتدخين فنتبع أثرهم ونجلس ناحية في بعض زوايا الحان . واذا بالعمدة وصاحبيه وعاهرته جالسين جانباً أمام إحدي المنافذ وأمامهم الراح والاقداح مترعة واذا برجل عابس الوجه بين الغلظة قد وقف أمامهم يقول للمرأة في كلامه: «أتظنين أن الهرب وخُلف الميعاد يمنعك مني ويؤجل وفاء القسط المطلوب لي منك وانا لا ازال أقتني اثرك منذ الصباح الى الساعة وتحملت في البحث عنك تعباً عظيماً والحمد لله اذ عثرت بك في هذا المكان ولست أبرح من هنا حتى تعطيني مبلغ القسط أو تردّي الى هذه الحلي التي يتزين بها صدرك أمام عشاقك وخلانك» ويمد يده ينتزع الحلي من صدرها فيمنعه الخليع متوسطاً بينهما ويقول له ليس هذا وقته وليس هنا محل المطالبة وأمامك المحاكم . فلا يرجع الرجل عن عزمه بل يقول «انا لا أطالب بحقي أمام المحاكم وأمامي مالي في صدرها» ثم يمد يده ثانية فتقبض العاهرة على حليها وتميل على للعمدة تستغيث به وتستجير فتأخذه الحمية والنخوة فيدفع عنها الصائغ بيده فيقول له: ان كان قد عز عليك يا حضرة العمدة مطالبة صاحبك فالشهامة تقضى عليك بأن تدفع لي المبلغ من جيبيك لأن

تدفعني عن حقى بيدك « فيسأله العمدة عن مقدار المطلوب له فتقول له المرأة إنه لا يزيد عن عشرين جنيتها فينقد الصائغ الدراهم في الحال ويطلب منه ورقة الاستلام ثم يقدمها الى المرأة بيد الكاس بيد أخرى فتقبل حافة الكاس شكراً له وحمداً وينصرف الصائغ ضاحك السن قرير العين . ويعودون الى شربهم وحديثهم فيقترح العمدة عليهم ان يغادروا هذا المكان الى سواه وأنه يفضل الذهاب الى منزل صاحبتة ويطلب من الخليع ان ينظم لهم مجلساً هناك فوق سطح المنزل في ضوء القمر . وبينما هم في أخذ ورد اذ ابصاحب الحان الذى تشتغل فيه المرأة واقفاً على رأسها واضعاً يديه فى خاصرتيه يبكيتها بقوله . (أهذا هو المرض الذى نعتذر به عن تأخيرك فى هذه الليلة عن الشغل وهذا هو المستشفى الذى تعالجين فيه وأظن ان حضرة العمدة هو الطبيب الماهر فى هذا العصر الحاضر » ثم يجرها بيده لتذهب معه الى مباشرة الشغل فى الحان فيمسكها العمدة من اذياها ويقول له : ماهذه الوقاحة وما هذا التهجم بعد أن أخذت منها عشرة جنيهات فى نظير تأخيرها عن الشغل فى الحان ورضيت بهذا العوض لتكون على حريتها فى هذه الليلة « فيقول له : إن كانت أخذت منك هذا المبلغ لدفعه الىّ فقد كذبت فى دعواها وادّخرت الدراهم

لنفسها فإِنا أن ترد إلى المبلغ وتعهدي بأنك لا تجتمع بهذه المرأة في غير محلي وإِما أن تستعد للقضية التي أقيمها عليك بطلب التعويض الذي لا يكفي فيهِ دخل أطيانك » ويشد بينهم اللجاج والخصام فتنبى إحدى الممثلات الجالسات في الحان ممن انتهى دورهن فتستصرخ البوليس لإِخراجهم فيأتى البوليس ويصمم أن يسوقهم الى القسم جميعاً . ونخرج وراءهم لاتباعهم فيأتى الباشا ذلك كل الالباء وينفر عنه كل النفور ويقول أنا لا أتوجه الى القسم لاشاكياً ولا شاهداً ولا مراقباً ولا مستخبراً فقد جرّبت مايقع فيه . وكفانى ما علمته من ظواهره وخوافيه . وقد شعرت بسأم في النفس . وصداع في الرأس . فلنذهب الى البيت لنتمتع بشئ من الراحة . ونخلص من رؤية هذه الحرمات المباحة . فأجيبه بالطاعة والالتقياد . وتترك الصديق على ميعاد



قال عيسى بن هشام - وما وصلنا البيت حتى عمد الباشا الى غرفة نومه . يحاول أن يشقى بالرقاد من غمه وهمه . فتركته في غرفته . ورغبت في النوم كرجلته . وبينما أنا غريق في المنام . أسبح في بحر الاحلام . اذ سمعت الباشا يناديني نداءً متتالياً . فقمت اليه

مسرعا وملبيا . فأخبرني أن طول التفكير نفى عنه الرقاد . وأورثه
الأرق والسهاد . وطلب مني أن نحى الليلة بالسمر . وأن أقنلها معه
بالسهر . فجلسنا نتجاذب أطراف الحديث . من قديم في الزمن
وحديث . الى ان صارت الليلة في أخريات الشباب . فاستهانت
بالأزار والنقاب . ثم دبّ المشيب في فودها . وبان أثر الوضع
في جلدھا . فعميت بالعقود والقلائد . من الجواهر والفرائد .
ونزعت من صدرها كل منشور ومنظوم . من درر الكواكب
ولآلى النجوم . وألقت بالفرقدين من أذنيها . وخلمت خواتيم الثريا
من يديها . ثم إنهما مزقت جلبابها . وهتكت حجابها . وبرزت
للناظرين عجوزاً شمطاء . ترتعد متوكئة على عصا الجوزاء . وتُردّد
آخر أنفاس البقاء . فسترها الفجر بملاءته الزرقاء . ودَرَجها الصبح
في أرديته البيضاء . ثم قبرها في جوف الفضاء . وقامت عليها بات
هديل . نائحة بالتسجيع والتريل . ثم انقلب المأتم في الحال عرس
اجتلاء . وتبدّل النحيب بالغناء . لا إشراق عروس النهار . وإسفار
مليكة البدور والاقمار . وما نشعر إلا وقد طلع الصديق علينا مع
الشمس . للموعد الذي كان بيننا من أمان . فسالنا كيف أصبحنا .
وهل نعلمنا واسترحنا . فأخبرته بما كان . من اتصال السهر الى الآن .

وما كانت تجرى عليه المسامرة . وتدور به المذاكرة . وجملتها أن
الباشا لا يزال يدهش مما يراه في رحلته . ولم يكن له أثر في أيام
دولته . ويستخبرني عن سرعة هذا الانتقال . من حال الى حال .
وما هي الاسباب والعلل . في انتشار هذا الفساد والخلل . فذكرتُ
له بعض ما حضرني منها . وما علمته عنها . وإنك خلّيقٌ أيها الصديق
أن تكشف لنا عن وجه الحق الصريح . وتخبرنا بما عندك من
السبب الصحيح

(الصديق) - السبب الصحيح في ذلك هو دخول المدينة الغربية
بغنة في البلاد الشرقية وتقليد الشرقيين للغربيين في جميع أحوال
معايشهم كالعميان لا يستشيرون بحث ولا يأخذون بقياس
ولا يتبصرون بحسن نظري ولا يلتفتون الى ما هنالك من تنافر الطباع
وتباين الاذواق واختلاف الاقليم والعادات ولم ينتقوا منها الصحيح
من الزائف والحسن من القبيح بل أخذوها قضية مسلّمة وضمنوا أن
فيها السعادة والهناء وتوهموا أن يكون لهم بها القوة والغلبة وتركوا
لذلك جميع ما كان لديهم من الاصول القويمة والعادات السليمة
والآداب الطاهرة ونبدوا ما كان عليه أسلافهم من الحق ظهرياً فانهم
الاساس وَوَهت الاركان واتقصّ البنيان وتقطعت بهم لاسباب

فأصبحوا في الضلال يعمهون وفي البهتان يتسكعون واكتفوا بهذا
الطلاء الزائل من المدينة الغربية واستسلموا لحكم الاجانب يرونه
أمرًا مقضيًا وقضاء مرضيًا وخر بنابوتنا بأيدينا وصرنا في الشرق
كأننا من أهل الغرب . وإن بيننا وبينهم في المعاش أبعد المشرق
من المغرب

(الباشا) - قد يكون ذلك ولكن لست أدري لأيّة علة اخذ
الشرقيون بباطل المدينة الغربية وارتدوا لباسها ولم يلتفتوا برهة
للرجوع الى سابق مدنيّتهم الصحيحة وعمرائهم القويم فهم اهل
السبق في ذلك كله وعندهم أخذ الآخذون وقلد المقلدون في كل
زمان ومكان

(الصديق) - لا أعلم لذلك من علة الا ما أعقب العزة السابقة من
البطر والأشر وما يتولد عنهما من طول التواني والتواكل وسوء
التراخي والتخاذل ففعلوا عن ماضيهم وذهلوا عن حاضرهم ولم يكتثروا
بمستقبلهم وقعدت بهم همائهم عن مشقة التكاليف التي كان يتباهى
أسلافهم باحتمالها ويتفاخرون بممارستها . وراق لهم أن يأخذوا بهذا
الطلاء الحاضر من مدينة الغربيين بلا مشقة ولا تعب ولا جد ولا
كدٍ فبعض مقدار اهل الغرب في أنظارهم وتوهموا أنهم من طبقة

عالية فوقهم فخصعوا وذلوا وقهر الغريون وغلبوا
 (الباشا) - ألا ليت شعري كيف يمكننى الوصول الى البحث
 والنظر فى أصول المدينة الغربية ظاهرها وباطنها وأن أقف على
 خافيتها وباديتها فى ارضها وديارها . ولاكن بعدت الشقة وعزّ المطلب
 (عيسى بن هشام) - لا تستبعد أيها الامير حصول الغرض ونيل
 المطلب فى يومٍ من الايام فانه لا يزال يدور فى خاطرى أن أرحل
 معك رحلة الى البلاد الغربية نجتى منها عمرات العلم والبحث فان كان
 هذا العزم من غرضك أيضاً فأنا أجهز له امرنا
 (الصديق) - وأنا ان شاء الله معكما

قال عيسى بن هشام - ثم قمنا وقد عقدنا النية . على تحقيق هذه
 الامنية . ونسأل الله أن يسلك بنا سبيل الهداية . فى المبدأ والنهاية

والى هنا انتهى الحديث وتم الكلام . فان كان فى الاجل

مدة باقية . وصلنا هذه الرحلة الاولى

برحلة ثانية . والحمد لله أولاً وآخراً

ومنه المنة والتوفيق

بدأتُ هذا الكتاب عند طبعته الأولى بخير ما يُبدأ به كتابٌ بعد
اسم الله وذکر رسوله : رسالة الحكيم جمال الدين
لم أرم في ذلك - علم الله - الى التنبيه من ذكرى والتنويه بقدرى
وأستغفره ثم أتوب اليه أن يكون الدافع الى نشرها هذا الغرض دون سواه
وأنا أعلم أن مثل هذه الرسائل من كبار العلماء الى تلامذتهم إنما يكون مصدرها
حث المتعلم على العلم والاغراء بالتعمق فيه كالطفل توضع في يده قطعة
العاج المنقشة علالةً يتعلل بها لتبث أسنانه بل كان نشرها لانها اثر من
الانثار يجب عرضه على النظر • ونفاضة بما يخطه ذلك القلم الجليل في أى
قصد من المقاصد ومطالب من المطالب أن بقى مطويًا فى أدراج الاوراق
وحمة أن ينشر على سائر الآفاق

وأختم اليوم الطبعة الثانية على مثل هذه النية بخير ما يُختم به القول بعد
حمد الله رب العالمن والصلاة على خاتم النبيين : هذه الرسالة التي شرفني بها
مولانا الاستاذ الشيخ سالم بو حاجب شيخ العلماء اليوم وصاحب الافتاء
بالمملكة التونسية بعد أن قرأ هذا الكتاب في طبعته الأولى • وناهيك بقدر
هذه الرسالة بركة ويمنا وشرفا وجلالا ممن يمثل لك بالفعل ما يُروى عن
السلف الصالح بالقول ويشهد لك بسيرته في هذه الايام كيف كان العالم
العامل في صدر الاسلام ويعيد لنا ذكرى البصرى في الزهد والتقى والسكوفى
في الرأي والحجى والمكي في الفقه والدين والمدني في العلم علم اليقين • هذا
الى سعة في الاطلاع وتصرف في الافكار ودقة في البحث واستنباط للامور
يؤلف الغابر بالحاضر ويطابق بين أحكام ما قضت به الحكمة في سنانف

الأوان وما تقضى به قواعد هذا الزمان :

أنفق المرء ناسكاً يطلب العلم بكشف عن أصله وانتقاد
فهو المثال التام الذي ينشده الاسلام منذ السنين والاعوام من بين العلماء
الاعلام ليعود اليه مجده ويرتد اليه حقه ويعرف بهم قدره . ولو من الله
بمن يأخذ بقدرته في سائر الاقطار ولوجرى العلماء على مثاله في كل مصر من
الامصار لاستوى الاواخر بالاولى في العلم والدين ولعاد الاسلام الى ذلك
العز القديم والنصر المبين محمد الموليحي

وهذا نص الرسالة الكريمة :

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله

أيها الجهبذ النحرير . المتصرف في أحرار الالباب . ورقيق الآداب .
بالاسترقاق والتحرير . البالغ من رتب التهذيب أفاصيها . المالك من بدائع
التربية نواصيها . أما بعد تقديم التحية . الملائقة بعزة تلك الحضرة المحمدية
الموليحية . فقد وصل الى — وأصل الله في مدارج الاجادة ارتقاءكم .
وأدام لحسن الافادة إتقانكم واتقاءكم — كتابكم لجليل . الذي يقوم
به على تقدمكم في حلبة العرفان . وبراعة البيان . وكال تربية الانسان .
أوضح دليل . فوالذي علم بالقلم . ومنح خير خلقه جوامع الحكم . إن
لقلمكم من السحر المبين . ما تنخر له سحرة البيان ساجدين . وإنه ليحقق
اللطيفة الموسوية التي لمح لتأهلكم لها كتاب الاستاذ جمال الدين . كما
يحقق ما يتفأل به من إسناد مروياتكم لاسم عيسى . وحياء موتى الافكار
المؤسسة على حياة من كان في اللحد رميسا . فيأله من معلم قدعاه منه كل

اس مشر بهم . ووجد فيه الباحثون عن وسائل الاستقامة مأربهم . فرجال
 لحكم مثلاً سواء كانوا من الامة الاسلاميه أو غيرها . يعرفون منه ملاك عز
 لامة ونمو خيرها . بإسناد الوظائف الى اهل المعرفة والفضل . والضم بها
 ن غير الال . وإقامة منار العلم والعدل . لتدارك ما تخرب بيد الجور والجهل . —
 العلماء يدركون به طرق النصح في التعليم . وعدم النفرة من الحديث لمجرد
 كونه لم يُعهد في القديم . مع ما يلزم لهم في اقتياد ذوي الجهالة والعناد من
 للاطفات . والتحذير مما يدنس الشريعة المصونة من مخلق الخرافات . —
 الحاكم الغاشم ينتهي بمطاعته بالكف والاعراض . عن كل ما يمس
 لمروءة ويدنس الاعراض . — والمُنشئ يتعلم منه كيف يسحر العقول بهيمنة
 فظه . ويستلب القلوب بحسن إرشاده ووعظه . وكيف ينتحل الاديب .
 هارة الطيب . فيشرح النصائح بأسلوب عجيب . لا يتطرقة إنكاراً أو تكذيب .
 رقد يجد المريض من حذق الطيب عذوبة التعذيب . — ثم يسترشد به الوالد
 في تربية أبنائه . ويدعوهم الى حفظ مجد البيت والثروة بعد فئانه . ويُعينهم
 على استثمار دوحه البذور . وينقذهم مما يُفرض اليه سوء السيرة من الأسواء والشرور
 ملا الله أوقات الجميع بالسرور . ولا زال يرينا من أعمالكم كل أثر
 مشكور . واذا كان لا يتيسر لغيركم رعاكم الله أن يصل بقلمه الى منتهى
 آماله . فحسبنا أن تقنع في أداء الواجب بإجماله

هذا ما حملت عليه محاولة القيام ببعض الواجب . من مقيم ودمكم وأدبكم:
 سالم بوحاجب

(جدول الالفاظ اللغوية الواردة في هذا الكتاب وتفسيرها)

﴿ حرف الالف ﴾

ابنُ ماء السماء	هو ابن المنذر وكان أسود
الأثيث	شعر أثيث أي كثير عظيم
الأراوي العُصم	جمع أروية وهو الويل . والأعصم مافي ذراعيه يياض وسائره أسود
الأوار	حر النار والشمس واللهب
أسن	أسن الماء تغير فلم يُتسرب
الأيّد	القوة

﴿ حرف الباء ﴾

البَدرة	عشرة آلاف درهم
البدّين	السمين بدّ فاق
الأيّلال	الشفاء
البازل	البعير في السنة التاسعة
البرزل	بَرَزَل الحجر ثقب إناء ها . والمِبْرَزَل المِثْقَب

﴿ حرف التاء ﴾

التلايب	مافي موضع المنحرج من الثياب
التمايم	جمع تميمة وهي عوذة تعلق مخافة العين

﴿ حرف الثاء ﴾

ثُغال الرّحى	الحجر الاسفل من الرحى

ثَنِيَّةُ الطَّرِيقِ مُنْعِطُهُ	الثَّنِيَّات
مَقَرُّ الْمَاءِ مِنَ الْأَرْضِ	الثَّبَرَة
جَبَلٌ مَعْرُوفٌ	تَبِير
الْجَمَاعَةُ مِنَ النَّاسِ . وَالثَّلَاةُ جَمَاعَةُ الْغَنَمِ	الثَّلَاة

(حرف الجيم)

جَهَرَتِ الْعَيْنُ لَمْ تَبْصُرْ فِي الشَّمْسِ	جَهَرَ
الْقَصْعَةُ الْكَبِيرَةُ	الْحَفْنَةُ
الصَّقَرُ	الْأَجْدَلُ
الصَّخْرُ	الْحَلَمْدُ
الْجَيْشُ	الْجَحْفَلُ
جَمَعَهُمُ الْكَلَامَ لَمْ يَبِينَهُ	يَجْمَعُهُمُ
الْحَوْضُ	الْجَايِيَةُ
الْحِجَارَةُ	الْجَنْدَلُ
سَمَّجُ الْوَجْهِ غَلِيظُهُ	جَهْمُ الْوَجْهِ
جَمْعُ جَنْدَبٍ وَهُوَ الصَّغِيرُ مِنَ الْجَرَادِ	الْجَنَادِبُ
الْمِهْذَارَةُ السَّيْئَةُ الْخُلُقِ	الْجُلْبَانَةُ

(حرف الحاء)

الْحَصَى	الْحَصْبَاءُ
بَاطِنُ أَجْفَانِ الْعَيْنِ	الْحَالِيقُ
الْحَمِيمُ الْمَاءُ الْحَارِ وَأَنْ شَدِيدُ الْحَرَارَةِ	حَمِيمٌ أَنْ

الحندس	الليل الشديد الظلمة
الحيا	المطر
التحدّي	المباراة والغلبة
الحجى	العقل
الآحوى	النبات الذى يضرب الى السواد من شدة خضرته
الخُمة	جمع حمة وهي إبرة العقرب
الحزن	ما غلظ من الارض
الحبى	جمع حبة وهي ما يُشتمل به من الثياب . وحلّ حبونه بمعنى قام

(حرف الحاء)

الخضراء	السماء
الخول	الخدم والحاشية
الخدّ	الحفر في الارض
الحنس	من أظماء الابل وهي أن ترى ثلاثة أيام وترد الرابع
الخورنق	قصر بالعراق
الحميس	الجيش

(حرف الدال)

الدّهماء	العدد الكثير من الناس
الدامس	المظلم
المدجج	اللابس السلاح

إلباس الغيم الارضَ	الدَّجَن
الصورة المنقشة من الرخام أو العاج	الدُّمِيَّة
المخزبات	المُنْدَبَات
النتن	الدَّفَر
اللهو واللعب	الدُّد
تكلم مغضباً	دَمَدَمَ
الفلاة	الدَّهْنَاء
البحر	الدَّأْمَاء

﴿ حرف الذال ﴾

ضرب من السير	الذَّمِيل
مسك أذفر جيداً الى الغاية	الأَذْفَر
اسم للشمس غير منصرف	دُكْلَه

﴿ حرف الراء ﴾

الخارق الذي يظهر من النبي قبل البعثة	الارهاص
جمع رَجَمَ وهو القبر	الرَّجَام
القبر	الرمس
جمع رُذِنَ وهو الكُفُّ	الأُرْدَان
السروج	الركاب
ضرب من السير	الرسيم
الانتكاس	الارْتِكاس

الزَّوَاء	حسن المنظر
ارتطم	ازدحم وتراكم
الرُّغَاء	صوت الناقة
الرَّسُوب	السيف يغيب في الضريبة
الرَّذَن	الغزل
الأرقم	أخبت الحيات
الروائم	جمع رَؤوم وهي التي تحب وتعطف
الرُّبَال	الاسد

رَضُوي	جبل معروف
المُرْقَد	دواء يُرقد شاربَه
الرتال	جمع رأل وهو ولد النعام

﴿ حرف الزاى ﴾

الزَّوَام	الموت الزوام الكريه أو المجهز
الزَّيِير	الحماة
الزَّيْرِج	الزينة
المرزَجَّة	زَجَجَ الحجاب دققه وطوّله

(حرف السين)

السيال	جمع سَيَالَة نبات له شوك أبيض
سَوَامُ بَنِي السَّيِّد	السوام الابل الراعية . وبنو السيد قبيلة تكثر فيها الابل
	السود والحر

السَّعْلَة	الغول جمعه سمالي
الاستعاط	استعط الدواء أدخله في أنفه
السَّنا	البرق . والرفعة
سَدِرَ	سَدِرَ الرجل تحير بصره
السَّناد	من عيوب القافية
الاسقاط	جمع سَقَطَ وهو الوعاء
أَسَفَّ	طلبَ الامور الدنيئة
السَّخْل	ولد الشاة
السدير	قصر معروف
السُّجوف	جمع سَجَفَ وهو الستر
السَّبال	مقدَّم للحية
تَسَكَّم	تسكَّم الرجل عما دى في الباطل
السَّيَّارة	القافلة وأصلها القوم يسIRON
الاساود	جمع أسود وهو العظيم من الحيات
	*(حرف الشين) *
شقائق النعمان	زهر أحمر
الشاكبي	التامّ السلاح
الشَوَيْهَة	تصغير شاة وهى واحدة الضأن
الشَّنْف	القرط
الشَّوْون	عروق الدمع من العين

شَرَوَى	ماله شروى أى ماله مثل
الشماريخ	جمع شمراخ وهو رأس الجبل
الشرب	جمع شارب للخمر
الشمطاء	التي خالط يياض رأسها سود

(حرف الصاد)

الصفائح	حجارة القبور
الصمد	جمع أصيد وهو الملك المتكبر الزاهي
صعْرَ خَدَّه	أمال خده تكبرا
الصلال	جمع صَلَّ وهو الحية
المُصَلِّي	السابق
المُضْعَب	الفعل الصعب
الاصمة	صمامة القارورة سداها
الضبابة	البقية في الاناء

(حرف الضاد)

الضال	السدر البري

(حرف الطاء)

الطلح	شجر عظام يرعاها الابل
المطمورة	الخنيرة تحت الارض والسجن
الطَّيَّة	مضى لَطِيتِه أَي لَنِيَّتِه التي آتواها
	(حرف الطاء)

الظُنْبُوب	حرف الساق
الظُّبَاة	جمع ظُبة وهو حد السيف
الظُّر	المَرَضِع
الظُّلُم	ماء الاسنان و بريقها
الظُّرْبَان	دويبة كالهرة منتنة الرائحة
	*(حرف العين) *
العاني	الاسير
العافي	طالب الرزق والمعروف
عَزَّة	صاحبة كُنْثَر التي كان يتشعب بها في شعره
إلعبير	أخلاط من الطيب
العَصَب	ضرب من البرود
العِقيان	الذهب الخالص
العُباهر	الترجس
عوالى المران	الرماح الصُّلبة اللدنة
المعاطن	جمع مَعَطْن وهو المناخ
العُرَاق	العظم اِكْلَ لَحْمُهُ
العِشْر	مِنْ أَظْمَاءِ الْإِبِلِ
العَرَيْن	مَأْوَى الْإِسْدِ
العَجَاجَة	الغبار والدخان
العجفاء	المهزولة

بيت الاسد	العريسة
طريقه معبد أى مذلل	مُعَبَّد
* (حرف الغين) *	
جماعة الناس	الغُمَار
جمع مغنى وهو المنزل	الغانى
جمع غمر وهو الجاهل الابله	الأغمار
الظلمة	الغيب
جمع غرارة وهي الجوالق	الغرائر
المرأة المتثنية ليناً	الغيداء
الشاب لا تجر به له	الغرّ
الطرى	الغريض
الخدم والضيوف	الغاشية
الشمس	الغزالة
قدح صغير جمعه غمار	الغمر
غمغم الكلام لم يبينه	غَمِغَمَ
شعار يلبس تحت الثوب	الغلالة
زرد ينسج من الدر وع على قدر الرأس	المفغر
ما يسيل من جلود أهل النار	الغسلين
غبر الشئ بقينته	غَبَّرَات
جمع غابر وهو الباقي والماضى ضدّ	غوابر

﴿ حرف الفاء ﴾

المفازة	الفلاة لأماء فيها
افتلى	استخرج وتأمل
الفريغ	الواسع
الفدام	الخرقة على فم الابريق
الفوّهاء	الواسعة الفم
الفؤد	معظم شعر الرأس مما يلي الأذن
الفهود	جمع فهد وهو سبع من السباع

﴿ حرف الكاف ﴾

الكُماة	جمع كميّ وهو الشجاع لابس السلاح
الكافر	الليل
الكِمال	جمع ككة وهي الستر الرقيق

﴿ حرف اللام ﴾

سجّين	الفصة
لعاب الشمس	شيء كأنه ينحدر من السماء اذا قام قائم الظهيرة تراه مثل نسج العنكبوت
اللاجب	جيش لجب أي ذو جلبة وكثرة
لِلمّا	أحيانا
لدغنه	لَسْبَتُهُ

﴿ حرف الميم ﴾

المِرط	كساء من خزّ يؤتزربه

المزهر	العود
المعود	الذى بمعدته وجع من مرض
المُرار	شجر اذا أكاكته الابل قلعصت مشافرها
المريز	القوة والشدة
الأمشاج	جمع مشج وهو الشيء المختلط
المَرهَاء	التي ابيضت بواطن أجفانها
المرو	حجارة بيض رقاق برآقة
	﴿ حرف النون ﴾
نَوَارُ	امرأة الفرزدق التي كان يتشبه بها
النَّصَف	المرأة الوسط بين الحديثة والمسنة
النِّكس	الرجل الضعيف الدنى
النِّهاط	عرق نيط به القلب الى الوتين
النُّمِرْق	الوسادة الصغيرة
النجيزة	الطبيعة
أَنْهَرَ	أنهر الدم أساله
النبراس	المصباح
نكز	نكص
الاستنفاض	أهل الاستنفاض هم الذين يُبعثون في الارض يتجسسون
المنحات	آلة النحت كالقدوم
المُنصدة	شيء له أربع قوائم يوضع فوقه متاع البيت

(حرف الهاء)

المهشم	نبت يابس متكسر
المهجر	القيح من الكلام
المبيع	الطريق الواسع البين
أهرت الشدقين	الواسع الشدقين
التهاويل	زينة التصاوير والنقوش

(حرف الواو)

الوصيف	الغلام
الوغد	الردل الذي
وَجِب	وجب القلب وجيباً خفق ورجف
وَجَم	وجم الرجل سكت من كثرة الغم
الوخيد	ضرب من السير السريع
الايطاء	من عيوب القافية
الورد	الجرى . من صفات الاسد
الوجناء	الناقة الشديدة
الورهاء	الحمقاء
الوضح	الوجار
	جحر الضبيع
	بياض الصبح

(حرف الياء)

الذباية اليراعة

﴿ بعض مطبوعات المكتبة « الأزهرية » بالسنة الجديدة ﴾ بسم الله

﴿ لصاحبها ﴾ محمد سعيد الراجحي « الكتبي »

مصحف شريف وعلى هامشه تفسير الجلالين بالتام بخط مثل خط الحافظ

مصحف شريف بهامشه تفسير الالفاظ اللغوية يمكن حمله في الجيب

تفسير الامام الجليل أبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي

تزيه القرآن عن المطاعن إملاء قاضي القضاة عبد الجبار المتوفى سنة ٤١٥ ومعه

مقدمة التفسير للراغب الاصفهاني وهي من أهم المقدمات

إحياء القلوب للرافعي الكبير على متن الحكم للإمام الشيخ الكردي

نهج البلاغة بالشكل التام بشرح المرحوم الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية

ديوان الحماسة بالشكل التام بشرح مختصر من الشروح المطولة للرافعي

الزهر الجلال الدين السيوطي وهو جزآن

تاريخ الاخبار الطوال لابي حنيفة الدينوري عنوانه وصححه الاستاذ الشيخ الخضري

تاريخ الفخرى المعروف بالآداب السلطانية مشكول ومشروح للرافعي

مقامات الجبري طبعه ميرى مذيلة ببيان الالفاظ اللغوية

الخصون الحميدية لمحافظة العتائد الاسلامية للمرحوم الشيخ حسين الجسم

مقامات الزمخشري مع شرحها للمؤلف بالشكل التام مذيلة (بمائة حكمة) لسيدنا

حديث عيسى بن هشام لأشهر كتاب العصر سعادة « محمد بك المولى

أطواق الذهب للزمخشري بشرح لطيف للرافعي بالشكل التام

أطباق الذهب للاصفهاني بالشكل التام والشرح للرافعي مذيل بمقامتين لابن الخطي

الأضداد في اللغة لابن الانباري بالشكل

نيل المراد في تشطير الهمزة والبردة وبانت سعاد بالشكل التام وبالشرح للرا

دلائل الخيرات بحجم صغير تحمل في الجيب باحسن خط واضح

العلم الخفاق في علم الاشتقاق لصديق حسن خان

شرح التدريب لما في التهذيب في المنطق

(و يوجد أيضاً في المكتبة المذكورة كثير من الكتب العلمية النفيسة)

